بلزاك

الملهاة الانسانية



البحث عن المطلق

ترجمة:
المهندس ميشيل خوري

روايات بلزاك

١٦

الإشراف الفني: زهير الحمو

البحث عن المطلق

روايـــات بـــلـــزاك

« ١٦ »

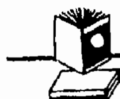
بـلـزاك

الملهاة الانسانية

البحث عن المطلق

ترجمة المهندس:

ميشيل خوري



منشـورات وزارة الثقـافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٥

العنوان الأصلي للكتاب:

BALZAC

LA COMEDIE HUMAINE

LA RECHERCHE DE LABSOLU

ETUDES PHILOSOPHIQUES

اللهاة الانسانية = La Comedie humaine / بلزاك ؛
ترجمة ميشيل خوري . - دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٩٥ . -
٢٣٢ص؛ ٢٤سم . - (روايات بلزاك؛ ١٦)

المحتوى : البحث عن المطلق

١- ٨٤٣ ف ب ل ز م ٢- العنوان الأول ٣- العنوان الثاني
٤- العنوان الموازي ٥ - بلزاك ٦- خوري ٧- السلسلة
مكتبة الأسد

الايداع القانوني : ع - ١٥ / ١ / ١٩٩٥

البحث عن المطلق

الإهداء

إلى السيدة جوزفين «دومرك» دلانوا(1)

سيدتي:

فليقدّر الله لهذا المؤلف حياة أطول عمراً من حياتي.

إن العرفان بالجميل الذي أمحّضه لك، والذي أرجو أن يعادل حنانك شبه الأمومي بالنسبة لي، سيستمر عند ذلك إلى مابعد النهاية المحدّدة لعواطفنا.

هذا الامتياز السامي بأن نمُدَّ بحياة مؤلفاتنا، الوجود القلبي، يكفي، إن وجد اليقين في هذا الصدد، ليخفف جميع المتاعب التي يعانيها أولئك الذين يدفعهم طموحهم للفوز بهذا الامتياز

إنني أردّد إذاً: « فلتكن كذلك مشيئة الله »

دى بلزاك.

---

(1) جوزفين دلانوا (١٧٨٣ ـ ١٨٥٤) هي ابنة دانيال دومرك، الرجل الغني الذي كان متعهداً لتموين البحرية الملكية، ثم تموين الجيش في عهد الثورة، وبدء عهد الامبراطورية، وكان والد بلزاك برنار فرانسوا بلزاك يعمل عند دومرك الذي توفي في العام ١٨١٦ عن ثمانية وسبعين عاماً، لكن الصداقة التي ربطت بين عائلتي دومرك وبلزاك استمرت فقد استدعى ابن دومرك، اوغوست وهو ممون أيضاً وصاحب مصرف والد بلزاك إلى العمل معه في باريس. أما جوزفين وهي أخت أوغوست وزوجة أحد الممونّين أيضاً فقد كانت بدورها صديقة كريمة ووفيّة لعائلة بلزاك وخاصة لأونوره الذي كانت تخصّه بنصائحها، وبمالها، وكان يسميها «أمه الثانية» وقد قدّم لهذه الدائنة النموذجية في العام ١٨٣٧ مخطوطة «غامبارا» اعترافاً بحنانها. أما ابنة السيدة دلانوا، كميل دي مونتو، وقد كانت صديقة للور سورڤيل أخت بلزاك فإن التشابه بينها وبين جوزفين كلايس إحدى شخصيات رواية «البحث عن المطلق» ملفت للنظر

يوجد في دوي[1]. بيت على شارع باريس، حافظ في شكله، وترتيباته الداخلية، وتفاصيله، أكثر من أي بيت آخر، على طابع الأبنية الفلمندية القديمة، المتلائمة ببساطة مع التقاليد الأبوية لتلك البلاد الطيّبة.

لكن قبل وصفه، يجب لمصلحة الكُتّاب، بيان ضرورة هذه التحضيرات الإرشادية التي يحتج عليها بعض الجهلة والجشعين، الذين يفتشون عن الانفعالات دون أن يتعرضوا للمبادىء الخلاّقة لها، ويريدون الزهرة دون البذرة، والوَلَد دون أشهر الحَمَل! لكن هل يمكن اعتبار الفن أكثر قوة من الطبيعة؟.

إن إحداث الحياة البشرية، سواء العامة منها أو الخاصة، ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالهندسة المعمارية، بحيث أن معظم الملاحظين يتمكنون من إعادة تمثيل الأمم أو الأفراد بجميع حقائق عاداتهم بدءاً مما تركوه من آثار عامة أو من فحص ذخائرهم الأهليّة؛ فعلم الآثار بالنسبة للطبيعة الاجتماعية بمنزلة التشريح المقارن بالنسبة للطبيعة المتعضّية. إن قطعة فسيفساء تكشف عن مجتمع كامل كما يكشف هيكل إيكتيوزور[2] عما يتضمنه خَلْق كامل. فمن جهة وأخرى كل شيء يستنتج، وكل شيء يترابط، والسبب يوجّه لتخمين النتيجة كما أن النتيجة تسمح بالصعود إلى السبب[3] وبذلك يتمكن العالم أن يعيد إلى الحياة حتى النواتىء المعيبة في العصور القديمة، من هنا جاءت الفائدة الكبيرة التي يوحي بها وصف معماري عندما لاتشوه فذلكة الكاتب العناصر، ولكن لا يمكن لأي كان أن يربط هذا الوصف بالماضي بإسقاطات قاسية، فالماضي بالنسبة للإنسان يرتبط بشكل فريد بالمستقبل: أليس الحديث إليه عما جرى هو تقريباً كالحديث إليه عما سيجري؟ أخيراً فمن النادر ألا يُذكرٌ رسم الأمكنة التي تجري فيها الحياة لكل واحد أين خابت أمانيه أو أين أزهرت آماله؛ ومقارنة بين

---

(١) دوي Douau: بلدة في مقاطعة الشمال إلى الجنوب من مدينة ليل ـ منطقة الفلاندر.

(٢) إيكتيوزور: (أو السمك الزاحف) كائن انتقالي بين الأسماك والزواحف وقد ظهر في الدور الجوراسي.

(٣) يبدو في هذه المبادىء تأثير العالم كوفيه على بلزاك.

إلى رسم الحياة الفلاندرية، عندما تظهره جيّداً المتممات الأخرى. لماذا؟ ربما لأنه من بين جميع الكينونات المختلفة، هو الأحسن في إنهاء تردّدات الانسان. لكن لا يمكن أن ينفصم عن جميع الاحتفالات، وعلى جميع الروابط العائلية، وعن اليسر الوفير الذي يشهد على استمرار الرفاه، وعلى استراحة تشبه الغبطة؛ لكنه يعبر خاصة عن سعادة حسيّة بسذاجة تخنق الغبطة فيها الرغبة مع أنها تتداركها دائماً.

أياً كان الثمن الذي يمكن للانسان المتحمس أن يعلقه على صخب العواطف، فإنه لايرى أبداً بدون انفعال صور تلك الطبيعة الاجتماعية التي تنتظم فيها ضربات القلب جيّداً بحيث أن الأناس السطحيين يتهمونها بالبرودة؛ فالجمهور يفضل عامّة القوة غير العادية التي تطفح على القوة المنتظمة المستمرة؛ فليس لدى الجمهور الوقت أو الصبر ليتحقق من القدرة الواسعة التي تحتجب خلف مظهر متناسق؛ وهكذا فلأجل التأثير في هذا الجمهور الذي يجرفه تيار الحياة، فإن الهوى حتّى الصادر عن فنان كبير لا مفرّ له من الذهاب إلى أبعد من الهدف؛ وهذا مافعله ميشيل آنج، وبيانكا كايلو، والآنسة دي لافاليير، وبتهوفن وباغانيني[1].

إن مهرة المخططين الحسبة فقط هم الذين يفكرون بعدم تجاوز الهدف ولا يقدّرون إلا إمكانية الفعل الموسمية بإنجاز كامل يخلع على كل عمل هذا الهدوء العميق الذي يأسر بجاذبيته الرجال الكبار.

---

(١) يقرن بلزاك هنا اسم سيدتين انطلقتا في الهوى «إلى أبعد من الهدف» مع كبار الفنانين العالمين فبيانكو كايلو: نبيلة من البندقية، في القرن السادس عشر، هجرت كل شيء وهي لم تتعد الخامسة عشر من العمر لتتبع حبيبها وتصبح فيما بعد زوجة فرانسوا دي مديسي دوق توسكان الكبير، ولويز دي لافالبير (١٦٤٤ - ١٧١٠) محظيّة لويس الرابع عشر التي دخلت دير الكرمل في ١٦٧٤. شهرة الغرام هذه قرنت مع شهرة ميشيل آنج (١٤٧٥ - ١٥٦٤) الرسام والنحات الإيطالي المشهور وبتهوفن (١٧٧٠ - ١٨٢٧) الموسيقي الألماني العالمي وباغانيني (١٧٨٢ - ١٨٤٠) الموسيقي الايطالي الذي كان بلزاك شديد الاعجاب به بحيث ورد ذكره في العديد من رواياته.

والحال أن الحياة المعتمدة من هذا الشعب المقتصد بشكل رئيس، توفر شروط الهناء الذي تحلم به الجماهير في حياة مواطنية وبورجوازية.

إنّ الماديّة الأكثر لطفاً تسم جميع التقاليد الفلمندية، وبينما لاتظهر في وسائل الرغد الانكليزية إلا الألوان الجافة ذات المسحة القاسية، فإن المنزل العائلي القديم في الفلاندر يبهج العين بألوان ذات طلاوة، وبطيبة حقيقية؛ وهو يستتبع عملاً بدون تعب؛ والغليون فيه يشير إلى تطبيق سار لتكاسل ممتع على طريقة أهل نابولي، ومن ثم فهذا المنزل شاهد على عاطفة وديعة للفن بشرطه الأكثر ضرورة وهو الصبر، وبالعنصر الذي يجعل إبداعاته أكثر ديمومة وهو الوجدان. إن الطبع الفلمندي يتجلى في هاتين الكلمتين: الصبر والوجدان، ويبدو أنهما يستبعدان التفرّدات الفنية فيّ الشعر، ويجعلان تقاليد تلك البلاد مسطحة كسهولها العريضة وباردة كسمائها المضبّبة. بيد أن لاشيء من هذا، فالحضارة قد أظهرت هناك قدرتها فعدّلت كل شيء حتى تأثيرات المناخ. إن من يلاحظ بانتباه منتجات مختلف بلدان الكرة الأرضية، تعتريه الدهشة أولاً من مشاهدة الألوان الشقر والرمادية المميزة بصورة خاصة لمحاصيل المناطق المعتدلة، بينما تتميز محاصيل المناطق الحارّة بالألوان الصارخة، وتمتثل التقاليد بالضرورة لهذا القانون الطبيعي؛ فمناطق الفلاندر التي كانت في الماضي سمراء بصورة رئيسة ومحكومة بألوان رتيبة، وجدت الوسائل لتطرح البريق في جوّها القاتم بالتعاقبات السياسية التي اخضعتها على التوالي للبورغينيين، والاسبانيين، والفرنسيين، والتي آختهم مع الألمان والهولانديين. فمن اسبانية أخذوا ترف الأرجوانيات، والأطالس اللماعة، والنجود ذات المظهر الفخم، والريش، والآلات الموسيقية ذات الأوتار، والأشكال اللطيفة، ومن البندقية، بدّلوا بلوحاتهم ومخرماتهم تلك الزجاجيات العجيبة التي تلتمع فيها الخمور وتبدو أطيب مذاقاً؛ ومن النمسة احتفظوا بتلك الدبلوماسية الوقور التي تحسب لكل شيء حسابه؛ وقد منحتها تجارتها مع جزر الهند ابتكارات الصين الاسطورية وعجائب

اليابان. مع ذلك وبالرغم من أناة مقاطعات الفلاندر في جمع كل شيء، وعدم ردّ أي شيء، وتحمل مالايتحمّل، فإنها بقيت تعتبر المستودعات العامة لأوروبة حتى الفترة التي وحّد بها اكتشاف التبغ بدخانه القسمات المتفرقة لمظهرها الوطني؛ ومنذ ذلك الحين وبالرغم من تجـزئة الأراضي أثبت الشـعب الفلمندي وجـوده بالغليون والبيرة.

بعد أن تمثّلت، بالاقتصاد الثابت في إدارتها، ثروات وأفكار معلميها أو جيرانها، فإن هذه البلاد الباهتة بطبيعتها والمحرومة من الشاعرية، كوّنت لها حياة مبتكرة وتقاليد متميّزة، دون أن تبدو ملطخة بالمذلة؛ فالفن فيها تجرّد من كل مثالية ليهتم بالشكل فقط؛ وهكذا لايطلب من هذا الوطن لا الشعر المطاوع، ولاقريحة الملهاة، ولا المشهد المسرحي، ولا دفقات الملاحم أو الأناشيد الحماسية، ولا العبقرية الموسيقية؛ لكنها خصبة بالمكتشفات، والمناقشات المتحذلقة التي تتطلب الوقت والسهر، وكل مافيها يتسم بسمة الانتفاع الزمني، والانسان ينحصر تطلعه بالواقع. ويتجه ذهنه بدقة شديدة لتأمين حاجات الحياة بحيث أن ما من عمل ينطلق إلى مابعد العالم الواقعي. إن الفكرة الوحيدة المتصورة عن المستقبل لدى هذا الشعب هي نوع من الاقتصاد السياسي، وقوته الثورية ترد من الرغبة الأهلية في الشعور بأن مرفقيه طليقان وهو إلى مائدته في حرية تامة تحت أفاريز البيوت الحجرية في الحارات. إن الشعور بالرفاهية وروح الاستقلال التي توحي بهـا الثورة قد ولّدا في وقت مبكّر عن أي مكان آخر هذه الحاجة للحرية التي بدأت تتمخّض عنها أوروبة فيما بعد، وهكذا فقد أكسبت المثابرة في الرأي والتربية المتصلبة الفلمنديين ماجعلهم في السابق رجالاً رهيبين في الدفاع عن حقوقهم؛ فما من شيء إذاً لدى هذا الشعب يتشكل وفق أنصاف الحلول أو كيفما اتفق، لا المنازل، ولا الأثاث، ولا السدود، ولا الثقافة، ولا الثورة، لذلك فإنه يحرص على الاستئثار بما أتقن صنعه: فحياكة المخرمات والنتاج الزراعي المتأني، والصناعة الأكثر تأنياً وخاصة الأنسجة المتينة وراثية لديه كما ثرواته المالية، ولو صوّرت المثابرة بأنقى أشكالها البشرية لتجلت على حقيقتها في هيئة

عمدة مدينة من البلاد الواطئة، مستعد، كما حدث ذلك مراراً، للموت بشرف وبدون مباهاة، فداءً لمصالح تحالف مدينته التجاري، لكن الشاعريات العذبة لهذه الحياة الأبوية تتجلى طبيعياً في لوحة عن أحد البيوتات الأخيرة التي ماتزال محتفظة بطابعها التقليدي في دوي في الزمن الذي تدور فيه أحداث قصتنا.

إن دوي للأسف، من بين جميع مدن مقاطعة الشمال، تلك الأكثر تعرّضاً للحداثة، فالرغبة في الابتكار قد انتشرت بسرعة كبيرة فيها، وحبّ النهوض الاجتماعي قد تعمّم. وهكذا أخذت الأبنية القديمة تختفي مع مرور الزمن، والتقاليد العتيقة تمحي، ومسحة باريس وأزياؤها وطرائقها تسيطر، ولم يتبق لدى أهل دوي من الحياة الفلمندية القديمة إلا كرَم الضيافة، والرقة الاسبانية، وغنى هولاندة ونظافتها؛ وقد قامت قصور الحجر الأبيض مكان بيوت الآجر؛ ورفاهية الأشكال الهولاندية قد تراجعت أمام أناقة الحداثات الفرنسية المتغيرة.

يقع المنزل الذي وقعت فيه أحداث هذه الرواية في وسط شارع باريس تقريباً، وهو يحمل في دوي، منذ نحو مئتي سنة اسم بيت كلايس؛ فآل فان كلايس[1] كانوا سابقاً من أشهر عائلات الحرفيين التي استثمرت لعدة أجيال في البلاد الواطئة تحتفظ بتفوق تجاري، فقد تعاقب آل كلايس على رئاسة اتحاد النسّاجين القوي في مدينة غان يرثونها ابنا عن أب. عند ثورة هذه المدينة الكبرى ضد شارل كنت الذي أراد إلغاء الامتيازات، حامت الشبهات بشدّة حول أغنى آل كلايس الذي أحس بقرب وقوع الفاجعة فأرسل سرّاً، وهو الملزم بمشاركة رفاقه مصيرهم، إلى فرنسة وتحت حمايتها زوجته وأولاده، وثروته، قبل أن تغزو جحافل الامبراطور المدينة، وكانت توقّعات نقيب النسّاجين صحيحة، فقد استثني من اتفاقية التسليم، مع العديد من البورجوازيين الآخرين، وأعدم كمتمرد خارج عن القانون، بينما هو في الواقع مدافع عن

---

(١) يستمد بلزاك من التاريخ بعض الحقائق مع حرية التصرف، ففي ثورة غان في العام ١٥٣٩، وُجد أحد وجهاء المدينة المسمى لوران كلايس الذي انتخب بين تسعة آخرين من قبل الامبراطور لإدارة أملاك وموارد المدينة، وبالتالي فهو لم يُعدم كما شاء الخيال الروائي للمؤلف.

استقلال مدينة غان؛ وقد أعطى موت كلايس ورفاقه ثمره، فهذه العقوبات غير المجدية قد كلفت ملك اسبانية خسارة القسم الأعظم من أملاكه في البلاد الواطئة.

إن دم الشهداء، من بين جميع البذور التي تؤتمن عليها الأراضي، هو الذي يعطي أسرع الحصاد والجني؛ وعندما عاقب فيليب الثاني الثورة حتى جيلها الثاني مدّ سلطته الاستبدادية حتى دوي، لكن آل كلايس حافظوا على ملكياتهم الكبيرة وذلك بمصاهرتهم عائلة مولينا العريقة في النبل، والتي أصبح فرعها الأساسي، الفقير أصلاً، بدرجة من الغنى تمكن فيها من شراء كونتية نورو، التي لم يكن يملكها إلاّ اسمياً، في مملكة لئون[1].

في مطلع القرن التاسع عشر وبعد تتابعات لاتهمنا لائحتها بشيء، تمثلت عائلة كلايس في الفرع المستقر في دوي بشخص بلتزار كلايس مولينا، كونت نورو، الذي طلب أن يسمى ببساطة بلتزار كلايس؛ ومن الثروة الهائلة التي جمعها أسلافه، الذين كانوا يشغلون نحو ألف نول نسيج، لم يبق لبلتزار إلا أرض في منطقة دوي تدرّ عليه خمسة عشر ألف ليرة دخلاً سنوياً، والبيت الكائن في شارع باريس الذي يساوي أثاثه ثروة. أما تركات مملكة لئون فقد كانت موضع نزاع ودعوى بين آل مولينا في الفلاندر وفرع تلك العائلة الباقي في اسبانية؛ وقد استولى آل مولينا في لئون على الأراضي وتلقّبوا بلقب كونت نورو، بالرغم من أنه حقّ لآل كلايس وحدهم، لكن تفاخرالبورجوازية البلجيكية كانت أكبر من العجرفة الكاستلانية؛ وهكذا فعندما نظم السجّل المدني، تخلى بلتزار كلايس عن أسمال نبله الاسباني للاحتفاظ بشهرته الغانتيّة[2]، فالشعور الوطني يتجلى بقوة لدى العائلات المنفية حتى في الأيام الأخيرة من القرن الثامن عشر، وقد بقي آل كلايس محافظين على تقاليدهم وعاداتهم وطرائقهم

(١) منطقة في شمال غرب اسبانية غزاها ملوك استوريا في القرن العاشر وأسسوا فيها مملكة باسم مملكة لئون، وضمت في العام ١٢٣٠ مقاطعات لئون وزموراً وسلامنك.

(٢) غانتي نسبة إلى مدينة غان Gand

في الحياة، فهم لايتصاهرون إلا مع العائلات البورجوازية الأكثر نقاوة، ولابدّ من أن يكون في عائلة من ترشّح خطيبة لأحد أبنائهم بعض العُمُد ومساعدي العمد لقبولها في عائلتهم لذلك كانوا يختارون نساءهم من عائلات بروج أو غان أو لييج، أو حتى من هولانده، من أجل تخليد تقاليد البيت العائلي.

في نهاية القرن الماضي اقتصر مجتمعهم المحدود على سبع أو ثمان عائلات من النبلاء البرلمانيين الذين تنسجم طبائعهم وأثوابهم الفضفاضة ورصانتهم القضائية المختلطة بالحزم الاسباني مع عاداتهم؛ فالاستقامة الثابتة، وأمانة آل كلايس التي لا شائبة فيها، ولياقتهم الدائمة تجعل منهم خرافة متأصلة كعيد غايان(١) يعبّر عنها بهذا الاسم «بيت كلايس». إنّ روح الفلاندر القديمة تظهر جليّة في ذلك البيت الذي يقدّم لهواة التحف القديمة البورجوازية، نموذج البيوتات المتواضعة التي كانت لهواة التحف القديمة البورجوازية، نموذج البيوتات المتواضعة التي كانت تشيّدها البورجوازية الغنية في العصر الوسيط إن الزينة الرئيسة في الواجهة هي باب ذو مصراعين من السنديان المرصّع بالمسامير المنتظمة في مخمّسات، وفي مركزه عمل آل كلايس افتخاراً منهم، على نقش مكوكين مقرونين. بنيت فتحة ذلك الباب بحجر رملي، وهي محاطة بعقد مستدق الرأس وينتهي بكوّة صغيرة يعلوها صليب، وفي داخلها تمثال للقديسة جنفييف(٢) تفتل بمغزلها؛ وبالرغم من أن الزمن قد خلع عتقه على الأشغال الدقيقة في ذلك الباب وتلك الكوّة، فإن حرص أهل المنزل على العناية الفائقة بها تسمح للمارين بأن يتمتعوا بأدق تفاصيلها، وهكذا فالإطار المؤلف من عميدات متراصفة يحتفظ بلونه الأشهب القاتم ويلتمع حتى ليخال أنه

---

(١) عيد غايان: عيد شعبي في دوي يعتقد أنه ذكرى رفع الحصار عن تلك المدينة في العام ١٤٧٩ ويحتفل به يوم الأحد الأقرب للخامس من شهر تموز، ومازال التظاهرات الفولكلورية تتم في تلك المدينة خلال هذا العيد ولمدة اسبوع يسمى «اسبوع غايان»

(٢) القديسة جنفييف تعتبر شفيعة باريس وهي تصوّر بشكل راعية تفتل بمغزلها وأمامها غنمها

ممسوح بالبرنيق. على جانبي الباب في الطابق الأرضي نافذتان مشابهتان لنوافذ المنزل الأخرى ينتهي الإطار المبني بالحجر الأبيض تحت المستند بربعيات غنية بالزخرفة، ومن الأعلى بقوسين متماثلين تفصل بينهما ركيزة صليب تقسم الحاجز الزجاجي إلى أربعة أقسام غير متساوية، إذ أن العارضة الموضوعة على ارتفاع محدّد لتشكل صليباً، تعطي للقسمين السفليين من النافذة بعداً يقرب من ضعف الأقسام العليا المدوّرة تحت العقد، إنّ القوس المضاعف ذو تزيينات مؤلفة من ثلاثة صفوف من الآجر يتقدم كلٌ منها على الآخر، كما تبرز كل آجرة أو تنحسر عن الأخرى بالتناوب بمقدار بوصة تقريباً بحيث ترسم نقشاً مشبكاً. أما الألواح الزجاجية فصغيرة وبشكل معينات وهي منزّلة في أطر حديدية دقيقة جداً ومدهونة باللون الأحمر. كانت الجدران المبنية من آجر محشّى بملاط أبيض، مدعومة من مسافة إلى أخرى، وفي الزوايا بصفوف من حجر؛ وتخترق الطابق الأول خمس نوافذ، أما الطابق الثاني فقد اقتصر على ثلاث، بينما استمد مخزن الغلال النور من فتحة واسعة مستديرة ذات خمسة أجزاء يحيط بها الحجر الرملي وتقع وسط الجبهيّة المثلثة التي يرسمها الجملون كأنها وردة في بوّابة كاتدرائية؛ وفي القمة يرتفع، بمثابة دلاّلة ريح، مغزل محاط بالكتان. إن ضلعي المثلث الكبير الذي يشكّل جدار الجملون مقطعة عمودياً بنوع من الدرجات حتى رأس الطابق الأوّل حيث عن يمين وشمال المنزل تسيل مياه الأمطار مدفوعة من شدق حيوان عجيب، في أسفل البيت قاعدة من حجر رملي تشبه الدَرَجة. أخيراً يوجد على جانبي الباب، بين النافذتين، وعلى الشارع، بويب قلاّب مسلّح بعصائب كبيرة من حديد، يدلَف منه إلى الأقبية، وهو آخر بقيّة من التقاليد القديمة.

كانت هذه الواجهة منذ إنشائها، تنظّف مرتين سنوياً، فإن بدا نقص في الملاط في مكان ما، سدّ الثقب الناتج عنه سريعاً، أما النوافذ والدعامات، والأحجار فينفض عنها الغبار كما ينفض في باريس عن أثمن أنواع الرخام؛ وهكذا فواجهة هذا المنزل لاتظهر أي أثر للتداعي. وبالرغم من الألوان القاتمة

الناتجة عن قِدَم الآجر، فإنه محفوظ جيّداً كحفظ لوحة قديمة، أو كتاب أثري يحرص عليهما هاويهما ويحافظ دائماً على جدّتهما، لولا التعرّض تحت قبّة جوّنا لهذه الغازات التي تهدّدنا حتى نحن بالذات بأضرارها؛ وسماء الفلاندر المكفهرّة ومناخها الرطب والظلال الناتجة عن ضيق عرض الشارع تنزع غالباً عن هذا البناءِ الرونق الذي يستمده من شدة العناية بنظافته، التي تجعله، مع ذلك، باهتاً وكئيباً أمام العين؛ فالنفس الشاعرية تتمنى لو تشاهد بعض الأعشاب تنمو في جوانب الكوة، أو بعض الطحالب تظهر في الفواصل بين الحجارة الرملية، بل لاشتهت لو تتشقق هذه الصفوف من الآجر، ولو تبني بعض السنونوات أعشاشها تحت أقواس النوافذ وفي النخاريب المثلثة الحمراء التي تزيّنها. هكذا يعطي الإتقان والمظهر النظيف لهذه الواجهة نصف المكشوطة بالدعك منظراً مغلّقاً بوقار جاف وتقدير محتشم يُبعد بكل تأكيد، الرومانسي عن الرغبة في السكن في مواجهته. عندما يسحب زائر سلسلة الجرس الحديدية المجدولة التي تتدلى من إطار الباب، تهرع خادمة من الداخل لتفتح صفاقاً مجهّزاً بمشبك صغير، يفلت سريعاً من اليد هذا الصفاق محمولاً بثقله، ويسقط مجدّداً تحت عقد رواق واسع مبلّط محدثاً في أعماق البيت صوتاً خفيضاً وثقيلاً كما لو أن الباب مصنوع من البرونز. هذا الرواق مزوّق بالرخام النضر دائماً، والمفروش بطبقة من رمل ناعم، يقود إلى فناء داخلي مربع واسع مبلط ببلاطات عريضة مبرنقة وذات لون مخضرّ. إلى اليسار يوجد مخزن البياضات، والمطابخ وقاعة المستخدمين؛ وإلى اليمين المحطبة، ومخزن الفحم الحجري والأكناف العامة حيث الأبواب والنوافذ والجدران مزخرفة برسوم مصونة بنظافة رائعة، والضوء المتسرّب من بين الجدران الأربعة الحمراء المخطّطة بشبكات بيضاء يعكس ظلالاً وردية تخلع على الوجوه والتفاصيل الدقيقة جاذبية غامضة ومظاهر عجيبة.

إن بيتاً ثانياً مشابهاً تماماً للبناء المواجه للشارع، وهو يسمى في الفلاندر الحيّ الخلفي يقوم في نهاية ذلك الفناء وهو مخصص لسكن العائلة

فقط. ففي الطابق الأرضي، تخصص الغرفة الأولى كصالة صغيرة وهي منوّرة بنافذتين من جهة الفناء، ونافذتين أخريين تطلاّن على حديقة تساوي في عرضها عرض البيت بينما ينفتح بابان مزجّجان متوازيان فيؤدي أحدهما إلى الحديقة، والآخر إلى الفناء، وتطلّ على باب الشارع، بحيث يتمكن الغريب، من المدخل، أن يحيط بنظرة على كامل المسكن، ورؤية حتى الأبسطة الخضراء في نهاية الحديقة.

إن المسكن الأمامي مخصّص للاستقبالات، وطابقه الثاني يضمّ شققاً لاستقبال الضيوف الأجانب وهو يحوي بالتأكيد روائع فنية وذخائر ثمينة متجمعة. لكن مامن شيء يساوي في نظر آل كلايس، ولا في رأي الخبير المدقق تلك الكنوز التي تزيّن القاعة التي كانت تقضي فيها العائلة معظم وقتها، منذ قرنين، فكلايس الأكبر الذي مات دفاعاً عن حريات غان، ذلك الحرفي الذي لم يذكر عنه الكثير، والذي غفل المؤرّخ عن القول بأنه كان يملك نحو اربعين ألف مارك من الفضة كسبها من نسج الأشرعة الضرورية لأسطول البندقية الجبّار. إن كلايس هذا كانت تربطه صداقة بأحد الفنانين الذين اشتهروا بالحفر على الخشب في بروج وهو ڤون هويزيوم[1]، وقد استعان الفنان مرات عديدة بمحفظة صديقه الحرفي، وبعد أن أصبح غنياً، قبل ثورة غان ببعض الوقت، حفر سراً لصديقه، على كتل من خشب الإبنوس مشاهد رئيسة من حياة آرتفلد[2] هذا الصانع للبيرة الذي أصبح ملكاً على الفلاندر. هذه المشاهد تمثلت في ستين لوحاً جدارياً رسم فيها نحو ألف واربعمئة شخص رئيس، تعتبر التحفة الرئيسة لفون هويزيوم: ويقال أن الضابط المكلّف بحراسة البورجوازيين ومنهم كلايس

(١) يعتمد بلزاك «مرة أخرى» على التاريخ محرّفاً فمن الفنانين المشهورين باسم فون هويزيوم وجد جان هويزيوم الذي وُلِدَ في امستردام العام ١٦٨٢ وتوفي في العام ١٧٤٩ كما وجد فنان آخر باسم جوست فون هويزيوم (١٦٥٩ ـ ١٧١٦) وله لوحات عن المعارك البحرية كما أن للأول ست لوحات تمثّل أزهاراً وثماراً ومناظر طبيعية في اللوفر لكن الإثنين لم يكونا في عصر لوران كلايس الذي عاش في القرن السادس عشر.

(٢) جاك آرتفلد نبيل من غان انتخب عميداً لصناع البيرة وأعلن ملكاً على غان في ١٥٤٠ وقد عرفت المدينة في عهده ازدهاراً كبيراً

الذين هدّد شارل كنت بإعدامهم عند دخوله مدينتهم، قد عرض على كلايس أن يسهّل له هربه إذا منحه تحفة فون هويزيوم، لكن النسّاج كان قد أرسلها إلى فرنسة. هذه القاعة اكتست جدرانها بكاملها بألواح فون هويزيوم الذي حضر بنفسه فوضع لها أطراً مدهونة باللازورد الممتزج بخيوط ذهبية، وهي تعتبر العمل الأكثر روعة وإتقاناً لهذا المعلم بحيث أن أيّة قطعة منها في الوقت الحاضر تساوي وزنها ذهباً؛ وفوق جدار المدفأة لوحة لتيتيان[1] تمثل فون كلايس مرتدياً ثوب رئيس محكمة «البارشون»[2] وهي تزيد من اعتزاز هذه العائلة برجلها الكبير.

إن المدفأة كانت مبنية من الحجر أولاً وذات برقع عال جداً، ثم أعيد بناؤها في القرن الأخير من الرخام الأبيض، وقد وضعت فوقها ساعة جدارية كبيرة وشمعدانان كل منهما بخمسة فروع ملتفة، ولاتنمّ عن ذوق مرهف، لكنها من الفضة المصمتة.

تزيّن النوافذ الأربعة ستائر كبيرة من الدمقس الأحمر ذي الأهار السوداء المبطّن بحرير أبيض، كما أن الأثاث، وقد جدّد على طراز لويس الرابع عشر، مكسو بالقماش نفسه؛ وتتألف الأرضية، وهي حديثة طبعاً من صفائح خشب مؤطرّة بعصائب من السنديان؛ والسقف مشكّل من أطر عديدة في داخلها أقنعة غريبة، حفرها فون هويزيوم، وقد التزمت وحافظت على ألوان سنديان هولانده الداكنة.

في الزوايا الأربع من هذه القاعة، ترتفع أعمدة مجزوعة تعلوها شمعدانات مماثلة لتلك القائمة فوق المدفأة؛ ومنضدة مستديرة تشغل وسط تلك

---

(١) تيتيان (تيزيانو فسيليو) رسّام ايطالي (١٤٩٠ ـ ١٥٧٦) ذو شهرة عالمية رسم للبابوات وفرنسوا الأول ،شارل كنت وفيليب الثاني.

(٢) بارشون: قضاة مدينة غان، وقد ورد ذكرهم أيضاً في رواية «المعلم كورنليوس» لبلزاك التي يصور فيها ثيابهم» بأنها من مخمل أسود يلتمع بأبهة والثوب عريض الكمين وبدون طوق.

إن لوحة لتيتيان تظهر هذه الثياب ولكنها على فارس من فرسان رهبان مالطة.

القاعة، وصُفّت مناضد لعب متناظرة قرب الجدران؛ وعلى منضدتين مزخرفتين ومذهبتين، سطحهما من رخام أبيض، وجدت في العصر الذي بدأت فيه روايتنا، كرتان من زجاج مليئتان بالماء، تسبح فيهما فوق سرير من الرمل والقواقع، أسماك حمراء، أوذهبية، أو فضية.

كانت هذه القاعة براقة وقاتمة فالسقف يمتص الضوء بالضرورة دون أن يعكس منه شيئاً؛ وإذا كان النور يرد غزيراً من ناحية الحديقة ليبرق على نقوش الإبنوس، فإن نوافذ الفناء لا تأتي إلا بقليل من الضوء يكاد لا يبدو بريقه على الخيوط المذهبة المطبوعة على الجوانب المقابلة.

هذه القاعة الشديدة الروعة، كانت تملؤها إذاً في أحد الأيام الجميلة، ولمعظم الوقت الألوان الناعمة ذات المسحة الشهباء الكئيبة التي تخلعها الشمس على قمم الغابات في الخريف. لذلك فمن غير المفيد أن نستمر في وصف بيت كلايس، في أقسامه الأخرى التي كانت تحدث بها حتماً مشاهد عديدة تتعلق بروايتنا؛ ويكفي الآن أننا قد تعرفنا على ترتيباته الرئيسة.

في العام ١٨١٢، وفي الأيام الأخيرة من شهر آب، وفي يوم أحد، بعد صلاة العصر، كانت امرأة تجلس على أريكتها أمام إحدى النوافذ المطلة على الحديقة، وكانت أشعة الشمس تسقط منحرفة على المنزل، فتلفه بشكل وشاح وتخترق القاعة لتنتهي بانعكاسات غريبة على الخشبيات التي تغطي الجدران من ناحية الفناء، وتلف تلك المرأة بغلاف قرمزي ينعكس عن ستارة الدمقس المنشورة على طول النافذة، لوتسنى لرسّام مهما بلغ ضعفه، أن يرسم تلك المرأة في تلك اللحظة، لأعطى بالتأكيد لوحة نافرة برأسٍ مليء بالألم والكآبة؛ فوضع الجسم والرجلين المتهالكتين إلى الأمام تبرز وهن تلك المرأة التي غاب عنها الشعور بكيانها الحسّي وهي تركّز قواها في فكرة ثابتة تملكتها. كانت تستشف الإشراق في المستقبل، كما يستشف غالباً شعاع من الشمس، يخترق الغيوم ويرسم في الأفق شريطاً منيراً.

كانت يدا تلك المرأة المرتدّتين عن ذراعي الأريكة تتدلى إلى الخارج

ورأسها الذي بدا ثقيلاً جداً يستند إلى المتكأ، وثوب من البركال القطني الواسع جداً يحول دون الحكم على تناسق تقاطيع جسمها، وقد احتجب صدارها تحت طيّات منديل تصالب طرفاه على صدرها وعقدا بلا مبالاة؛ وحتى لو لم يبرز النور وجهها الذي يبدو أنها تفضل إظهاره عن بقية كيانها، فإن من غير الممكن إلا الاهتمام به حصراً، فتعبيره الذي يثير أكثر الأطفال لا مبالاة، هو ذهول مستمر وبارد بالرغم من بعض العبرات الحارقة. مامن شيء أكثر هولاً من رؤية ألم بالغ لا يطفح إلا في فترات نادرة متقطعة، ويلتصق بذلك الوجه كلابّة تجمدّت حول فوهة بركان، حتى ليخال أنها أم تحتضر، وقد تركت أطفالها في لجّة من الشقاء دون أن تستطيع تأمين أيّة حماية بشرية لهم.

إن سحنة تلك المرأة، وهي في نحو الأربعين من العمر، لكنها أقل بعداً عن الجمال الذي لم تكن تمتلكه في شبابها، لاتظهر أياً من مزايا المرأة الفلمندية؛ فشعرها أسود كثيف يتدلى خصلات على كتفيها وحول وجنتيها، وجبهتها كثيرة التحدّب، وضيّقة عند الصدغين، مائلة إلى الإصفرار، لكن عينين سوداوين تبرقان تحتها وكأنها ترميان الشرَر؛ ووجهها، الاسباني كلياً، المائل الى السمرة، والشاحب اللون، الذي غزته الجدري، يستلفت النظر باكتمال شكله البيضوي الذي تحتفظ استدارته بالرغم من تغيّر قسماته، برقة وقار أنيق، يبدو أحياناً بتمامه عندما تجهد الروح في أن تردّ إليه صفاءه الأولي. إن السمة الأكثر تميزاً في ذلك الوجه الرجولي هي أنف محني كأنه منقار نسر، ويبدو كثير التحدّب في الوسط حتى ليخال أنّه مشوّه داخلياً، لكن تكمن فيه رقّة يتعذر وصفها، فحاجز المنخرين من النعومة بحيث تسمح شفافتيه للضوء بأن يخلع عليه الاحمرار بشدّة؛ ومع أن الشفتين العريضتين، الكثيرتي التغضن، تنّمان عن أنَفَة تكشف عن نبل محتدها، فإنهما تتسمان بطيبة طبيعية، وتوحيان بالتهذيب. يمكن الجدل حول جمال هذا الوجه الذي يبدو قوياً وانثوياً في آن معاً، لكنه يستلفت الانتباه، لقد بقيت هذه المرأة الصغيرة القامة، المقوّسة الظهر، والعرجاء مدة طويلة عزباء، بحيث زُعِم إنكار الروح الانثوية لديها، لولا وجود بعض

الرجال الذين تأثروا بشدّة بالنشاط المتحمس المحتدم في رأسها، وبمعالم حنان لايوصف، بحيث تأثروا بفتنة متناقضة مع كثير من العيوب، ويبدو أنها تدين بالكثير لجدها دوق كازا ريال[1]، أحد كبراء اسبانية،

في تلك الفترة تفجّرت في رأسها الجاذبية التي تناولت سابقاً بشكل طاغ الأرواح المغرمة بالشعر، وبلغت من الشدّة مالم تبلغه في أي لحظة من حياتها الماضية، لقد شغلت إن صح القول، الفراغ معبّرة عن إرادة ساحرة وطاغية على الرجال، لكنها بدون تأثير على الأقدار. عندما حوّلت عينيها عن الوعاء الذي تتطلع فيه إلى الأسماك دون أن تراها، رفعتها بحركة يائسة كأنها تتضرّع إلى السماء، إذ يبدو أنّ ماتعانيه من آلام لايمكن البوح به إلا إلى الله. لم يكن يعكّر الصمت إلا الجداجد، وبعض الزيزان التي تنبعث أصواتها من الحديقة الصغيرة حيث تسود حرارة لافحة، ورنين أصم للفضيات والصحون والكراسي التي تحرّك في الغرفة المجاورة للقاعة حيث يبدو أن خادماً يرتب المائدة للعشاء. عند ذلك أصاخت المرأة المكروبة بسمعها، ويبدو أنها استعادت هدوءها فتناولت منديلها ومسحت دموعها، وجرّبت أن تبتسم، وأن تتخلّص من تعبير الألم المحفور على جميع قسماتها بحيث يمكن الظنّ أنها في تلك الحالة من اللامبالاة التي تولّدها حياة خالية من الهموم؛ وسواء أكانت عادة العيش في ذلك المنزل الذي تنستر فيه عاهاتها قد يسرّت لها إدراك بعض النتائج الطبيعية التي يتعذّر إدراكها على الآخرين، والتي يسعى إليها بحرارة الاشخاص ذوو العواطف المفرطة؛ أو أن الطبيعة قد عوّضتها عن العيوب الجسيمة بمنحها أحاسيس أكثر دقّة من تلك التي يتمتع بها الاشخاص الأسوياء أو الأفضل بنية في الظاهر. فقد أحسّت هذه المرأة بخطوات رجل في الرواق القائم فوق المطابخ والأماكن المخصصة لخدمات المنزل، والذي يصل بين المبنى الأمامي والمبنى الخلفي؛ ثم ازداد وقع الخطوات تميّزاً؛ وسريعاً؛ وبدون امتلاك تلك القدرة التي يعرف بها كائن انفعالي، كتلك المرأة، كيف يلغي غالباً المسافات ليتحد بالأنا الآخر، فإن

---

(١) اسم نبيل وهمي ورد ذكره أيضاً في قصة عقد الزواج

غريباً يمكنه أن يستمع بسهولة إلى وقع خطوات ذلك الرجل على السلم الذي ينزل بواسطته من الرواق إلى القاعة؛ وعلى وقع هذه الخطوات، فإن الكائن مهما بلغ عدم انتباهه تتلاحق عليه الأفكار، إذ من غير الممكن أن نستمع إليها ببرود. إن مسعى مفاجئاً أو متقطعاً يرعب؛ وعندما ينهض رجل ويصرخ مستغيثاً من النار، فإن رجليه تتحدثان بسرعة أكبر من صوته؛ وإن كان الأمر كذلك، فيجب ألا يحدث المسعى المعاكس انفعالات أقل شدّة؛ فالبطء الشديد والخطوات المتثاقلة لذلك الرجل، كانت ستقلق دون شك الأشخاص الطائشين، لكن الملاحظ أو الأشخاص العصبيين سيعانون من إحساس قريب من الرعب عند وقع خطوات هذه الأقدام التي تبدو الحياة غائبة عنها، والتي تقرع الأرضية كأنها ثقلان من حديد يقرعانها بالتناوب؛ فلكأنكم تخبرون فيها الخطوة الثقيلة وغير الواثقة لعجوز أو السير الجليل لمفكّر يجرّ العوالم معه. عندما نزل هذا الرجل عن الدرجة الأخيرة، وهو يضغط برجليه على البلاط بحركة مليئة بالتردد، فإنه بقي للحظة على المنبسط الواسع الذي ينتهي إليه الممر المؤدي إلى قاعة المستخدمين، وحيث يمكن أيضاً الدخول إلى القاعة بباب خفي ضمن الخشب المغطّي للجدران، وهو مماثل لباب آخر موازٍ له يؤدي إلى غرفة الطعام.

في تلك اللحظة انتابت المرأة الجالسة على الأريكة رعشة خفيفة مماثلة للرعشة التي يحدثها تماس كهربائي، لكنها ترافقت بأعذب ابتسامة افترّت عنها شفتاها، وأبرقت أسارير وجهها المتوقّع لسعادة منتظرة كوجه مادونا إيطالية جميلة. لقد وجدت فجأة القوّة لأن تبعد مخاوفها إلى أعماق روحها؛ ثم أدارت رأسها نحو مأطورات الباب الذي كاد ينفتح في زاوية القاعة، والذي دفع في الواقع بفظاظة أحسّت معها المخلوقة المسكينة وكأنّها تلقت صدمة.

ظهر بلتزار كلايس فجأة، وتقدم بضع خطوات دون أن يتطلع إلى تلك المرأة، أو إن تطلع إليها لم يَرَها، وبقي منتصباً في وسط القاعة وهو يسند رأسه المنحني قليلاً بيده اليمنى.

كان عذاب هائل، لم تتمكن تلك المرأة من الاعتياد عليه بالرغم من تكراره

غالباً كل يوم، قد شدّد الخناق على قلبها؛ فبدّد ابتسامتها، وغضّن جبينها الأسمر بين الحاجبين ونحو ذلك الخطّ الذي تحفره التعابير الغالبة للعواطف المفرطة؛ وامتلأت عيناها بالدموع فجأة وهي تتطلع إلى بلتزار، فمن المستحيل عدم التأثّر بعمق لرئيس عائلة كلايس هذا؛ إذ لاشك أنه في شبابه كان يشبه الشهيد السامي الذي هدد شارل كنت بأن يجدّد آرتفلد؛ لكنه في هذه اللحظة بدا وكأن عمره فوق الستين بالرغم من أنه في حوالي الخمسين، وهذه الشيخوخة المبكّرة قد شوّهت هذا التشابه النبيل، فقامته الطويلة قد انحنت قليلاً، سواء من أعماله التي تجبره على الإنحناء، أو لأن السلسلة الظهرية قد تقبّبت تحت ثقل رأسه. كان ذا صدر عريض، وجذع مربّع، لكن الأقسام السفلية من جسمه كانت هزيلة بالرغم من متانتها وعصبيتها. هذا التنافر في عضوية تامة بالتأكيد حيّرت سابقاً الفكر الذي جهد لتفسير أسباب هذا الشكل الغريب بتفرّدٍ مافي الوجود، وكان شعره الغزير الأشقر المهمل يتهدّل على كتفيه وفق الطريقة الألمانية ولكن في فوضى تتناسق مع الغرابة العامة لشخصيته، أما جبينه العريض فيبدي الحدبات التي جعلها غال[1] مستقراً للعوالم الشعرية، وعيناه بزرقة فاتحة غنية تشعّ منهما حيوية مفاجئة تلاحظ لدى كبار الباحثين عن الأسباب الخفيّة؛ وأنفه وهو تام دون شكٍّ، قد تطاول، وبدا منخراه يتوسعان تدريجياً أكثر فأكثر بتوتر لا إرادي في العضلات الشميّة، ووجنتاه المزغبتان تبرزان بشكل ظاهر، وخداه اللذان اعتراهما الذبول يبدوان غائرين، وفمه الظاهر الفتنة ينحصر بين الأنف وذقن قصيرة تبدو مرتفعة فجأة، مع أن شكل وجهه يبدو متطاولاً أكثر منه بيضوياً، وهكذا فإن النظام العلمي الذي ينسب لكل وجه بشري تشابهاً مع سحنة حيوان يجد برهاناً إضافياً في وجه بلتزار كلايس الذي يمكن مقارنته برأس حصان[2]. إن جلده يبدو ملتصقاً بعظامه كأن لهباً

---

(١) غال (فرانز جوزيف) (١٧٥٨ ـ ١٨٢٨) طبيب ألماني، مبتكر فراسة الدماغ.

(٢) ينهج بلزاك منهج لافاتر (١٧٤١ ـ ١٨٠١) مبتكر علم الفراسة في المقارنة مابين سحن الحيوانات وملامح الإنسان.

سرياً قد جففه دون انقطاع، ومن ثم، وفي بعض لحظات، عندما يتطلع في الفراغ، كأنما يفتش فيه عن تحقيق أحلامه، يبدو وكأنه ينفث من منخريه لهباً يفترس روحه.

إن العواطف العميقة التي تحرك الرجال الكبار تتجلى في هذا الوجه الشاحب الذي خدّدته النجاعيد، وعلى هذا الجبين المتغضن كجبين ملك عجوز(١) تملؤه الهموم، وفي هاتين العينين البراقتين اللتين يزداد ألقهما خاصة بالعفة التي يفرضها طغيان الأفكار، والبؤرة الداخلية لذكاء واسع. هاتان العينان الغائرتان بعمق في محجريها تظهران وكأنهما تعبتان فقط من ليالي السهر والارتكاسات الرهيبة لرجاء يلقى الخيبة دائماً، ويتجدد دائماً. ينكشف التعصب الغيور الذي يوحي به الفن أو العلم عند هذا الرجل، بالشرود الثابت والمتفرد الذي يشهد عليه وضعه وتصرفه المتوافقان مع التشوّه العجيب في سحنته، فيداه العريضتان المكسوّتان بالشعر وسختان، وأظافره الطويلة تنتهي في أطرافها بخطوط سوداء قاتمة، وحذاؤه تنقصه الأشرطة أو غير نظيف، والمعلم السيد في منزله يمكن أن يعطي عن نفسه هذه الشهادة الغريبة في عدم النظافة: فبنطاله من الجوخ الأسود المليء بالبقع، وسترته المفككة الأزرار، وربطة عنقه المائلة، ومعطفه المخضرّ المفتّق دائماً تكمل هذه المجموعة الغريبة من الأشياء الصغيرة والكبيرة التي تكشف عند الآخرين بؤساً تتولد عنه هذه النقائص، لكنه عند بلتزار كلايس لامبالاة العبقرية. غالباً ما تحدث النقيصة والعبقرية آثاراً متشابهة تخدع الرجل العادي؛ أليست العبقرية إفراطاً ثابتاً يلتهم الوقت والمال والجسم ويؤدي إلى المشفى بسرعة أكبر من سرعة الأهواء السيّئة؟ بل إن الرجال قد يظهرون احتراماً أكبر للنقائص منهم للعبقرية، لأن هذه الاخيرة لاتحوز على ثقتهم ويبدو أن مكاسب الأعمال السريّة للعالم بعيدة لدرجة يخشى فيه النظام الاجتماعي من التعامل معه في حياته، وهو يفضل أن يفي ما عليه دون أن يغفر له بؤسه أو بلاياه.

---

(١) يقصد بذلك لويس الحادي عشر

لو أن بلتزار كلايس، رغم نسيانه للحاضر، يتخلى عن هذه التأملات الغامضة، لو أن رغبة عذبة واجتماعية تنعش هذا الوجه المفكّر، لو أن عينيه الثابتتين تفقدان بريقهما الجامد لتلوّنا عاطفة، لو أنه ينظر حوله ويعود إلى الحياة الحقيقية والعادية، لكان من الصعب ألا يلقى جمال هذا الوجه الفاتن، وما يبدو فيه من مسحة لطف، التقدير اللاإرادي. هكذا فإن كل من يراه يأسف لأن هذا الرجل ليس في هذا العالم، وهو يقول: «لاشكّ أنه كان جميلاً في شبابه!» خطأ شائع، إذ أن بلتزار كلايس ماكان أبداً شاعرياً كما هو الآن. إن لافاتر كان يتمنى بالتأكيد دراسة هذا الرأس المليء بالأناة، والاستقامة الفلمندية، والأخلاقية الساذجة، حيث كل شيء يبدو فسيحاً وكبيراً، حيث الهوى يبدو هادئاً لأنه قوي. يجب أن يكون طبع هذا الرجل رائقاً، وكلمته مقدسة، وصداقته ثابتة، ووفاؤه كاملاً؛ لكن الإرادة التي تستخدم هذه المزايا لمصلحة الوطن، أو العالم، أو العائلة، قد شاء لها القدر أن تنحرف بعيداً. إن هذا المواطن الذي يتوقع منه السهر على سعادة بيت زوجي، ويدير شؤون ثروة، ويوجّه أبناءه نحو مستقبل زاهر، يعيش خارج واجباته، وخارج انفعالاته، مسخّراً لعبقرية تملكته.

إنه يبدو مع الكاهن وكأن كلام الله يملأ قلبه، والفنان يحييه كأحد جهابذة الفن، أما المتحمس فيخاله صاحب رؤى من الكنيسة السويدنبورجية(١) في تلك اللحظة بَدَت الثياب المقطّعة، والغريبة والرثّة التي يلبسها هذا الرجل تتعارض خاصة مع التطلعات اللطيفة التي توجهها إليه المرأة باعجاب متألم. إن الأشخاص المشوّهين ذوي الذوق أو الروح الطيّبة يعتنون بزينتهم بانتباه فائق، أو أنهم يلتزمون بالبساطة معتبرين أن جاذبيتهم معنوية أو أنهم يعرفون كيف يخفون عدم التناسق في أجسامهم بنوع من الأناقة تلهي النظر وتشغل الفكر. لاتقتصر عاطفة هذه المرأة على طيبة الروح وإنما هي تحب بلتزار كلايس بتلك

---

(١) سويدنبورج: (١٦٨٨ ـ ١٧٧٢): تيوسوفي وصاحب رؤى سويدي، له مؤلفات يشرح فيها مذهبه في اتصال الأفكار، وله أتباع عديدون في انكلترة والولايات المتحدة

الغريزة الإنثوية التي تعطي شعوراً مسبقاً بذكاء الملائكة؛ وقد تربَّت في وسط أشهر العائلات في بلجيكة، فاكتسبت إضافة إلى ماتملكه من ذوق ذوقاً، وتوجهت بالرغبة في أن تعجب باستمرار الرجل الذي أحبته، فأتقنت العناية بملابسها دون أن تتأثر أناقتها بالتشوهين الخلقيين المصابة بهما؛ فصدارها لاينقص إلا عند الكتفين، باعتبار أن أحدهما أثخن من الآخر بشكل ملحوظ.

كانت تنظر من احدى النافذتين إلى الفناء الداخلي ثم من الأخرى إلى الحديقة، وكأنها تريد أن ترى فيما إذا كانت وحيدة مع بلتزار، وقالت له بصوت عذب، وهي تلقى عليه نظرة ملأى بالامتثال الذي يميّز الفلمنديات، إذ أن الحبّ بينهما قد طرد منذ زمن بعيد أنفة الوجاهة الاسبانية: «أتكون مشغولاً كثيراً يابلتزار؟ فها هو الأحد الثالث والثلاثون الذي لم تحضر فيه القداس أو صلاة العصر».

لم يجب كلايس، وخفضت زوجته رأسها، وضمّت يديها وانتظرت فهي تعرف أن هذا الصمت لايعبر لاعن احتقار ولا عن كره، وإنما عن انشغال طاغ، فبلتزار هو أحد هذه الكائنات الذين يحتفظون لمدة طويلة في صميم نفوسهم برقّة الصبا، وهو يجد أن من الإجرام أن يبدي أيّة فكرة جارحة للمرأة المثقلة بمصيبتها الجسمية، فهو وحده، بين الرجال على الأرجح، من يعرف أن كلمة أو نظرة يمكن أن تحذف سنوات من السعادة، وستكون قاسية بمقدار شدة تباينها مع عذوبة ثابتة، لأن طبيعتنا تحملنا على الشعور بمزيد من الألم في تفاوت الهناء يفوق مانشعر به من لذة في متعة تندرج ضمن الشقاء.

بعد لحظات بدا بلتزار وكأنه يستفيق، وتطلع بعمق حوله وقال: «صلاة العصر؟ آه، الأولاد في صلاة العصر»، ومشى عدة خطوات ليلقي نظرة على الحديقة التي تكتسي جميع جنباتها ببساط رائع من أزهار الخزامى؛ لكنه توقّف فجأة، وكأنه اصطدم بجدار وصاح: «لماذا لاتتحد خلال زمن محدّد؟»[١]

---

(١) هكذا تدخل الكيمياء في الرؤية، وقد كان موضوع اتحاد الأجسام إلى جانب الاحتراق يشغل بال علماء ذلك العصر.

«هل أصيب بلوثة؟» قالت امرأته في نفسها وقد تملكها ذعر عميق.

لأجل بيان أهمية المشهد الذي أدّى إلى ذلك الوضع من الضروري أن نلقي نظرة على الحياة العائلية لبلتزار كلايس وحفيدة الدوق كازا ـ ريال.

في العام ١٧٨٣، كان بلتزار كلايس دى نورو، وهو آنذاك في الثانية والعشرين من عمره، ممن نطلق عليهم في فرنسة اسم الرجل الوسيم، فقد أنهى دراسته في باريس حيث اكتسب أرقى أساليب التصرّف في المجتمع لمعاشرته: السيدة إغمون، والكونت دي هورن، والأمير آرمبرغ، وسفير إسبانية، وهلفسيوس[1]، والفرنسيين من أصل بلجيكي، أو الأشخاص الوافدين من تلك البلاد، والذين يعتبرون من ناحية ولادتهم أو من ناحية ثروتهم من كبار سادة ذلك الزمن المعبّرين عن عادات مجتمعهم: وقد وجد كلايس الشاب في باريس عدداً من الأقارب والأصدقاء الذين أطلقوه في هذا المجتمع الرفيع في اللحظة التي كان فيها هذا المجتمع يتداعى، ولكن وكمعظم الشباب، كان أكثر انجذاباً للعلم والمجد منه للغرور، وهكذا فقد اختلط كثيراً بالعلماء، وبصورة خاصة لافوازييه، الذي اشتهر آنذاك ولفت الانتباه العام بثروته الواسعة كممول ملتزم ضرائب أكثر منه كعالم ذي اكتشافات كيميائية، لكن الكيميائي الكبير بعد ذلك غطى على ملتزم الضرائب الصغير، وقد استهوى العلم الذي يتابعه لافوازييه بلتزار فأصبح أحد مريديه المتحمسين، لكنه كان شاباً فاتناً كزميله هلفسيوس، وعلّمته نساء باريس سريعاً كيف يقطّر حصراً الظرف والحبّ وبالرغم من أنه انصرف إلى الدراسة بحماس حتى أن لافوازييه قد خصّه ببعض التقريظ، لكنه هجر معلمه ليستمع إلى معلمات الذوق اللواتي يتلقى على أيديهن الشباب الدروس الأخيرة في آداب السلوك، ويتدربون على ممارسات المجتمع المخملي الذي يشكّل في أوربة عائلة واحدة.

لم يدم حلم النجاح المسكر إلا قليلاً، وبعد أن استمتع بلتزار بالحياة

---

(١) هلفسيوس (١٧١٥ ـ ١٧٧١): متعهد ضرائب وفيلسوف له كتاب «الروح» ويعبّر عن الحسويّة المطلقة.

الباريسية، انصرف تعباً من حياة جوفاء لاتتلاءم لامع روحه المتوثبة ولامع قلبه المغرم لقد بدت له الحياة البيتية بعذوبتها وهدوئها، التي يتذكرها لمجرّد ذكر اسم الفلاندر، أكثر ملائمة لطبعه وطموحات قلبه؛ إذ لم تتمكن مذهبات أي صالون باريسي أن تمحو أنغام الردهة الداكنة ولا الحديقة الصغيرة التي قضى بينهما أسعد أيام فتوّته، ومن يرغب البقاء في باريس، يجب أن ينسى البيت والوطن، فباريس مدينة الأجناس المختلفة، أو مدينة الرجال الذين اقترنوا بالعالم يعانقونه دون انقطاع بذراع العلم أو الفن أو السلطة.

عاد فتى الفلاندر إذاً إلى دوي، كما عادت حمامة لافونتين إلى عشها، وبكى فرحاً بدخوله المدينة في ذكرى اليوم الذي تجوّل فيها غايان. غايان هذا المسعد الوهمي لكل المدينة، وهذا الفائز بالذكريات الفلمندية.

كان بيت كلايس خالياً بعد وفاة الأب والأم اللذين شغلاه فترة من الزمن، وشعر الشاب بعد انقضاء فترة حزنه الأولى، بالحاجة إلى الزواج ليتمم الوجود السعيد الذي أوصت به جميع الأديان، وأراد أن يتبع النهج المعتاد للبيت العائلي، بذهابه كأسلافه، للتفتيش عن زوجة سواء في غان، أو بروج، أو آنفر، لكن مامن واحدة ممن صادفهن أعجبته؛ فقد كان له على الأرجح حول الزواج بعض الآراء الخاصة، وهو المتهم منذ مطلع شبابه بعدم السير وفق الطريق الاعتيادي؛ وفي يوم سمع من يتحدّث عند أحد أقربائه في غان عن آنسة من بروكسل غدت موضوع مناقشات مثيرة، فقد وجد بعض الحاضرين أن جمال الآنسة دى تمنينك يمحي نتيجة تشوّهاتها الخلقية، بينما رأى بعضهم الآخر أنّها كاملة رغم هذه العيوب؛ أما ابن عم بلتزار كلايس العجوز فقد قال لمدعويه، بأنها، بغض النظر عن الجمال والقبح، ذات روح تدفعه لو أنه مازال أهلاً للزواج ليقترن بها، وقصّ كيف أنّها تخلت عن ميراث والدها لتؤمن لأخيها الشاب زواجاً يليق باسمه مضحيّة بسعادتها ويأمل كل حياتها في سبيل سعادة هذا الأخ، إذ لا أحد يؤمن أن الآنسة دى تمنينك ستتزوج بعد تقدمها في العمر. وبعد أن غدت بدون ثروة، بينما لم يتقدّم إليها أحد وهي شابة ذات ميراث.

بعد عدة أيام كان بلتزار كلايس يسعى إلى الآنسة دي تمنينك، وهي في الخامسة والعشرين من العمر، وقد تدلّه بها بحماس. ظنّت جوزفين دي تمنينك أنها عرضة لنزوة ورفضت أن تستمع إلى كلايس، لكن الهوى كثير الموصلية، وبالنسبة لفتاة مسكينة ذات عاهة وعرجاء، فإن الحب الملهم لرجل شاب حسن التكوين يحتمل إغواءات كبيرة بحيث وافقت على أن تقبل تودّده لها. ألا يلزمنا كتاب كامل لنصف جيّداً حب شابّة خاضعة بتواضع لرأي يعتبرها قبيحة، بينما تشعر في نفسها بجاذبية لاتقاوم تحدثها العواطف الحقيقية؟ إنّه غيرة شرسة على طيف السعادة، وتردد قاس في الانتقام من أيّة منافسة تسرق نظرة، أخيراً إنّه تأثيرات ومخاوف من معظم النساء تدمّرها مجرد الإشارة إليهن. إن الشكّ الشديد المأساوية في الحبّ، هو سرّ هذا التحليل المدقق بشكل رئيس الذي تجد فيه بعض النفوس الشاعرية المفقودة، لكن غير المنسية، لتشوّشاتها الأولى: هذه الاثارات السامية في صميم القلب التي لا يمكن للوجه أن يخفيها، وهذه الخشية من عدم تفهّم الآخرين، وهذه المسرّات غير المحدودة لوجود الحبّ، وهذه الترددات في الروح التي تنطوي على نفسها، وهذه الإسقاطات المغناطيسية التي تدفع إليها كلمة، والتي تتبدّد عند سماع نغم صوت يمتدّ كامتداد العاطفة التي تكشف عن مثابرة لم يعرف قدرها؛ وهذه النظرات الهلعة التي تحجب جرأة رهيبة، وهذه الرغبات المفاجئة في التحدّث والحركة المكبوحة بعنفها بالذات، وهذه البلاغة الحميمة الناتجة عن عبارات بدون معنى، لكنها مقولة بصوت متأثر؛ وهذه التأثيرات الغامضة لهذا الخفر البدائي في الروح وهذا الكتمان السماوي الذي ينعكس شهامة في الظل ويهدي نوقاً رهيفاً إلى تضحيات غامضة؛ أخيراً كل مفاتن الحب الفتيّ ومواقف الضعف التي تحدثها قدرته. كانت الآنسة جوزفين دى تمنينك مغناجاً في سموّ نفسها، وقد جعلها الشعور بعيوبها الجسمية الظاهرة بمثل صعوبة أجمل الفتيات، فالخشية من أن تفقد الإعجاب يوماً أيقظ كبرياءها، وحطّم ثقتها، ومنحها الجرأة على أن تحتفظ في أعماق نفسها بالمباهج الأولى التي ترغب النساء الأخريات أن تعلنها

بطرائقهن، ويجعلن منها وسيلة مباهاة وزهو، وكلّما زاد الحبّ في دفعها للتعلّق ببلتزار، كلما قلّت جرأتها في أن تعبر له عن عواطفها؛ ألا تغدو الحركة أو النظرة أو الجواب أو الطلب مزايدات مزرية بالنسبة لها؟ بينما هي في نظر المرأة الجميلة ملاطفات للرجل. إنّ المرأة الفاتنة يمكن أن تكون كما تشتهي وترغب فالمجتمع يغفر لها دائماً أيّة حماقة أو أيّ تلبك، بينما نظرة واحدة توقف التعبير الأكثر سحراً على شفتي امرأة دميمة، وترمي الوجل في عينيها، وتزيد من سماجة حركاتها، وتربك تصرفاتها. ألا تعلم أنّها هي وحدها التي يحرّم عليها أن ترتكب الأخطاء، وكلٌّ يرفض فيها المقدرة على التصحيح، وما من أحد يوفّر لها فرصة ذلك. ألا تخمد ضرورة محافظتها في كل لحظة على الكمال قدرتها وتجمّد ممارستها؟ إن هذه المرأة لاتستطيع العيش إلا في جوٍّ من تسامح ملائكي، وأين هي القلوب التي يتفتح التسامح فيها دون أن يصطبغ ذلك بشفقة جارحة مرّة؟. هذه الأفكار التي عوّدتها عليها مجاملتها الرهيبة للمجتمع، وهذه المراعاة الأكثر قسوة من الإهانات فاقمت البلايا بالتحقق منها، وأرهقت الآنسة تمنينك، وسببت لها مضايقة ثابتة أبعدت إلى أعماق روحها الانطباعات الأكثر عذوبة وكست بالبرود تصرفها وكلامها ونظرتها. إنها متيمة خفيّة لاتجرؤ على الإفصاح أو التجمل إلا في العزلة. فهي تعيسة في وضح النهار، فاتنة لو يتيسر لها أن تقضي حياتها في عتمة الليل، وغالباً ماتكره التزيّن، الذي يمكن أن يستر بعض عيوبها، لتستمتع بهذا الحب مجازفة بفقده؛ فعيناها كاسبانية تفتتن عندما تلاحظ أن بلتزار يجدها جميلة وهي على طبيعتها، غير أنّ الريبة أفسدت عليها اللحظات النادرة التي كانت تجازف خلالها بأن تستمتع بالسعادة. لقد تساءلت سريعاً عما إذا كان كلايس لا يبغي الزواج بها إلاّ ليكون له في منزله أمَة، وعن احتمال وجود عيوب سريّة فيه تجعله يقتنع بالزواج من فتاة بائسة مشوّهة. هذا القلق المستمر كان يثقل بفداحة ثمنه على الساعات التي تعتقد فيها باستمرارية وإخلاص حبّ ينتقم لها من العالم. كانت تثير مناقشات حسّاسة عندما تتعرض بالمبالغة لدمامتها، لتتغلغل إلى أعماق وجدان

حبيبها، وكانت تنتزع عند ذاك من بلتزار حقائق قليلة التملّق، لكنها كانت تهوى الارتباك الذي يقع فيه، عندما تستدرجه ليقول أنّ ما يحبّ في المرأة هو قبل كل شيء الروح الطيبة، وهذه التضحية التي تجعل جميع أيام الحياة سعيدة بشكل ثابت، وأن أجمل نساء الأرض، بعد عدة سنوات من الزواج تغدو بالنسبة للزوج مثل أقبحهن. فجأة أحسّ بلتزار بفظاظة هذه المقترحات واكتشف كل ما في قلبه من طيبة في رقّة التحوّلات التي عرف كيف يبديها للآنسة تمنينك التي كانت كاملة بالنسبة له، فالتضحية التي قدتكون لدى المرأة قمّة الحبّ لا تنقص هذه الفتاة؛ إذ أنها وقد قنطت من أن تكون محبوبة على الدوام، أغراها منظور الصراع الذي يجب أن تتغلب فيه العاطفة على الجمال؛ ثم وجدت أنّ من الكبر أن تهب نفسها دون أن تؤمن بالحبّ؛ أخيراً فإن السعادة مهما كانت مدتها قصيرة ستكلفها غالياً جداً إن امتنعت عن تذوقها. هذه الشكوك، وهذه الصراعات بإشاعتها الجاذبية وغير المتوقع في هوى هذه المخلوقة السامية، أوحت إلى بلتزار بحب شبه فروسي.

تمّ الزواج في بدء سنة ١٧٩٥ وعاد الزوجان إلى دوي ليقضوا ايام اقترانهما الأولى في بيت كلايس الأبوي، الذي أغنت الآنسة دي تمنينك كنوزه ببعض اللوحات الجميلة لموريلو وڤلاسكز(١)، وبالاميس أمّها، وبالهدايا الرائعة التي أرسلها لها أخوها، الذي أصبح دوق كازا - ريال.

قلّة من النساء كنّ بمثل سعادة السيدة كلايس؛ وقد دامت سعادتها خمسة عشر عاماً دون أن تعكرّها أيّة غيمة، وكنور ساطع انبثّت في أدق تفاصيل وجودها. إن لدى معظم الرجال تفاوت في الطباع يحدث تنافراً مستمراً، وبذلك يحرمون بيوتهم من ذلك الانسجام، وهو هدف مثالي لكل عائلة؛ ذلك أن معظم الرجال ملوثون بالصغائر، والصغائر تولّد الإزعاجات، فأحدهم مستقيم ونشط لكنه قاس وخشن، وآخر طيّب لكنه عنيد؛ هذا يحبّ امرأته لكن تكبّل الشكوك إرادته وذاك، وقد انشغل بالطموح، يتصرف مع العواطف وكأنها دَين، فإذا ازدهى بالحصول على الثروة فإنه قد حرم من متعة جميع الأيام.

(١) موريلو (١٦١٧ - ١٦٨٢)، ڤلاسكز (١٥٩٠ - ١٦٦٠): من الفنانين الاسبانيين

أخيراً فإن رجال الوسط الاجتماعي غير كاملين دون أن يتوجّب لومهم بالضرورة، ورجال الفكر متغيّرون كتغير مقاييس الضغط الجوي والعبقري منهم هو الطيّب، وهكذا فالسعادة الحقيقية هي بين طرفي السلم المعنوي: الغبي الساذج أو رجل الإبداع هما القادران على تحقيقها، الأول بضعفه والآخر بقوته، بهذه المساواة في الطبع والعذوبة الدائمة التي يرقّ فيها ما أخشوشن من أمور الحياة، لدى الأول لامبالاة وقصور ذاتي ولدى الثاني تسامح واستمرار فكر سام، هو المعبر عنه، بتماثل في المبدأ، كما في التطبيق، الأول والثاني بسيطان بريئان إنما لدى هذا العمق ولدى ذاك الفراغ؛ وهكذا فالنساء البارعات مهيآت تقريباً لتقبّل الغبي وكأنه الأمل المرتجى كالعبقري.

كان بلتزار يتميّز إذا بسموه حتى في أتفه أمور الحياة، وقد راق له أن يرى في الحبّ الزوجي تحفة رائعة، أراد أن يبسط فيها كل معاني الجمال كجميع الرجال أصحاب الغايات الكبيرة، فكانت روحه تعدّل دون انقطاع هدأة السعادة وطبعه النبيل يوجّه انتباهه إلى معالم الرقّة والتلطّف، وهكذا فبالرغم من اتباعه للمبادىء الفلسفية السائدة في القرن الثامن عشر فقد آوى إليه حتى العام ١٨٠١، رغم تعرّضه لمخاطر القوانين الثورية كاهناً كاثوليكياً، كي يرضي التعصب الاسباني للكاثوليكيه الرومانية الذي رضعته زوجته مع حليب أمّها. ثم بعد أن أطلقت حريّة العبادة في فرنسة، كان يرافق امرأته كلّ يوم أحد إلى القداس؛ وهكذا فإن مودّته لم تتخل عن أشكال الهوى المتيّم، ولم يظهر أبداً في منزله تلك القوّة الحامية. بالرغم من محبّة النساء لها، لأن زوجته تراها تشبه الشفقة. أخيراً وبحس تصرف بارع في الذكاء كان يعاملها كندّ له ويسمح لنفسه بأن تبدر عنه بعض مظاهر الحرد التي يبديها الرجل تجاه المرأة الجميلة ليرضي فيها تعاليها. كانت بسمة السعادة تتجلّى دائماً على شفتيه، وكلامه تملؤه العذوبة دوماً، لقد أحبّ جوزفينه لذاتها وله بهذه الحماسة التي يقتضيها التقريظ المستمر لمزايا ومفاتن المرأة. أما الإخلاص وهو غالباً نتيجة مبدأ اجتماعي أو تديّن أو غاية لدى الأزواج، فهو لديه على مايبدو، لا إرادي ومترافق

دوماً بملاطفات ربيع الحبّ العذبة؛ والواجب في الزواج هو الفرض الوحيد الذي يبدو مجهولاً لدى هذين الكائنين المتحابيّن بالتساوي؛ إذ رأى بلتزار كلايس في الآنسة دي تمنينك تحقيقاً كاملاً وثابتاً لجميع آماله؛ والقلب لديه قد أفعم حبّاً دون كَدَر والرجل يرتع في السعادة؛ فالدم الاسباني في عروق حفيدة آل كازا - ريال لم يكذب أصالته وقد منحها سرّ هذا العلم الذي يعرف كيف ينوّع الملذات إلى مالانهاية، ليس هذا فقط، إنما منحت تضحية لاحدود لها هي ابداع جنسها كما تحوّل الجمال كلّه فيها إلى جاذبية لقد أصبح الحبُ فيها عصبية عمياء يسرّها فيه أن تنطلق إلى الموت بإيماءة من رأس الحبيب؛ فرِقّة بلتزار أثارت فيها أنبل ما تحسّ به المرأة من عواطف وأوحت إليها بحاجة ملحّة لتعطي أكثر مما تتلقى. هذا التبادل المشترك لسعادة تتناوب متدفقة أطلقت مبدأ حياتها من كوامن نفسها بشكل ظاهر، فانتشر حبٌّ متزايد في عباراتها ونظراتها وتصرفاتها؛ وأغنى العرفان بالجميل، من جهة وأخرى، حياة القلب وزادها تنوعاً، كما أن اليقين بأن كلاً منهما هو كلّ شيء بالنسبة للآخر قد أبعد الصغائر بارتقائه بأتفه ملحقات الوجود، وأيضاً ألا تشعر المرأة المشوّهة التي يجدها زوجها تامّة، أو المرأة العرجاء التي يجدها الرجل غير ذلك، أو المرأة المتقدمة في العمر التي تبدو شابّة، أنهن أسعد المخلوقات في العالم النسائي؟.... ألا يمكن للهوى الإنساني أن يذهب إلى الأبعد(١)؛ أليست عزّة المرأة في أن تجعل عيوبها موضع تبجيل؟ إن نسيان المشية غير السويّة لعرجاء هو افتتان لحظة، لكن حبّها لأنها تعرج هو تقديس لعلّتها. ربمّا وجب أن ينتعش يوماً في الكتاب المقدّس للنساء هذه الحكمة: «طوبى للمشوّهات لأن لهن ملكوت الحبّ». حقّاً يجب أن ينظر إلى الجمال كنقمة على المرأة؛ فهذه النعمة العابرة تتدخل كثيراً بما توحيه من عاطفة، فكأن الجميلة تحب لجمالها، كما يُسعى للزواج بالوريثة الثرية لغناها. لكن الحبّ الذي تثيره أو تظهره امرأة حُرمت من المزايا الهشّة التي يتهافت عليها أبناء آدم؛ هو الحب الحقيقي، والهوى الغامض

(١) بذلك يكون حبّ كلايس الزوجي يمثّل المطلق في مجال الهوى.

حقاً وعناق الأرواح الحاد، والعاطفة التي لا تعرف يوماً خيبة الأمل. إن لهذه المرأة مفاتن مجهولة من عالم المراقبة الذي تتفلّت منه. إنّها جميلة بالشكل الصائب وتتهيأ لها العزّة بحيث تنسى عللها التي لاتحول أبداً دون نجاحها.

هكذا فإن أشهر قصص الحبّ في التاريخ قد استوحيت جميعها تقريباً من نساء رأى فيهن العوام بعض التشوهات: كليوباترة[1]، جان نابولي، ديان بواتيه، الآنسة دى لافالبير، السيدة دى بومبادور. أخيراً فإن معظم النساء اللواتي خلّدهن الحبّ لم يخلون من تشوّه أو عجز، بينما معظم النساء اللواتي اشتهرن بجمال تام رأين حبّهن ينتهي إلى الخيبة. هذه الغرابة الظاهرية يجب أن يكون لها سبب! أهو اهتمام الرجل بالعاطفة أكثر منه بالمتعة؟ أم أن الجاذبية الجسمية للمرأة الجميلة ذات حدود بينما الجاذبية المعنوية بشكل رئيس لامرأة ذات جمالٍ متواضع لانهاية لها؟ أليس هذا مايستنتج من حكايات ألف ليلة وليلة؟ لو أن زوجة هنري الثامن كانت دميمة لتحدت الفأس وتغلّبت على تقلبات الملك[2].

بغرابة لها عذرها عند فتاة ذات أصل اسباني، كانت السيدة كلايس جاهلة، اقتصرت ثقافتها على القراءة والكتابة، لكنها حتى العشرين من عمرها، عندما أخرجها أهلها من الدير، لم تكن متعطشة إلى مسرّاته، فلم تتعلم إلا مبادىء التزين التافهة، إنّما كانت مستخزية من جهلها بحيث لم تجرؤ على الدخول في محادثة، مما دفع إلى الظن بأنها محدودة التفكير. غير أن هذه

---

(1) كليوباترة (٦٩ ـ ٣٠ ق م) ملكة مصر، أحبها قيصر، ثم انطونيو. لم يعجب أنفها اوكتافيوس

جان نابولي (١٣٢٧ ـ ١٣٨٢) ملكة نابولي، اشتهرت بإساءة معاملة الأزواج، ماتت مخنوقة

ديان بواتيه (١٤٩٩ ـ ١٥٦٦) خليلة هنري الثاني.

دي لافالبير (١٦٤٤ ـ ١٧١٠) عشيقة لويس الرابع عشر، كانت عرجاء.

السيدة دي بومبادور (١٧٢١ ـ ١٧٦٤) عشيقة لويس الخامس عشر.

(2) المقصود آن بولين (١٥٠٧ ـ ١٥٣٦) التي تزوجها الملك رغم حرمان روما ثم قتلها بعد أن أحبّ غيرها.

التربية الغامضة انتجت لديها احتداماً في العواطف دون أن تفسد ذكاءها الطبيعي؛ فهي دميمة وحمقاء كوريثة في أعين البشر، لكنها جميلة ومرهفة العقل في نظر زوجها؛ وقد عمل بلتزار في السنوات الأولى منَ زواجهما على أن يكسب امرأته المعارف التي تحتاج إليها لانخراطها في المجتمع، لكن الوقت قد فات دون شك، ولم تعد الذاكرة تستوعب إلا قضايا القلب، فجوزفين لاتنسى شيئاً مما يقوله لها كلايس عما يتعلق بهما، وتتذكر أدق تفاصيل حياتها السعيدة، لكن في العلم لاتتذكر درس الأمس في اليوم التالي. هذا الجهل لو كان بين أزواج آخرين لأدى إلى تنافر كبير، لكن السيدة كلايس في توافقها الساذج البريء مع الهوى، تحبّ زوجها إلى درجة التقى والتقديس، بحيث يمنحها توقها للمحافظة على سعادتهما مهارة تمكنّها دائماً من فهمه وطيّ هذا الجهل بحيث لايبدو جلياً، الواقع عندما يتحاب شخصان إلى الدرجة التي يبدو فيها كلّ يوم لديهما هو يوم هواهما الأول، تترسخ في سعادتهما العامرة ظواهر تبدّل جميع شروط الحياة، أليس هما في طفولة خليّة من كل همّ لاتبالي إلا بالضحك والمرح والسرور؟ ومن ثمّ فعندما تكون الحياة تمور نشاطاً، والبيوت ملؤها الحركة فإن الرجل ينطلق معها في وقدتها دون أن يمعن التفكير أو المناقشة بها، ودون حساب للوسائل والغايات، عدا عن أن مامن ابنة لحواء أفضل من السيدة كلايس في إدراكها لواجباتها كامرأة؛ فهي تتصف بامتثال الفلمندية التي تملأ البيت العائلي جاذبية، بينما يمنحه زهو أصلها الاسباني نكهة فائقة؛ وقد تميّزت بالوقار، فهي تعرف كيف تفرض احترامها بنظرة يشع منها إحساس بمكانتها ونبلها، لكنها أمام كلايس كانت ترتجف، وانتهت مع الزمن إلى وضعه في منزلة سامية تقربّه من إله، بعد أن نقلت إليه جميع أحداث حياتها وكلّ كا يخطر ببالها بحيث اكتسى حبّها مسحة من خشية موقّرة تشحذه وتزيده مضاءً، واتبعت بزهو جميع تقاليد البورجوازية الفلمندية، واعتبرت كرامتها رهناً بتحقيق حياة عائلية مرفهة سعيدة فهي تعنى بكل شؤون البيت محافظة على نظافتها التقليدية، وتختار من الأشياء ماعرف بجودته

المطلقة، وتهيء لمائدتها أشهى المآكل، وترتب كل شيء في تناسق مع أحاسيس قلبها. رزق الزوجان أربعة أولاد، صبيين وبنتين، وقد ولدت ابنتها البكر مرغريت في العام ١٧٩٦، أما الولد الأخير فكان صبياً عمره الآن ثلاث سنوات واسمه جان بلتزار؛ وكانت عاطفة الأمومة عند السيدة كلايس تعادل تقريباً محبتها لزوجها؛ وهكذا فقد قامت في أعماق نفسها، وخاصة في الأيام الأخيرة من حياتها معركة رهيبة بين هاتين العاطفتين اللتين تتميز كلاهما بالقوة، والتي تحمل كل منهما للأخرى نوعاً من العداوة.

في الفترة التي بدأت فيها قصة هذه المأساة العائلية التي احتضنها ذلك البيت الوديع، وسم الذعر والدموع وجه السيّدة كلايس خشية أن تكون قد ضحت بأولادها من أجل زوجها.

في العام ١٨٠٥ توفي شقيق السيدة كلايس دون أن يرزق أولاداً، والقوانين الاسبانية تحول دون انتقال ملكية الأراضي المشكلة لإقطاع العائلة إلى الأخت لكن الدوق في وصيته ورّث أخته نحو ستين ألف دوكا لايمكن أن ينازعها فيها الورثاء من الحواشي، وبالرغم من أن العاطفة التي تربطها ببلتزار كلايس لم تشبها يوماً فكرة الكسب المادي، فإن جوزفين أحسّت بنوع من الغبطة لأنها امتلكت ثروة تعادل ثروة زوجها، وشعرت بالسعادة لأن في مكنتها الآن أن تقدّم له شيئاً بعد أن تلّقت منه بنبل كل شيء. هكذا أرادت الصدفة أن يصبح هذا الزواج، الذي اعتبره أنصار المصالح جنوناً، من الناحية الماديّة، زواجاً ممتازاً. لكن استغلال هذا المبلغ أحدث صعوبة في التطبيق؛ فبيت كلايس كان مليئاً بالأثاث، واللوحات، والتحف الفنية والقيّمة، بحيث بدا من الصعب أن تضاف اليها رياش أخرى مماثلة لما يحويه؛ فذوق تلك العائلة قد راكم كنوزاً، وانطلق جيل كامل سعياً وراء اللوحات القيمة، ثم جعلت ضرورة إكمال المجموعة التي بديء بها الميل إلى الرسم وراثياً، فاللوحات المئة التي تزيّن الرواق الواصل بين الجناح الخلفي وقاعات الاستقبال الواقعة في الطابق الأول من الجناح الأمامي، وكذلك اللوحات الخمسون الموضوعة في صالات الاحتفالات قد تطلّبت

ثلاثة قرون من سعي دؤوب. إنّها قطع فنيّة شهيرة لروبنس، وروبزدال وفان ديك، وتربرغ، وجيراردو، وتنيه، وميريس، وبول بوتر، وورمانس ورامبراندت، وأوبما، وكراناش، وهولبين. قليلة كانت اللوحات الايطالية والفرنسية لكنها جميعها أصيلة ورئيسة. كما أن جيلا آخر قد استهوته أطقم المائدة اليابانية والصينية؛ وهكذا استهوى الأثاث أحد أفراد عائلة كلايس، بينما استهوت الفضيات آخر، فكان لكل منهم هَوَسه، وهواه، وإحدى السمات الأكثر بروزاً في الطبع الفلمندي؛ فوالد بلتزار، وهو من نهاية سلسلة المجتمع الهولندي الشهيرة ترك إحدى أغنى مجموعات الخزامى المعروفة. عدا هذه الكنوز الموروثة التي تمثّل رأسمال هائلاً، والتي كانت تؤثّث بشكل رائع ذلك البيت العتيق، البسيط في مظهره من الخارج كقوقعة، لكنها قوقعة لؤلؤية من الداخل ومزيّنة بأغنى الألوان.

كان بلتزار كلايس يمتلك أيضاً بيتاً ريفياً في سهل أوركي، وكان بعيداً عن أن ينفق كل مايرده، كما يفعل الفرنسيون، بل انه اتبع التقليد الهولندي القديم فلا ينفق إلا ربع دخله، وبالتالي فإن هذا الربع المعادل لألف ومئتي دوكا سنوياً يجعل انفاقه على مستوى أغنى الأشخاص في المدينة. أظهر نشر القانون المدني صحة هذا التصرّف الحكيم، فهو بتقريره توزيع الملكية بالتساوي، فإن توزّع المواريث سيترك كل ولد شبه فقير، وسيشتت يوماً كنوز متحف آل كلايس القديم، لذلك وضع بلتزار بالاتفاق مع السيدة كلايس ثروتها بطريقة تؤمن لكل من أولادهم وضعاً مماثلاً لوضع الأب؛ فاستمر بيت كلايس في بساطة سيرته، واشترى مناطق حراجية أسيئت العناية بها خلال الحروب التي مرّت لكنها بعد عشر سنوات من حسن الصيانة ستكون ذات قيمة كبيرة.

إن المجتمع الراقي في دواي الذي يعاشره كلايس، عرف كيف يقدّر جيداً طبع ومزايا زوجته، فقد أعفاها من الواجبات التي يتمسّك بها أهل الأقاليم بشدة، فكانت خلال فصل الشتاء الذي تقضيه في المدينة لاتزور الناس إلا نادراً، إنما يأتي الزوّار إليها، فتستقبل كل يوم أربعاء، وتقيم ثلاث ولائم عشاء

كبرى في الشهر، وكان كل فرد يشعر انها اكثر راحة في ملازمة منزلها التي يوجبها عليها هواها لزوجها، وما تتطلبه رعاية أولادها من عناية.

هكذا كانت، حتى العام ١٨٠٩، سيرة هذه العائلة المتوافقة مع الأفكار التي تبنتها، فحياة هذين الكائنين المليئة سراً بالحب والغبطة، كانت تبدو للخارج مماثلة لحياة أيّة عائلة أخرى. إن هوى بلتزار كلايس لزوجته التي عرفت كيف تجعله يستمر، بدا كما لاحظ هو بنفسه يستخدم مثابرته الفطرية في زراعة السعادة التي تعادل زراعة الخزامى التي استهوته منذ صغره، وأغنته عن أن يكون له هوسه الذي لازم كل واحد من أسلافه.

في نهاية تلك السنة طرأت على نفس بلتزار وتصرفاته تغيّرات مشؤومة بدأت بشكل طبيعي أولاً بحيث لم تجد السيّدة كلايس ضرورة لسؤاله عن السبب. في ذات مساء أوى زوجها إلى فراشه وقد بدا في حالة انشغال بال وجدت أن من واجبها أن تحترم عدم افصاحه عنها، فرقّتها كامرأة، وعاداتها في الامتثال جعلتها دائماً تنتظر اعترافات بلتزار لها التي ضمن ثقتها به حبٌ حقيقي لايفسح أي مجال للغيرة؛ وبالرغم من يقينها بالحصول على جواب إذا سمحت لنفسها بسؤال فضولي، فإنها احتفظت دائماً من انطباعاتها الأولى عن الحياة بخشية الرفض. غير أن مرض زوجها النفسي كان ذا أطوار، ولم يصل إلا على ظلال تتدرّج إلى أن غدت أكثر قوة من ذلك العنف الذي لايطاق، والذي يهدّد سعادة الحياة الزوجية؛ ومهما بدا بلتزار مشغولاً، فقد بقي مع ذلك، وخلال عدة أشهر، محدثاً، عطوفاً، لم يبد عليه من تغير في الطبع إلا تلك الفترات من الشرود المتكاثرة. أملت السيدة كلايس طويلاً أن يطلعها زوجها على سرّ مشاغله، واعتقدت أنه لايرغب بالبوح بها إلا في اللحظة التي يحقق فيها نتائج مفيدة، إذ أن كثيراً من الرجال يدفعهم الإباء إلى إخفاء معاركهم فلا يظهرونها إلا منتصرين. في يوم النصر إذاً ستعود السعادة العائلية أكثر تألقاً بحيث يلاحظ بلتزار تلك الفجوة في حياته الغرامية التي سيشجبها قلبه دون شك؛ وجوزفين تعرف جيّداً زوجها بحيث تدرك أنه لن يغفر لنفسه أنه جعل حبيبته أقل

سعادة خلال عدة أشهر، لذلك لزمت الصمت، وهي تشعر بنوع من اللذة لأنها تشقى بسببه ومن أجله؛ فهواها مشوب بتلك التقوى الاسبانية، التي لاتفصل أبداً الإيمان عن الحبّ، ولاتفهم أبداً العاطفة دون آلام، وانتظرت عودة الودّ وهي تقول لنفسها كل مساء: «ستنفرج غداً»، كانت تتعامل مع سعادتها كأنها غائبة؛ وقد حملت بطفلها الأخير وسط هذه التشوشات الغامضة؛ فكان هذا الحمل كشفاً رقيباً عن مستقبل آلام!. في هذا الظرف كان الحبُّ بين سهوات زوجها، هو الأكثر تعرّضاً للسهو، ودفعها إباؤها الجريح لأول مرّة، لأن تسبر عمق الهوّة المجهولة التي فصلتها إلى الأبد عن كلايس الأيام الأولى، ومنذ تلك اللحظة ساءت حالة كلايس، فهذا الرجل الذي كان سابقاً غارقاً دون انقطاع في الأفراح العائلية، ملاعباً لساعات كاملة أولاده، يتدحرج معهم على سجادة غرفة الجلوس، أو في ممرات الحديقة، يبدو وكأنه يتطلع إلى الحياة من خلال عيني زوجته المدلّلة الحبيبة، لم يلاحظ في شروده الآن حتى حمل امرأته، وقد نسي حياة العائلة. بل نسي نفسه، وكلما تأخر الوقت على السيدة كلايس لسؤاله عن مشاغله، كلّما قلّت جرأتها على هذا السؤال. عند هذا الخاطر يغلي الدم في عروقها، ويخونها النطق. أخيراً خيّل إليها أنها لم تعد تثير إعجاب زوجها، وانتابها من ذلك قلق جاد؛ سيطر الروع فيه على نفسها، وأقنطها، وأثارها، وغدا سبباً لساعات كآبة طويلة، وأحلام يقظة حزينة. برّرت لبلتزار موقفه ملقية على نفسها اللوم، فهي عدا عن دمامتها قد شاخت؛ ثم خطرت لها فكرة سمحة لكنها مذلّة بالنسبة لها، فقد رأت في العمل المنصرف إليه وفاءً سلبياً، وأرادت أن تمنحه استقلاله بإقامة واحد من هذه الأشكال السريّة للطلاق مشكّلاً كلمة السعادة التي يبدو أن أزواجاً عديدين يرتعون بها. غير أنها قبل أن تلقي كلمة الوداع على الحياة الزوجية، جرّبت أن تقرأ في أعماق هذا القلب، لكنها وجدته مغلقاً، وشيئاً فشيئاً رأت بلتزار يغدو لامبالياً تجاه كل ماكان يحبه، فقد أهمل نبتات الخزامى وهي مزهرة، ولم يعد يفكر بأولاده. إنّه دون شك منصرف إلى هوى. خارج تعلّقات القلب، لكنه بالنسبة للنساء لايخفف من قسوة القلب. إنّ الحبّ هاجع لكنه غير هارب؛ وإن وجد عزاء فهو في أن البليّة لن تبقى على

حالها؛ لكن استمرار هذه الأزمة يتفسّر بكلمة واحدة هي الأمل، سر جميع هذه الأوضاع الزوجية، ففي اللحظة التي تصل فيها تلك المرأة المسكينة إلى درجة من اليأس، تدفعها إلى أن تتجرأ لتطلب إيضاحاً من زوجها؛ عند ذاك بالضبط تتجدّد لديها لحظات عذبة يبرهن خلالها بلتزار على أن الأفكار التي تشغل ذهنه، مهما كانت شيطانية، تتيح له أن يعود أحياناً إلى نفسه كما عَهِدَتها؛ وخلال تلك اللحظات التي تصفو فيها سماؤها، تسارع لتستمتع بسعادتها بدلاً من أن تعكرها بالمضايقات، ومن ثم عندما تتشجع لتسأل بلتزار، وفي اللحظة التي تكاد تتكلم فيها يفلت منها سريعاً، أو يتركها فجأة، أو يهوي في لجة تأملاته التي لايمكن لأي شيء أن ينتزعه منها.

لم يمض إلا القليل حتى بدأ الفعل النفسي يفتك بالجسد فتكاً غير محسوس في البدء غير أنه لايخفى على عين المرأة المحبّة التي تتابع أفكار زوجها المبهمة حتى أدق مظاهرها؛ وغالباً مايصعب عليها حبس دموعها وهي تراه بعد العشاء، وقد غاص في أريكة قرب النار، عابساً مفكراً، وقد تسمّرت عينه على لوح أسود دون أن يلحظ الصمت الذي ران حوله، كانت تلحظ بذعر التغيّرات غير المحسوسة التي أخذت تتلف هذا الوجه الذي سما به الحب في نظرها، فيزداد، كل يوم انسحاب حيوية الروح منه، وتبقى القسمات جامدة خالية من أي تعبير، وأحياناً تأخذ العينان لوناً زجاجياً، فيبدو وكأن النظر قد ارتد ليمارس فعاليته من الداخل؛ وعندما يأوي الأولاد إلى المهاجع بعد عدة ساعات من الصمت والعزلة، وقد ملأتها الأفكار المريعة، قد تتجرأ پيپيتا(١) وتسأله، «ياصديقي، هل ثمّة ما يضايقك؟». أحياناً لايجيب بلتزار، وإن أجاب، يعود بارتعاشة إلى نفسه كمن استيقظ مذعوراً من نومه، ليقول بجفاف وبصوت أجشّ «كلا»، فتسقط هذه الكلمة ثقيلة على قلب امرأته الخافق باختلاج؛ وبالرغم من أنّها أرادت أن تخفي عن أصدقائها الحالة الغريبة التي وصلت إليها، فإنها

---

(١) پيپيتا: Pepita : من الأسماء الأولى لجوزفين كلايس والمعروف أن العائلات النبيلة تعدّد اسماء بنيها وبناتها.

قد وجدت نفسها مضطرة للتحدث عنها؛ ووفقاً لعادات المدن الصغيرة، فإن معظم الصالونات اتخذت من اختلال بلتزار موضوع أحاديثها، بل إن بعض الحلقات الاجتماعية تطرقت إلى تفاصيل عديدة تجهلها السيدة كلايس، وهكذا فبالرغم من الصمت الذي توجبه المجاملة المهذبة، فإن بعض الأصدقاء أظهروا قلقاً بالغاً دفعها إلى سرعة تبرير تفرّدات زوجها مدّعية «أن السيد بلتزار قد انشغل بعمل كبير يستغرق كل تفكيره، لكن نجاحه فيه سيكون موضع فخر لعائلته ووطنه». هذا التفسير الغامض داعب كثيراً طموح مدينة يسود فيها حبّ الوطن، أكثر من أيّة مدينة أخرى، بحيث أحدث في النفوس ردّ فعل مقدّر للسيد كلايس، فافتراضات زوجته لم تكن، إلى حدّ ما، دون أساس، إذ أن عمالاً من مهن متعددة عملوا لمدة طويلة في عنبر القسم الأمامي من المنزل حيث أخذ يتردد عليه بلتزار منذ الصباح، وبعد أن كان يقضي فيه خلوات تتزايد أوقاتها طولاً، بحيث تعوّد عليها زوجته وأفراد المنزل تدريجياً؛ فإنه وصل إلى مرحلة تمرّ عليه فيها أيام كاملة وهو في خلوته هذه. لكن الألم غير المتوقع كان فيما علمته السيدة كلايس خلال المسارّات المذلة من بعض صديقاتها المخلصات المندهشات من أنها تجهل مايقوم به زوجها من شراء متواصل لأجهزة فيزيائية، ومواد ثمينة، وكتب، وماكنات من باريس، وأنه سائر إلى الخراب، كما يقال، في سعيه إلى الوصول إلى حجر الفلاسفة؛ وأضافت الصديقات أن عليها أن تفكر بمستقبلها الخاص، وسيكون من الإجرام ألا تستخدم تأثيرها لتحويل زوجها عن الطريق الضال الذي تورّط فيه.

إن كانت السيّدة كلايس قد وجدت الجرأة الحازمة لتضع حدّاً لهذه الأقاويل غير المعقولة فقد تملّكها الرعب رغم اطمئنانها الظاهر وقرّرت أن تتخلّى عن دورها في إنكار الذات. لقد تولّدت فيها إحدى هذه الحالات التي تشعر فيها المرأة أنها على قدم المساواة مع زوجها، فتخلت عن وجلها، وتجرّأت أن تطلب من بلتزار سبب هذا التغيّر ومبرّر خلوته المستمرة، لكن الفلمندي قطّب حاجبيه وأجابها: «ياعزيزتي، لن تفهمي شيئاً من ذلك».

ألحّت جوزفين يوماً لتعرف هذا السرّ، معلّلة بلطف أن من تشاركه الحياة، يجب أن يشاركها في أفكاره، فأجابها بلتزار وهو يجلسها على ركبتيه ويداعب شعرها الفاحم قائلاً: «بما أن هذا الأمر يشغل بالك كثيراً، فاعلمي أنني منصرف إلى الكيمياء، وانني بذلك أسعد رجل في العالم.»

بعد سنتين من الشتاء الذي غدا فيه السيد كلايس كيميائياً تغير وضع منزله، سواء لأن المجتمع قد انزعج من شرود العالم المستمر، أو ظنّ أنه يضايقه، أو لأن الهموم المكتومة قد جعلت السيّدة كلايس أقلّ ظرفاً، فلم تعد ترى إلا أصدقاءها الخلّص، أما بلتزار فلم يعد يذهب إلى أي مكان، فهو منحبس في مخبره طيلة النهار، ويبقى فيه أحياناً خلال الليل، ولايظهر بين أفراد عائلته إلاّ في موعد العشاء؛ وقد انقطع منذ السنة الثانية عن أن يقضي نهاية الربيع والصيف في منزله الريفي وأبت امرأته أن تؤمه من دونه.

كان بلتزار أحياناً يخرج من منزله متنزهاً ولايعود إلا في اليوم التالي، تاركاً السيدة كلايس خلال ليل بكامله نهباً لقلق مميت، بعد أن تكون قد أرسلت من يفتش عنه عبثاً في مدينة تغلق أبوابها مساءً وفقاً لعادات الأماكن المحصّنة، وعند ذاك لايبقى للمرأة التعسة حتى أمل الانتظار المشوب بالقلق وتستمر في ألمها الممضّ حتى اليوم التالي عندما يصل بلتزار الذي نسي في أمسه موعد إغلاق الأبواب وهو هادىء دون أن يحسّ بما سببه شروده من عذابات في عائلته، حتى أن سعادة رؤيته ثانية تخلق بالنسبة لامرأته أزمة بمثل ماتوقعته تخوّفاتها من مخاطر، فتّصمت ولاتجرؤ على سؤاله إذ أنه يجيبها لأول بادرة، وقد اعترته الدهشة: «إيه، ماذا جرى، ألا يمكن للمرء التنزّه!». إن العواطف لاتعرف الخداع، وهموم السيّدة كلايس تبرّر إذا الشائعات التي طاب لها سابقاً أن تكذّبها، وقد خبرت في شبابها الشفقة المهذّبة للمجتمع، بحيث لاتريد أن تتعرّض لها مرة أخرى، وحبست نفسها بدرجة أكبر بين جدران منزلها الذي هجره حتى أصدقاؤها الأخيرون الخلّص، إن الفوضى في الملابس المحطّة دائماً من قدر إنسان من عليّة القوم، لم تكن لدى بلتزار الأقلّ حساسية من جميع

أسباب الأحزان التي تؤلم تلك المرأة المتعوّدة على نظافة الفلمنديات الفائقة، وبالاتفاق مع لمولكنيه وصيف زوجها، تداركت جوزفين لبعض الوقت التلف اليومي للثياب، لكن وجب عليها أن تتخلى عن ذلك، ففي ذات اليوم الذي كانت تعوّض فيه حوائج جديدة، دون علم بلتزار، بالحوائج المبقعة، أو الممزقة، أو المثقبة؛ تجعل تلك بدورها أسمالاً. فجأة وجدت هذه المرأة السعيدة خلال خمسة عشر عاماً، لم تتطرّق فيها الغيرة إلى نفسها، أنّها ليست في الظاهر شيئاً في القلب الذي كانت تحتله سابقاً؛ ودوّت في نفسها عاطفة المرأة الاسبانية، وهي الاسبانية الأصل، عندما وجدت في العلم، منافساً ينتزع منها زوجها، ونهشت أنياب الغيرة قلبها، وغيّرت حبّها. لكن كيف يمكن التصرّف ضد العلم؟ كيف يمكن مصارعة القدرة المستمرّة، والطاغية، والمتزايدة؟ كيف يمكن القضاء على منافسة غير منظورة؟ كيف يمكن لامرأة ذات قدرة محدودة بطبيعتها أن تتصارع مع فكرة مباهجها لانهاية لها، ومفاتنها جديدة دوماً؟ ماذا يُحاول ضد غنج أفكار تنتعش وتنشق أكثر جمالاً في الصعوبات وتجذب رجلاً إلى مدى بعيد عن العالم بحيث ينسى حتى أعزّ مودّاته؟ أخيراً، وفي يوم أرادت السيدة بلتزار رغم أوامر زوجها الصارمة، ألا تتركه منفرداً على الأقل، وأن تنحبس معه في هذا العنبر الذي يعتزل فيه، وأن تجابه وجهاً لوجه منافستها، بملازمتها لزوجها خلال الساعات الطويلة التي يسخو بها على هذه الخليلة الرهيبة، وأرادت أن تنسلّ سرّاً إلى هذا المحترف الغامض في إغرائه، وتكتسب حقّ البقاء فيه دائماً؛ وجرّبت إذا أن تتقاسم مع لمولكينيه حق الدخول إلى المخبر، لكنها خشيت نزاعاً يحضره الوصيف، فانتظرت اليوم الذي يسمح له فيه زوجها بالغياب، وكانت تتحرى منذ مدة روحات وجيئات هذا الخادم بنفاد صبر بغيض، ألا يعرف هذا الوصيف ما ترغب في معرفته، وما يخفيه زوجها عنها ولا تجسر أن تسأله عنه؟ لقد وجدت لمولكينيه أكثر حظوة منها، هي الزوجة!.

تقدمت إذا وجلة، شبه سعيدة، لكنها لأوّل مرة في حياتها عرفت شدة غضب بلتزار؛ إذ ماكادت تفتح الباب، حتى انقض عليها، وأمسك بها، ورماها

بقسوة على السلم بحيث كادت تهوي متدحرجة من أعلاه إلى أسفله، لولم ينتشلها وهو يصرخ «حمداً لله، ماتزالين في الوجود!» وانكسر قناع من زجاج حطاماً حول السيدة كلايس، التي رأت زوجها شاحباً، ممتقعاً، مذعوراً.

قال بعد أن جلس على درجة من السلّم كرجل مقهور: «لقد حرّمت عليك، عزيزتي أن تحضري إلى هنا، لقد وقاك القديسون من الموت، أيّة صدفة جعلت عينيّ موجّهتين نحو الباب؟ لولا ذلك لهلكنا.

- « كم كان يسعدني ذلك، عندئذٍ» قالت.

- لقد فشلت تجربتي، لا يمكن أن أغفر إلاّ لك الألم الذي سببته لي خيبة الأمل القاسية هذه، كدت على الأرجح أصل إلى تفكيك الآزوت[1]، إذهبي وعودي إلى مشاغلك. قال هذا ودخل بلتزار إلى مخبره. «كدت على الأرجح، أفكك الآزوت!» ردّدت المرأة المسكينة وهي تعود إلى غرفتها حيث تفجّرت دموعها.

كانت هذه العبارة غامضة بالنسبة لها، فالرجال المتعوّدون بثقافتهم على تصوّر كلّ شيء لايعرفون مدى معاناة المرأة من عجزها عن فهم فكرة من تحب؛ وهذه المخلوقات السماوية أكثر تسامحاً منا، فهنّ لايقلن لنا متى تبقى لغة أرواحهن غير مفهومة، إذ أنّهن يخشين إشعاراً بسمو عواطفهن، ويخفين عند ذاك آلامهن بالقدر ذاته من الغبطة التي يسكتن فيها مسرّاتهن المجهولة؛ لكنهن في الحب أكثر طموحاً منا، فهن يردن أن يقترن بما هو أكثر من قلب الرجل، إنهن يبغين كل فكرة أيضاً. بالنسبة للسيدة كلايس، فإن عدم معرفة شيء من العلوم التي يهتم بها زوجها قد ولّد في نفسها غيظاً أكثر عنفاً من ذلك الناتج عن جمال منافسة لها، فصراع امرأة مع امرأة يترك لتلك التي تحبّ أكثر ميزة أن تحبّ أفضل، لكن ذلك الغيظ كان يسجّل عجزاً ويذلّ جميع العواطف التي تساعدنا على العيش. إنّ جوزفين لاتلمّ بالعلم! وجهلها يضعها في حالة تبعدها

(١) في العام ١٨١٥ راجت شائعات مفادها أن برزليوس في استوكهولم وداڤي في لندن قد توصلا في آن معاً إلى تحليل الآزوت، ووجدا أنه يتألف من ٤٥٪ من غاز لهوب و ٥٥٪ اوكسجين، وهذا ما ردّد صداه بلزاك هنا، لكن التطورات العلمية أفادت أن لاصحة لذلك، وأن الآزوت غاز بسيط.

عن زوجها، عدا عن عذاب أخير هو الأكثر شدّة، فهذا الزوج غالباً بين الحياة والموت، إنّه معرّض للخطر، بعيداً عنها وقريباً منها دون أن تتمكن من أن تشاركه مجازفته أو أن تتمكن من معرفتها، فكأنها في جحيم، في سجن معنًى لامنفذ منه، ولا أمل بالنجاة؛ وقد أرادت السيّدة كلايس أن تتعرف على الأقل على جوانب هذا العلم، فأخذت تدرس سرّاً الكيمياء في الكتب؛ وهكذا أصبحت هذه العائلة وكأنها في دير حبيس.

هكذا كانت التغيرات المتتابعة التي مرّ بها الشقاء الذي حلّ على بيت كلايس قبل أن يؤدي بهم إلى نوع من موت مدني أصاب العائلة في الفترة التي تبدأ بها هذه الرواية.

تعقّد هذا الوضع العنيف، فالسيدة كلايس كجميع النساء المشبوبات العاطفة تتميّز بترفّع خارق؛ ومن يحبّ بصدق يعرف أن لاقيمة للمال تجاه العواطف ويعرف بأية صعوبة يجمّع. غير أن جوزفين لم تتمكن أن تتقبل إلا بانفعال قاس خبراً وصلها بأن زوجها مدين بمبلغ ثلاثمئة فرنك لقاء رهن عقاراته، لكن صحة العقود أكّدت الشكوك والإشاعات وتخمينات أهل المدينة، وما أن أنذرت السيدة كلايس حتى اضطرت، رغم إبائها، أن تسأل موثّق عقود زوجها وأن تكشف له أسرار آلامها أو تدعه يخمّنها، وأن تسمع أخيراً هذا السؤال المذلّ:

«كيف ألم يخبرك السيد كلايس حتى الآن بذلك؟»، لحسن الحظ كان موثق عقود كلايس قريباً له، وهذه القرابة ناتجة عن أن جدّ كلايس قد تزوج فتاة من عائلة بييركين آنفر وهي ذات عائلة بييركين دواي؛ ومنذ هذا الزواج فإن هؤلاء، بالرغم من أنهم غرباء عن آل كلايس يعاملونهم كأولاد عمومة؛ والسيد بييركين، وهو شاب في السادسة والعشرين من العمر حل محل أبيه في وظيفته. كان الشخص الوحيد الذي يستقبل في منزل كلايس. ولمّا كانت السيدة كلايس تعيش منذ عدة شهور في عزلة تامة، اضطر الموثق أن يؤكد لها خبر الكارثة المالية التي أصبحت معروفة في المدينة، وقال إنّ زوجها مدين على الأرجح

بمبالغ معتبرة للبيت التجاري الذي يؤمن له المواد الأولية الكيميائية؛ إذ أنه بعد أن تحرّى عن ثروة ومقام السيد كلايس، أخذ يتقبّل طلباته ويؤمن له إرسالها، دون قلق، رغم كِبَر اعتماداتها. كلّفت السيدة كلايس بييركين أن يطلب كشفاً بالطلبيات المرسلة لزوجها؛ وبعد شهرين من ذلك أرسل السيدين بروتز وشيفرڤيل حساباً نهائياً مقداره مئة ألف فرنك وقد درس السيد بييركين والسيدة كلايس هذه الفاتورة بدهشة متزايدة؛ وإذا كانت كثير من المفردات المعبّر عنها علمياً أو تجارياً مُبهمة بالنسبة لهما فإنهما قد ذعرا لورود كميات من المعادن والجواهر من جميع الأصناف، لكن بكميات صغيرة جداً؛ وكان من السهل تفسير مبلغ الديون بتعدد المواد المطلوبة، والاحتياطات التي يجب اتخاذها لنقل بعضها، أو لإرسال بعض الأجهزة الثمينة، أو لارتفاع سعر بعض المنتجات التي لايمكن الحصول عليها إلا بصعوبة أو أن ندرتها تجعلها غالية الثمن، وأخيراً لارتفاع كلفة بعض الأدوات الفيزيائية أو الكيميائية المصنّعة خصيصاً وفق تعليمات السيد كلايس. قام موثق العقود، حرصاً منه على مصلحة قريبه، بالاستعلام عن بروتز وشيفرڤيل وقد طمأنته نزاهة هذين التاجرين عن صحة العمليات التجارية الجارية مع السيد كلايس، عدا عن أنهما كانا غالباً ما يطلعانه على النتائج التي حصل عليها كيميائيو باريس لتجنيبه بعض النفقات.

رَجَبَتَ السيدة كلايس أن يكتم عن مجتمع دوي طبيعة هذه المقتنيات التي يمكن أن تنسب إلى الجنون، لكن بييركين أجابها بأنه قد أخّر حرصاً منه على عدم النيل من التقدير الذي يحظى به كلايس، الالتزامات العقدية التي تتطلبها أهمية المبالغ المقدّمة من الدائنين على أساس الثقة، وكشف عن فداحة الجرح، معلناً لقريبته بأنها إن لم تتدارك وسيلة لمنع زوجها من انفاق ثروته بمثل هذا الجنون، فإن أملاك العائلة ستغدو خلال ستة أشهر مرهونة على مبالغ تفوق قيمتها؛ وأضاف أن ملاحظاته هذه التي سبق أن أبداها لكلايس قريبه، مع التحفظ الواجب اتخاذه أمام رجل في مقامه، لم تؤد إلى أيّة نتيجة، إذ أن بلتزار

أجابه جازماً بأنه يعمل لفخار وغنى عائلته؛ وهكذا فقد انضمت إلى هموم القلب التي تحملتها السيّدة كلايس خلال سنتين، وكأن كل منها يُضافُ إلى الآخر ويزيد ألم اللحظة الحاضرة عن الآلام التي سبقتها، انضمت خشية مرعبة ومستمرة جعلت المستقبل أمامها رهيباً. إن للنساء هواجس تعتبر صحّتها من قبيل الخوارق. لماذا يرتعشن بشكل عام، أكثر مما يؤمّلن عندما يتعلق الأمر بمصالح الحياة؟ لماذا لايؤمن إلا بأفكار المستقبل الديني الكبيرة؟ لماذا يخمّن بمهارة قصوى النكبات المالية أو أزمات مقاديرنا؟

ربّما تجعلهن العاطفة التي توحدهن مع الرجل الذي يحببن أكثر قدرة على وزن القوى، وتقدير الإمكانات، ومعرفة الأذواق، والأهواء، والرذائل، والفضائل. إن الدراسة المستمرة لهذه الأسباب التي يجدن أنفسهن أمامها دون انقطاع، تعطيهن بلا شك القدرة الحاسمة على توقع نتائجها في جميع الحالات الممكنة؛ ومايرينه في الحاضر يجعلهن يحكمن على المستقبل بمهارة تفسّر طبيعياً بكمال جهازهن العصبي الذي يتيح لهن التقاط أدقّ تشخيصات الفكر والعواطف، فكل شيء يهتز متناغماً مع الصدمات المعنوية الكبرى، فهن يشعرن أو يرين.

أحسّت السيدة كلايس، بالرغم من انعزالها عن زوجها منذ سنتين، بضياع ثروتها. لقد قدّرت الحماس الواعي والمثابرة الثابتة في بلتزار؛ فإن كان صحيحاً أنّه يفتش عن الذهب، فيجب أن يلقّم ببرودة تامة بوتقته آخر قطعة خبز لديه. لكن عمّا يفتش؟.

كانت عاطفة الأمومة والحبّ الزوجي حتى الآن مختلطين في قلب تلك المرأة، بحيث أن أولادها المحبوبين منها ومن زوجها لم يقفوا أبداً حائلاً بينهما. لكنها فجأة أخذت تحسّ أحياناً بأنها أمّ أكثر منها زوجة، بينما كانت سابقاً زوجة أكثر منها أمّاً على الأغلب. بيد أنّها مهما كانت مستعدة لتضحي بثروتها وحتى بأولادها من أجل سعادة من اختارته، وأحبته وعبدته، وهي ماتزال المرأة الوحيدة التي له في العالم، لكن تأنيب الضمير الذي سبّبه لها ضعف حبّها

الأمومي قد رمى بها بين خيارات رهيبة؛ فهي كامرأة تتألم في قلبها، وكأمّ تتألم في أطفالها، وكمسيحية تتألم لأجل الجميع. إنّها تصمت وتحتوي هذه العواصف القاسية في روحها؛ فزوجها وهو الحكم الوحيد على مصير عائلته، هو السيّد في تنظيم القدر الذي يرتئيه لها، وليس مسؤولاً في ذلك إلا أمام الله.

من جهة أخرى، هل يمكنها أن تلومه على استخدام ثروته بعد الترفّع الذي أبداه خلال عشر سنوات من الزواج؟ وهل هي حكم على نواياه؟ لكن وجدانها المنسجم مع العاطفة والقوانين كان يقول لها: «إنّ الأهل مؤتمنون على الثروة وليس لهم الحق أن يستلبوا سعادة أبنائهم الماديّة.

لقد فضلت، كي لاتحلّ هذه القضايا العصيّة، أن تغلق عينيها، على عادة الأشخاص الذين يرفضون رؤية الهوّة التي يعرفون أنهم يكادون ينحدرون إليها.

منذ ستة أشهر لم يقدّم لها زوجها المال اللازم للإنفاق على المنزل، فأرسلت من يبيع سراً في باريس حلّي الألماس الثمينة التي أهداها إليها أخوها يوم زواجها، واتبعت سياسة التقتير الشديد في إدارة المنزل، فصرفت مربية الأولاد، وحتى مرضعة جان.

كان ترف العربات، في السابق، غير سائد لدى الطبقة البورجوازية المتواضعة في تقاليدها، والفخور بعواطفها في آن معاً، لذلك لم يكن في منزل كلايس مكان مهيّأ لهذا الابتكار الحديث، وقد اضطر بلتزار لإقامة اسطبله ومرأب عرباته في منزل مقابل لمنزله، وقد شغلته اهتماماته عن الإشراف على هذا القسم من الشؤون البيتية التي تتعلق بشكل رئيس بالرجال، لذلك حذفت السيدة كلايس النفقة الكبيرة لهذه التجهيزات والعاملين بها الذين جعلتهم عزلة العائلة بدون فائدة لها، وبالرغم من صلاح هذه الأسباب فإنها لم تجرّب أبداً أن تجد لها الذرائع، إذ أن الوقائع حتى الوقت الحاضر، كانت تكذّب كلماتها، فالصمت من الآن فصاعداً هو الأكثر ملائمة، فتغيّر أسلوب العيش لدى آل كلايس يصعب تبريره في بلاد كهولندة يعتبر من ينفق فيها كامل دخله مجنوناً. لكن جوزفين، وقد قاربت ابنتها البكر مرغريت على بلوغ ربيعها السادس عشر،

أرادت أن تقوم بترتيبات تهيء للعائلة مصاهرة لائقة وأن تظهر ابنتها في المجتمع بما يناسب فتاة تنتمي إلى آل موالينا، وفون أوستروم ـ تمنينك، وكازا ـ ريال. انَّما دراهم مبيع حلي الألماس كانت قد نفدت قبل أيام من إجراء هذه الترتيبات، وفي هذا اليوم، التقت السيدة كلايس عند الساعة الثالثة، وهي ترافق أولادها إلى صلاة العصر بالسيد بييركين الذي كان متوجهاً لرؤيتها فرافقها حتى كنيسة القديس بطرس وهما يتحدثان بصوت منخفض عن وضعها المالي.

قال: «يابنة العم، يجب دون إساءة تقدير للصداقة التي تربطني بعائلتكم ألا أخفي عنك الوضع الحرج الذي أنتم فيه، وأن تبحثيه بجديّة مع زوجك. من يتمكن غيرك أن يوقفه عن السقوط في الهاوية وأنتم الآن على حافتها. إن مداخيل الأملاك المرهونة لاتكفي أبداً لدفع فوائد المبالغ المقترضة، قد يكون المخرج الوحيد المتبقي لكم لانقاذكم من الوضع الحرج في المستقبل، بعد أن أصبحتم بدون أي دخل، في قطع أخشاب الغابة التي تملكونها. إن ابن العم بلتزار مدين حالياً بمبلغ ثلاثين ألف فرنك لمتجر بروتز وشيفرفيل في باريس، فمن أين ستدفعونها؟ وكيف ستعيشون؟

وماهو مصيركم إذا استمر كلايس في طلب المفاعلات، والزجاجيات، وأبيال فولطا، وأمثال هذه الترّهات. إنّ جميع ثروتكم، باستثناء المنزل والأثاث قد تشتّتت بين الغاز والفحم، لقد وصل الوضع قبل البارحة إلى رهن المنزل. هل تعلمين جواب كلايس عند ذلك؟ لقد بدرت منه لأول مرة منذ ثلاثة سنوات أوّل بادرة تعقل عندما هتف مستنكراً «ياللشيطان!»

ضغطت السيدة كلايس بألم على ذراع بييركين، ورفعت عينيها إلى السماء وقالت: «لنحتفظ بسرّ هذا الوضع».

لم تتمكن المرأة المسكينة، رغم إيمانها، وقد هدّتها هذه الكلمات بوضوحها الصاعق، أن تتبع صلاتها المعتادة فبقيت على كرسيها بين أولادها، وقد فتحت سواعيتها[1] دون أن تقلب صفحة منها. لقد راحت في تأمل شاغل

(١) سواعيه: هو كتاب الطقوس الدينية المتبع في الصلاة لدى المسيحيين ويسمى أيضاً «الاورلوجيون»

مماثل لما يستغرق فيه زوجها من أفكار؛ فالشرف الاسباني والاستقامة الفلمندية أخذا يرنان في أعماقها بأصوات أقوى من نغمات أرغن الكنيسة، ومسبّبات دمار أبنائها متجلية ويجب عدم التردد بين مستقبلهم وكرامة والدهم. صراع مرتقب بينها وبين زوجها أرعبتها ضرورته، فقد كان في عينيها على قدر من الكبر والمهابة بحيث أنّ منظور غضبه وحده يهزّ مشاعرها كأنه مستمدٌّ من العزة الالهية. عليها إذاً أن تتخلص من هذا الخضوع المستمر الذي انقادت إليه كزوجة بشعور قدسي، فمصلحة أولادها تلزمها على أن تعاكس أهواء الرجل الذي تهيم به. ألا يجب إعادته إلى القضايا الواقعية عندما يحلّق عالياً في آفاق العلم، ألا يجب أن يوقظ بشدة من تخيلات مستقبل زاهر ليغوص في مادية الحاضر في أقبح ماتظهر به في نظر الفنانين وعظماء الرجال. إن بلتزار كلايس في نظرها نابغة في العلم ورجل مهيّأ للأمجاد، ولايمكن أن يكون قد نسيها إلا سعياً وراء آمال عريضة، ومن ثمّ فهو عميق الرشاد، وقد سمعته يتكلم بموهبة رائعة في قضايا متنوعة، بحيث يجب الاقتناع بأنه مدرك برصانة لقوله أنه يعمل لمجد وثروة عائلته

إن حبّ هذا الرجل لزوجته وأطفاله ليس واسعاً فقط، إنّما لا حدود له؛ وهذه العواطف لايمكن أن تزول، بل انها دون شك قد كبرت إنّما متغيرة إلى شكل آخر؛ وهي على نبلها، وشهامتها، ووجلها، ستذهب لتردّد دون انقطاع. في أذني هذا الرجل الكبير كلمة المال، وصوت المال وتظهر له جروح الشقاء وتسمعه أصوات الشؤم، بينما هو منصرف لسماع نغمات الشهرة الشجيّة.

أتكون المحبّة التي يكنّها بلتزار لها قد نقصت؟ لو لم يكن لديها أولاد لتقبلّت بشجاعة وسعادة المصير الجديد الذي أوصلها زوجها إليه؛ فالنساء اللواتي تربين في الرخاء يشعرن بسرعة بالفراغ الذي تملؤه المباهج الماديّة وعندما يهتدي فيهن القلب، الأكثر تعباً منه ذبولاً، إلى سعادة يمنحها عوض ثابت في العواطف الحقيقية، فإنهن لايتراجعن أبداً أمام ظروف عيش هزيل إذا كانت تناسب الشخص الذي يعرفن أنّه يكنُّ لهن الحبّ؛ فأفكارهن ومسرّاتهن

يرضخن لنزوات تلك الحياة الخارجة عن حياتهن؛ فالمستقبل المرعب بالنسبة لهن هو خسارة تلك الحياة. في هذه الفترة إذاً، فإن أولاد پيپيتا يبعدونها عن حياتها الحقيقية كما يبعد العلم بلتزار كلايس عنها؛ وهكذا عندما عادت من صلاة العصر، وارتمت على أريكتها، صرفت أولادها عنها طالبة منهم المحافظة على الهدوء التام، ثم أرسلت تستدعي زوجها لرؤيتها، وبالرغم من أن لمولكينيه الوصيف العجوز قد ألح عليه محاولاً إخراجه من خبره، فإن بلتزار بقي فيه؛ وبذلك تسنى للسيدة كلايس الوقت للتفكير، فبقيت بدورها شاردة دون أن تنتبه للساعة أو لمرور الزمن أو انقضاء النهار؛ ففكرة استحقاق ثلاثين ألف فرنك، وعدم القدرة على تسديدها، قد أيقظت آلامها الماضية وضمّتها إلى آلام الحاضر والمستقبل. هذه الكتلة من المصالح، والأفكار، والأحاسيس هبطت عليها وهي ضعيفة جداً، فانخرطت في البكاء.

عندما رأت بلتزار يدخل، بدت لها سحنته أكثر رهبة، وأكثر استغراقاً، وأكثر شروداً من أي وقت مضى، وعندما لم يتوجّه إليها بكلمة بقيت في البدء مسحورة بجمود هذه النظرة البيضاء الفارغة، وبجميع الأفكار المضنية التي تقطرها جبهته العريضة. لقد تمنّت الموت تحت تأثير هذا الشعور وعندما سمعت هذا الصوت اللامبالي يعبّر عن رغبة علمية في اللحظة التي يكاد فيها قلبها ينفطر، استردت شجاعتها وصممت أن تصارع هذه القوة المروّعة التي أغوت لها حبيباً، واختطفت من أولادها أباً، وضيّعت على البيت ثروة، وحرمت الجميع من السعادة؛ غير أنّها لم تستطع كبح الاضطراب المستمر الذي يهزّ كيانها، إذ أنها لم تصادف، في حياتها، مثل هذا الموقف الصارم، ألا تحتوي هذه اللحظة الرهيبة ضمناً على مستقبلها؟ ألا يختصر بها الماضي بكامله.

إن الأفراد الضعفاء، أو الأشخاص الخجولين، أو أولئك الذين تزيد حيوية حساسياتهم من أتفه صعوبات الحياة، الناس الذين تنتابهم رعشة لا إرادية أمام من يتحكمون بمصائرهم، هؤلاء جميعاً يمكنهم الآن أن يتصوروا آلاف الأفكار التي تدور في رأس تلك المرأة، والعواطف التي رزح قلبها تحت وطأتها،

عندما رأت زوجها يتوجّه بهدوء نحو باب الحديقة. إن معظم النساء يعرفن القلق الذي تتخبط فيه السيدة كلايس في مداولتها الباطنة، حتى اللواتي لم يخفق قلبهن بشدّة إلا ليعلن لأزواجهن بعض اسراف في النفقات أو بعض ديون عليهن لبائعات الأزياء يدركن كم يجب أن يشتد وجيب القلب عندما يكون الموضوع متعلقاً بالحياة ككل. إن للمرأة الجميلة جاذبية وهي تلقي بنفسها على قدمي زوجها، وهي تجد في أوضاع الألم وسائل فعالّة، بينما شعور السيّدة كلايس بعيوبها الجسمية يزيد من مخاوفها، وهكذا فعندما رأت بلتزار مزمعاً على الخروج كان ردّ فعلها الأول أن تندفع نحوه، لكن فكرة قاسية كبحت اندفاعها، فعزمت على أن تقف منتصبة أمامه! إذ يجب ألا تبدو مثيرة للسخرية أمام رجل، لم تعد تستميله إغراءات الحب، وعليه أن يرى الأمر بشكله الصحيح، إن جوزفين تفضل أن تخسر كل شيء الثروة، والأولاد، ولاينال الوهن قوّة المرأة فيها، وأرادت أن تبعد كل ظرف سيء في هذه الساعة الحاسمة، ونادته بصوت قوي: «بلتزار؟».

التفت بلتزار بحركة آلية وسعل، ودون أن يعير امرأته التفاتة، ذهب يبصق في إحدى هذه العلب الصغيرة المربّعة الموضوعة بين مسافة وأخرى من الخشب المغطى للجدران، كما هو الأمر في جميع بيوت هولاندة وبلجيكة. إنّ هذا الرجل، الذي لم يعد يفكر بإنسان، لم ينس أبداً المباصق لشدّة تمكّن هذا التقليد، أما جوزفين المسكّينة فكانت غير قادرة على أن تأخذ بالاعتبار هذه التوافة، والاهتمام الزائد الذي كان يبديه زوجها بالأثاث سبّب لها قلقاً لايحتمل، لكنه في هذه اللحظة كان من العنف بحيث خرجت عن طورها، فصرخت في وجهه بلهجة مليئة بنفاذ الصبر تتجلى فيها كلّ عواطفها المجروحة: «استمع أيّها السيد إنني أكلّمك!» -

- ماذا يعني هذا؟! أجاب بلتزار وهو يلتفت بشدّة ويوجه إلى امرأته نظرة تجدّدت فيها الحياة وبدت لها وكأنها وقوع صاعقة.

- «عذراً ياصديقي» قالت وقد شحب لونها، وأرادت النهوض ومدّت له يدها لكنها سقطت متهالكة وقالت بصوت متهدّج تخنقه العبرات «أكاد أموت!».

في تلك اللحظة، انتاب بلتزار، كجميع شاردي الذهن، ردّ فعل عنيف، وخمن إن صحّ التعبير سرّ هذه الأزمة، واحتضن سريعاً السيدة كلايس بين ذراعيه، وفتح الباب المطلّ على المدخل الصغير واجتاز بسرعة سلّم الخشب القديم بحيث علق ثوب زوجته بشدق تمثال وحش تاراسكوني من التماثيل المشكلّة للدرابزين فبقي منه عليه شريط طويل تمزّق محدثاً جلبة كبيرة، وفتح بركلة من قدمه باب الرواق المفضي إلى جناحيهما لكنه وجد غرفة زوجته مغلقة.

وضع بهدوء جوزفين على مقعد طويل وهو يتساءل: «ياالهي أين المفتاح؟»

- شكراً ياصديقي، هذه هي المرّة الأولى منذ زمن طويل، التي أشعر فيها انني جدّ قريبة من قلبك» قالت السيدة كلايس وهي تفتح عينيها.

- بحقّ الإله! أين المفتاح؟ هوذا خدمنا آتون، صرخ كلايس.

أشارت له جوزفين بأن يأخذ المفتاح المعلق بشريطة مدلاّة في جيبها. بعد أن فتح بلتزار باب الغرفة وضع امرأته على أريكة عريضة فيها وخرج ليمنع الخدم المذعورين من الصعود، معطياً الأمر بأن يجهّزوا مائدة العشاء بسرعة، ثم عاد متعجّلاً لقرب زوجته.

، «مالك، ياحياتي العزيزة؟» قال وهو يجلس قربها ويأخذ يدها مقبلاً.

- لاشيء أبداً الآن، فأنا لم أعد أتألم، إنما أود لو يمنحني الاله القدرة على أن أضع أمام قدميك كل ذهب الأرض.

- «ولماذا الذهب؟» سألها وهو يضمّها إليه ويقبل من جديد جبينها ثم استأنف قائلاً: « ألا تعطيني أكبر الثروات بهذا الحبّ الذي تمنحينه لي أيتها المخلوقة العزيزة الغالية»

- آه، يابلتزاري، لماذا لاتبعد القلق عن حياتنا جميعاً، كما تبعد الآن بصوتك الحزن عن قلبي. أخيراً، أنا أرى، هاقد عدت كما أنت.

- عن أي قلق تتحدثين ياعزيزتي.

ـ لكن، لقد حلّ بنا الافلاس، ياصديقي!.

ـ «الإفلاس» ردّد، وهو يضحك. ثم أخذ يد زوجته بين يديه. وقال بصوت عذب لم يُسمع منه منذ مدة طويلة: «لكن غداً، ياملاكي، ستكون ثروتنا على الأرجح بدون حدود. فالبارحة وأنا أبحث عن أسرار في غاية الأهمية، أعتقد أنني توصلت إلى طريقة لبلورة الكربون، العنصر المؤدّي إلى الإلماس ...آه يازوجتي العزيزة! ... خلال بضعة أيام ستغفرين لي ذهولي. يبدو لي أنني أشرد أحياناً، ألم أكن فظاً معك منذ لحظة؟ كوني متسامحة مع رجل لم ينقطع عن التفكير بك، وجميع اعماله مليئة بك، بنا

ـ كفى. كفى، سنتحدث عن كل ذلك هذا المساء، ياصديقي، لقد كنت أعاني من فرط الألم، وأنا أعاني الآن من فرط السعادة».

لم تكن تنتظر أن ترى مجدداً هذا الوجه وقد أشرق بعاطفة مليئة بالحنان الذي عرفته فيه سابقاً، وبسماع هذا الصوت الذي مايزال على عذوبته السابقة، وأن تستعيد مجدّداً كلَّ الذي خيّل إليها أنّها فقدته.

«هذا المساء، كم أرغب أن نتسامر، فإن استغرقت في بعض تأملات، أرجو أن تذكريني بهذا الوعد. أريد هذا المساء أن أتخلّى عن حساباتي، وأعمالي، وأغرق في مباهج العائلة، وفي شهوات القلب، إذ أنني بحاجة لها يابيبتا، ومتعطش لتجديدها.

ـ ستقول لي عمّا تبحث يابلتزار؟

ـ لكنك ياطفلتي المسكينة لن تفهمي شيئاً من ذلك

ـ أتظن؟ ايه ياصديقي، هوذا قد مضت أربعة أشهر وأنا أدرس الكيمياء لأتمكن من التداول معك. لقد قرأت فوركروا، ولافوازيه، وشابتال، ونوله، ورويل، وبرتوله، وغي لوساك، وسبالانزاني، ولوڤنهوك، وغالفاني، وفولطا، أخيراً جميع الكتب المتعلقة بالعلوم التي تعبدها. هيا، يمكنك أن تصارحني بأسرارك.

ـ «أوه! إنّك ملاك، سنتفاهم على كل شيء» هتف بلزاك وهو يسند رأسه إلى ركبتي زوجته ويذرف دموع الحنان التي جعلتها ترتعش انفعالاً وتقول: «آه

إنني أرمي بنفسي في النار التي تؤجج جحيم أفرانك لأسمع هذه الكلمة ولأراك هذه الرؤية».

عند سماعها وقع خطوات ابنتها في الرواق انطلقت إليها بحيوية متسائلة: «ماذا تريدين يامرغريت؟».

- أمي العزيزة، لقد وصل السيد بييركين، فإن كان سيبقى على العشاء، فيجب وضع غطاء على المائدة، وقد نسيت أن تعدّي ذلك هذا الصباح.

أخرجت السيّدة كلايس من جيبها مجموعة مفاتيح صغيرة أعطتها لابنتها مشيرة إلى الخزائن المصنوعة من خشب الجوز والمصفوفة قرب جدار الرواق قائلة لها: «خذي عن يمين الخزانة أحد أغطية غراندروج[1]، يابنتي» ثم عادت السيدة كلايس إلى زوجها وقد ارتسمت على محياها بسمة تعبير ساخر عذبة وقالت «بما أن عزيزي بلتزار قد عاد إليّ هذا اليوم فأعطني إياه كاملاً، ياصديقي اذهب إلى جناحك وتلطّف بتغيير ثيابك، فلدينا بييركين على العشاء، هيّا تخلَّ عن هذه الثياب الممزقة، انظر ألا ترى هذه البقع؟ أليس ما يحيط بهذه الثقوب من اصفرار ناتجاً عن الحمض المورياتي[2] أو عن حمض الكبريت. أراد بلتزار أن يمرّ إلى غرفته عبر الباب المشترك بينها وبين غرفة زوجته لكنه وجده مقفلاً وفاته أنه قد أجرى هذا الإقفال بنفسه ومن جهة غرفته، فخرج عبر الرواق.

نادت السيدة كلايس ابنتها قائلة: «مرغريت، ضعي الغطاء على هذا المقعد، وتعالي لتساعديني في ارتداء ثيابي، فأنا لا أريد أن استدعي مارتا الآن» كان بلتزار قد التقى بابنته، وضمّها إليه بحركة فرحة وهو يقول لها: «ليكن يومك سعيداً يابنتي، كم انت جميلة في هذا الثوب من الموسلين وهذا الزنّار الوردي» ثم قبلها على جبينها وشدّ على يدها.

هرعت الابنة إلى أمها قائلة: «ماما، لقد قبّلني أبي، وهو يبدو شديد الغبطة، في كامل السعادة».

---

(١) غراندورج: أحد أنواع الأقمشة المقلّدة «للدمشقية» التي كانت تصنع في الفلاندر وبيكاردية على اسم صانعها غراندروج.
(٢) الاسم القديم لحمض الكلور.

- يابنتي، إن والدك رجل عظيم، هاقد مضت ثلاث سنوات وهو يعمل لمجد هذه العائلة وثروتها، ويبدو أنه قد توصل إلى نتائج محقّقة لأهداف ابحاثه. فهذا اليوم بالنسبة لنا جميعاً يوم عيد سعيد.

- كان جميع الخدم مكتئبين لرؤيته في عبوس دائم، ياأمي العزيزة، والغبطة تشمل الجميع الآن، فهيّا ضعي إذا زناراً آخر غير هذا الحائل اللون.

- ليكن، لكن لنسرع، فأنا أريد التحدّث مع بييركين، فأين هو؟

- إنه في غرفة الجلوس يداعب جان.

- وأين غبرييل وفليسيا؟

- إنني اسمع جلبتهما في الحديقة.

- حسن، اسرعي بالنزول وحذّريهما من قطاف الخزامى، فوالدك لم يشاهد إزهارها هذه السنة حتى الآن، وقد يرغب بمشاهدتها هذا المساء بعد الانتهاء من العشاء، اطلبي من مولكينيه أن يوافي والدك بكل مايحتاج إليه لتغيير هندامه.

بعد أن خرجت مرغريت، القت السيدة كلايس نظرة على ولديها من نوافذ الغرفة المطلّة على الحديقة، ورأتهما مشغولين بالنظر إلى إحدى هذه الحشرات ذات الأجنحة الخضراء اللماعة والمبقعة التي تسمى بالعادية «الخياطات»[1] «كونوا عاقلين ياأحبائي» قالت وهي ترفع الزجاج ذا الزلاقة الذي تركته مفتوحاً لتهوية غرفتها؛ ثم قرعت بلطف على الباب الواصل مع غرفة زوجها لتتأكد بأنه لم يغب في إحدى لحظات شروده، وقالت له بعد أن لاحظت أنّه نصف عار: «لن تتركني طويلاً لوحدي مع بييركين أليس كذلك؟ ستلحق بي بسرعة» هبطت الدرج بمنتهى الرشاقة، بحيث أن الغريب الذي يسمع خطواتها لا يتبين أنّها عرجاء.

قال الوصيف الذي صادفها على الدرج: «لقد انشق ثوب سيدتي عندما حملها سيدي على الدرج، وهو طرف قماش يسهل تعويضه، لكنه كسر فكّ هذا التمثال، ولا أعرف من يمكنه إصلاحه، لقد تشوّه منظر الدرج، فهذا الدرابزين كان جميلاً جداً».

---

(١) حشرات من مغمدات الأجنحة تسمى أيضاً السرطانيات.

ـ «باه! يامولكينيه المسكين، دعه ولا ترتقه، فليس للأمر أهمية»

ـ «ماذا حدث إذا، حتى لايعتبر الأمر كارثة؟ هل توصل معلمي إلى الكشف عن **المطلق**؟» قال مولكينيه في نفسه.

ـ «طابت أوقاتك، ياسيّد بييركين» قالت السيدة كلايس وهي تفتح باب غرفة الجلوس.

هرع موثق العقود عارضاً ذراعه لتتأبطه قريبته، لكنها لم تكن تقوم بهذه البادرة إلا مع زوجها، لذلك شكرت قريبها بابتسامة وقالت له: هل أتيت من أجل الثلاثين ألف فرنك؟».

ـ نعم ياسيدتي، فقد وجدت عند وصولي إلى منزلي رسالة اخطار من متجر بروتز وشيفرفيل تفيدني بحسم ستة سندات على السيد كلايس كل منها بقيمة خمسة آلاف فرنك»

ـ «حسن، لا تتحدث بهذا الموضوع اليوم إلى بلتزار، وتعشّ معنا، وإن سألك عن سبب حضورك صدفة، فجد تعليلاً مناسباً، أرجوك، أعطني هذه الرسالة، فسأنبئه بأمرها أنا بنفسي. كل شيء على مايرام، وخلال بضعة أشهر سيسدّد زوجي على الارجح، جميع ما اقترضه». قالت هذا وهي تلحظ دهشة الموثق.

كان الموثق، وهو يستمع إلى العبارة الأخيرة المقولة بصوت منخفض، مشغولاً بالنظر إلى الآنسة كلايس العائدة من الحديقة وقد تبعها غبرييل وفليسيا وقال: «لم يسبق لي أن رأيت الآنسة مرغريت بمثل جمالها في هذه اللحظة».

كانت السيّدة كلايس قد جلست على مقعد عريض ووضعت صغيرها جان على ركبتيها، فرفعت رأسها لترمق ابنتها والموثق بنظرة لامبالية.

كان بييركين متوسط القامة معتدل الجسم، على وجهه مسحة ملاحة عادية تعبّر عن كدَر أكثر مما تعبّر عن كآبة، وعن أحلام يقظة غير محدّدة أكثر منها متأمّلة؛ إنه يبدو انساناً غير اجتماعي، لكنه نفعي مفرط في النفعية، وأكول

شره بحيث لايستطيع قطيعة المجتمع. نظرته التائهة في فراغ، ومظهره اللامبالي، وصمته المتصنّع قد تضفي عليه عمقاً ظاهرياً لكنها تحجب في الحقيقة خواءً وعدم كفاءة لموثق يهتم حصراً بمصالح الناس، لكنه مايزال شاباً ليطاله الحسد، وكان يمكن لولائه إلى آل كلايس أن يدفعه إلى تفان لاحدود له، لولا طبيعة الخجل الكامنة فيه، يتظاهر بالشهامة لكنه ينظر بعين المصلحة، وهكذا دون أن يبرّر لنفسه تغيير طرائقه، كانت اهتماماته جازمة وقاسية، وفظة، كما هي بصورة عامة اهتمامات رجال الأعمال، عندما بدا له أن كلايس على شفا الإفلاس؛ ثم غدت ودوداً، ودمثة، وشبه ذليلة، عندما توقّع نتائج سارّة لأعمال قريبه. كان يرى أحياناً في مرغريت كلايس طفلة من غير الممكن أن يحلم بها موثق عقود إقليمي بسيط، وأحياناً يعتبرها فتاة مسكينة شدّ مايسعدها أن يتنازل ويجعل منها زوجة له. إنه رجل إقليم، وفلمندي بدون خبث، بل إنّه لايخلو من الوفاء والطيبة لكن فيه أنانية ساذجة تجعل ميزاته ناقصة، وتوافه تفسد شخصيته في هذه اللحظة تذكرت السيدة كلايس اللهجة الآمرة التي كلّمها بها الموثّق تحت رواق كنيسة سان بيير، ولاحظت التغيّر الذي أحدثه جوابها على أسلوبه وخمّنت ما يدور في خاطره، وبنظرة ثاقبة جرّبت أن تستشف ما في خلد ابنتها، وما إن كانت تفكر بهذا القريب، لكنها لم تلاحظ لديها إلا لامبالاة كاملة. وبعد فترة من الوقت دار فيها الحديث حول مايسري في المدينة من شائعات، نزل صاحب الدار من غرفته التي كانت امرأته تستمع منها بسرور لاتدري كنهه طقطقة جزمته على الأرضية الخشبية. كانت مشيته المماثلة لمشية رجل شاب خفيف الحركة تنبيء عن تحول كامل، وكان انتظار ظهوره يثير لدى السيدة كلايس اضطراباً لم تستطع خلاله أن تتحكم برعشة انتابتها عندما نزل الدرج، وظهر بلتزار عند ذاك وقد ارتدى بزّة حديثة الطراز، وانتعل جزمة ذات ثنية ملمّعة جيّدة وقد برز من أعلاها طرفا جوربين من حرير أبيض، أما سرواله فكان من كزيمير أزرق ناعم وقد زيّن بأزرار ذهبية، والصدار أبيض ذو أزهار، والسترة زرقاء، وقد كوّر لحيته، ومشّط شعره، وعطّر رأسه، وقصّ أظافره،

وغسل يديه بعناية بحيث ظهر متغيراً كلياً لمن رآه سابقاً، فبدلاً من ذلك العجوز شبه المختلّ رأى فيه الآن زوجته وأولاده وموثق العقود رجلاً في الأربعين من العمر، ذو وجه بشوش، طري، ملؤه الإغراء؛ حتى أن التعب ومظاهر الشقاء التي يفضحها ضعف قسماته والتصاق الجلد على العظم بدت لاتخلو من جاذبية.

قال بلتزار كلايس وهو يدخل: «طاب يومك يابييركين»؛ وعاد الكيميائي إلى طبيعته أباً وزوجاً فتناول طفله الأخير من حضن أمه ورفعه في الهواء ثم أنزله سريعاً، ثم رفعه ثانية وهكذا دواليك؛ وقال لموثق العقود:

« أترى هذا الصغير؟ ألا يثير منظر هذه الحلقة الجميلة الرغبة لديك بالزواج؟ ثق ياعزيزي، أن مسرّات العائلة تعزي عن كل شيء». ثم عاد إلى مداعبة ولده وهو يقول: «برّر ...بُوند ...ليضحكه.

كان الولد وهو تارة مرفوع إلى السقف، وأخرى موضوع على الأرضية الخشبية يقهقه بضحكاته الموسيقيّة، وحولت الأم ناظريها لتخفي الانفعال الذي خالجها من هذه المداعبة التي تبدو بسيطة في ظاهرها، لكنها بالنسبة إليها تتضمن تحوّلاً عائلياً كلياً.

ـ «هيا لنرى كيف تركض» قال بلتزار وهو يضع ابنه على الأرض ويذهب ليجلس على أريكة، وهرع الولد إلى أبيه وقد جذبه لمعان الأزرار الذهبية التي تعلّق السروال فوق حلقة الجزمة : «كم أنت فاتن، انك حقاً من عائلة كلايس في انتصاب مشيتك» قال الأب لصغيره وهو يقبله، ثم التفت إلى ولده البكر، وأمسك شحمة أذنه وشدّها مداعباً وهو يقول: «وأنت ياغبرييل، ماهي أخبار الأب موريون؟ هل تدافع بجرأة عن مواضيع الانشاء والترجمة لديه؟ هل تستوعب بيقظة الرياضيات؟».

ثم نهض بلتزار، وتوجّه نحو بييركين وقال له بهذه الكياسة المحبّبة التي تميّزه: «ياعزيزي،قد يكون لديك بعض ماتطلبه مني؟» وأمسك بذراعه وقاده إلى الحديقة وهو يقول: «تعال لتشاهد خزامى حديقتي؟».

كانت السيدة كلايس تتأمل زوجها وهو يخرج، ولم تستطع أن تخفي فرحتها وهي تراه مجدداً ملؤه الحيوية والبشاشة، وماعرفت فيه من طبع حسن، فنهضت وضمت ابنتها إليها وقبلتها وهي تقول لها: «ياعزيزتي مرغريت، ياابنتي العزيزة إنني في هذا اليوم أكثر حباً لك من المعتاد.

- «لم أر أبي منذ وقت طويل بمثل هذا اللطف» أجابت الابنة.

أطل لولكينيه معلناً أن مائدة العشاء جاهزة، فتأبطت السيدة كلايس ذراع زوجها سريعاً لتتجنب محاولة بييركين في أن يتقدم ليحظى بهذه المجاملة، وانتقلت العائلة بكاملها إلى غرفة الطعام.

كانت هذه الغرفة ذات سقف مؤلف من عوارض ظاهرة، لكنها مزيّنة بالألوان التي تغسل وتجدد كل سنة، وهي مجهزة بخزائن أطباق عالية من خشب السنديان ترى على رفوفها قطع آنية المائدة الموروثة المدهشة. أما الجدران فهي مكسوّة بجلد بنفسجي طبعت عليه بخطوط من ذهب مناظر صيد؛ وقد صفّت فوق هذه الخزائن بعناية والتمعت هنا وهناك ريشات طيور غريبة وقواقع نادرة. لم تكن الكراسي قد غيّرت منذ بدء القرن السادس عشر، وتبدو بهذا الشكل المربّع، وأعمدتها المبرومة، ومسندها الصغير المزيّن بقماش ذي أهداب من الطراز الذي ساد انتشاره بحيث أن رفاييل قد صوّره في لوحته **العذراء على الكرسي** لقد غدا خشبها أسود، لكن المسامير المذهبة، كانت تلتمع وكأنها جديدة وأغطيتها القماشية التي جدّدت بعناية تبدو بلون أحمر مدهش. كانت الفلاندر تنبعث هنا بكليّتها مع ابتكاراتها الاسبانية؛ والدوارق والقوارير، على المائدة، بمظهر يثير الاحترام تكسبها إياه بطونها المستديرة ذات الحنيّة القديمة؛ والأقداح من الزجاج العتيق بأعناقها العالية التي تشاهد في جميع لوحات المدرسة الهولاندية أو الفلمندية. أمّا القيشاني فهي من صلصال رملي وقد زخرفت بأشكال ملوّنة على طريقة برنار دى پاليسي[1] وهو من انتاج معمل وُدجوود[2] الانكليزي. بينما أدوات المائدة من الفضة الكتليه ذات الزوايا المربّعة المليئة بالنقوش، فضيات عائلية حقيقية، جميع القطع فيها متنوعة الحفر،

(١) برنار دي پاليسي (١٥١٠ - ١٥٩٠): خزّاف فرنسي مشهور، وعالم طبيعي وكاتب.

(٢) ودجوود (ك) (١٧٢٠ - ١٧٩٥) صاحب معامل قيشاني تميّزت بالألوان الرصينة.

والطراز والشكل، وهي شواهد على بدايات رفاهية آل كلايس وتطوّر ثروتهم والفُوَط مهدّبة على الطراز الاسباني، وغطاء المائدة ممّا يعرف الجميع أنّ آل كلايس يملكون روائع منه. هذا الطقم من أدوات المائدة والفضيّات مخصّصة للاستخدام اليومي في العائلة، وللبيت الأمامي حيث تقام احتفالات الأعياد أدوات ترفه الخاصة، فروائعه محفوظة لأيام المناسبات الرسميّة التي قد تفقد رونقها إن ابتذلت أشياؤها بالاستعمال العادي، أما في البيت الخلفي فيسود طابع الأبوة الساذج. أخيراً تفصيل شيّق يستحق أن يذكر هو أن كرمة معرّشة تمتد على طول النوافذ وتنشر طرودها إلى كل الجوانب.

«إنك أمينة على التقاليد ياسيدتي» قال بييركين وقد قدّم له صحن من الحساء المعطّر بالصعتر الذي تضع فيه ربّات البيوت الفلمنديات أو الهولانديات كرات صغيرة من اللحم المفروم المكوّر مع قطع صغيرة من الخبز المحمّص.

وتابع بييركين: «هوذا حساء يوم الأحد الذي كان يتناوله آباؤنا! إنّ منزلكم ومنزل عمي دي راكة هما المحافظان على هذا الحساء التاريخي في البلاد الواطئة. آه! أرجو المغفرة، لقد قدّمه الشيخ سافارون دي سافاروس بزهو في منزله في تورني، لكنه غاب الآن عن موائد الفلاندر كغياب مميزاتها القديمة، فالأثاث الآن يصنع على الطريقة الكلاسيكية الجديدة؛ ولا نلاحظ الخوذ والمجنّات والحراب وحزم السهام في كل مكان؛ كل يعيد بناء منزله، ويبيع أثاثه القديم، ويعيد صهر فضيّاته أو يستبدل بها فيشاني سيڤر الذي لايعادل الساكس القديم ولا الصيني آه إنني فلمندي حتى أعماق الروح. وهكذا فقلبي ينفطر عندما أشاهد النحّاسين يشترون بسعر الخشب أو المعدن أثاثنا القديم الجميل، المطعّم بالنحاس أو القصدير. لكن الحالة الاجتماعية تريد أن تغيرّ وضعها عى ما أعتقد، بما في ذلك طرائق الفن التي تتلاشى، إذ عندما يغلب الاستعجال مامن شيء يتمّ بدقّة. خلال رحلتي الأخيرة إلى باريس، ذهبت لمشاهدة لوحات الرسم المعروضة حديثاً في اللوفر، أقسم بشرفي، أنّها أقرب

إلى الستائر هذه اللوحات بدون شكل، ولاعمق، ويضنّ عليها الرسّامون بالألوان[1]، ويريدون، على مايقال أن يغيروا "مدرستنا القديمة آه، شتّان!

قال بلتزار: «إنّ رسّامينا القدامى يدرسون مختلف الاتحادات ومقاومة الألوان بتعريضها للشمس والمطر، لكنك على حق، فالاهتمامات الماديّة بلوازم الفن مهملة أكثر من أي وقت مضى.

لم تكن السيدة كلايس تهتم بهذه المحادثة، لكن سماعها مانقله موثق العقود عن أن أدوات المائدة من القيشاني سائدة الطراز أوحى إليها بفكرة التمعت سريعاً في ذهنها تتجلّى في بيع الفضيّات التي ورثتها من تركة أخيها بحيث يمكنها بثمنها تسديد الثلاثين ألف فرنك المتوجبّة على زوجها.

- قال بلتزار للموثق عندما اهتمّت السيدة كلايس بالمحادثة: «آه، آه! هل يبدو الاهتمام بأعمالي في دوي؟»،

- نعم، أجاب بيركين، كل واحد يتساءل عن سبب إنفاقك الكثير من المال، وقد سمعت البارحة الرئيس الأول في المحكمة يأسف لأن رجلاً من مقامك يسعى للكشف عن حجر الفلاسفة؛ وقد سمحت لنفسي بأن اجيب بأن ثقافتك تؤهلك للتمييز بين الممكن والمستحيل، وأن تقواك تمنعك من الاعتقاد بالقدرة على منافسة الله، كما أنك مدبّر واع ككل آل كلايس بحيث لن تستبدل بدراهمك مسحوق الدجالين السحري. غير أنني اعترف لك أنني أشارك من يأسف على انعزالك عن المجتمع، والحقيقة ياسيدتي لوتستمعين إلى المديح الذي يلهج به الجميع ثناء عليك وعلى السيد كلايس لملأك الزهو.

- لقد تصرفت كقريب طيب بنقضك هذه الإتهامات التي أقل أضرارها أن تظهرني مثيراً للسخرية. آه إن اهل دوي يظنونني مفلساً. حسن، يا عزيزي بييركين، خلال شهرين سأقيم بمناسبة الاحتفال بالذكرى السنوية لزواجي حفلة تعيد إليّ أبهتها التقدير الذي يحيط به مواطنونا الأعزاء الدراهم. شابَ الاحمرار بشدّة وجه السيدة كلايس، فهذه الذكرى السنوية قد نسيت منذ

(١) قد يكون المقصود بذلك دافيد (١٧٤٨ - ١٨٢٥) ومدرسة الكلاسيكة الجديدة.

سنتين. لقد كان مشابهاً لهؤلاء المجانّين الذين تمرّ بهم لحظات تلتمع بها قدراتهم ببريق غير معتاد، إذ لم يسبق لبلتزار أبداً أن كان بمثل هذه الرهافة في حنوّه، لقد بدا وكلّه انتباه لأولاده، وكانت محادثته ساحرة بجاذبيتها، ولطفها، وصوابها. هذه العودة إلى الأبوة، التي غابت مدة طويلة، كانت بالتأكيد أجمل عيد يمكن أن يمنحه لامرأته التي استعادت كلماته ونظراته لديها المشاركة الوجدانية الثابتة في تعبيرها من قلب إلى قلب، والتي تبرهن عن وحدة عذبة في العواطف.

بدا لمولكينيه العجوز وقد تجدّد شبابه، فهو يروح ويجيء بخفة غريبة ناتجة عن بلوغ أمانيه الكامنة مرامها، فالتغيّر الذي طرأ فجأة على تصرفات معلمه كان على أهميته بالنسبة للسيدة كلايس أكثر أهمية بالنسبة له؛ فحيثما ترى العائلة السعادة، يرى الوصيف الثروة؛ وهو بمساعدته لبلتزار في تجاربه امتدّت إليه عدوى الجنون، سواء لأنه أدرك مدى أهمية هذه الأبحاث خلال الشروح التي كانت تتفلّت من الكيميائي عندما يرى الهدف يتباعد عن مرامي يديه، أو لأن الميل الفطري للتقليد لدى الإنسان يجعله يتبنى أفكار من يعيش في جوّه. كان لمولكينيه يكنّ لمعلمه عاطفة شديدة التعلّق تختلط فيها الرهبة بالاعجاب بالأنانية، وقد كان المخبر بالنسبة إليه كما مكتب اليناصيب بالنسبة لعامة الشعب، أملاً متجسّداً، فهو في كل مساء يتراءى له قبل نومه «أن الغد قد يكون طافحاً بالذهب!» ويستيقظ في اليوم التالي وقد ازداد إيماناً عن امسه؛ وإنّ اسمه يشير إلى أصل فلمندي تماماً، فأبناء الشعب في الماضي لم يكونوا يعرفون إلا من مزاياهم الأخلاقية، ويغدو هذا اللقب اسم العائلة البورجوازية التي يؤسّسونها عند انعتاقهم. في الفلاندر كان باعة خيوط الكتان يُسمون «المولكينيه» وقد كانت هذه هي مهنة الرجل الذي انتقل وضع من القنّ إلى وضع البورجوازي من بين أجداد الوصيف العجوز دون شك، إلى أن أعادت صروف الدهر الغامضة حفيد مولكينيه إلى حالته الأولية كقنٍّ مأجور، فتاريخ الفلاندر، وخيوطه، وتجارته تختصر إذاً في هذا الخادم العجوز الذي كان ينادي غالباً

للترخيم «مـولكينيه»؛ وقد كان في طبـعه وفي سـحنتـه لايخلو مـن تفرّد: فـوجـهـه بشكله المثلث عريض ومـرتفـع وقد أعطته ندوب الجدري مظاهـر غريبة تاركة فيـه العديد من السرار البيضـاء البرّاقة. كان نحيفاً، ذا قامة منتصبة، مشيته رصينة غـامضـة. عيناه صـغيرتان برتقاليتان كالشـعـر الأصـفـر الناعم المسـتـعـار الذي يغطي رأسه؛ نظراته المنحرفة دوماً في تناسق مـع إحساس الفضول الذي يثيره؛ فهو بصفته كمحضّر مّطلع على أسرار معلمه، يحيط أعماله بكتمان يضفي عليه جاذبية، وسكان شارع باريس ينظرون إليه باهتمام تخالطه الخشية، لأن أجوبته غـامضـة دائمـاً، ومليئة دائمـاً بالكنوز، فـهو المعتز بضـرورته لمعلمه، يمارس على رفاقه نوعاً من سلطة منكّدة يستغل فيها هذه التنازلات التي تجعله نصف سيّد في المنزل؛ وبعكس الخدم الفلمنديين الشديدي التعلق ببيوت أسيادهـم، لايكنُّ أيّ ودّ إلا لبلتـزار، فـإن ألمّ كـرب بالسـيـدة كـلايس، أو طرأ حـدث يناسب مـصـلحـة العائلة، كان الأمر سيّان عنده، يأكل خبزه المدسّم بالزبدة، ويشرب جعته ببروده المعتاد.

بعد انتهاء العشـاء اقترحت السيدة كلايس تناول القـهوة في الحـديقة، أمـام دَغَل الخـزامى التي تزيّن وسطهـا، فـأصص الفـخـار التي تتـوزع فـيـهـا هـذه الأزهـار التي كتبت اسماؤهـا على ألواح من الأردواز المنقوش، قد رصفت ودفنت بالتراب بحيث شكلت هرماً تعلوه زهـرة خزامـى من نوع فم التنين يملكها بلتزار وحده وقد أطلق عليـهـا اسـم توليبا كلايسيانا Tulipa claesiana نسبة للعائلة، وهـي تضـم الألوان السبعة، وتبدو تقويراتـهـا الطويلة مذهبـة على الحـواف، وقد حـرص والد بلتـزار الذي رفض عشـرة آلاف فلورين لقـاحـهـا، أن يأخـذ كـامل الاحـتـيـاطات كي لاتسـرق بذرة من بذورهـا، وكـان يحـفظهـا فـي غـرفـة جلوسـه، ويقضـي أيامـاً كاملة في تأملها. كان ساق هذه الزهـرة ضـخمـاً، جيد الاستـقـامة، مـتيناً، ذا خضـرة رائعة، وكانت أقسـام النبتـة تتناسـب بتوافق تام مع تويج هـذه الزهـرة الذي يتـمـيـز بصـفـاء براق في الألوان مما جـعل منذ القـدم ثمـن هـذه الأزهـار المترفة مـرتفعاً. «هوذا أزهـار خزامـى بقيمة ثلاثين أو أربعين ألف فرنك»!

قال موثق العقود وهو ينقل بصره بين قريبته، والدغل ذي الألف لون. كانت السيدة كلايس كثيرة الانشراح لمنظر هذه الأزهار التي تنسكب عليها أشعة الشمس فتجعلها أشبه بالجواهر، فلم تلق بالاً إلى ما تضمنّته ملاحظة الموثق من تلميح.

تابع الموثّق كلامه متوجهاً إلى بلتزار بالقول: «مافائدة هذا؟، يجب أن تبيعها»

- «ياه!، وهل أنا بحاجة إلى دراهم؟!» قال كلايس، وقد بدرت منه حركة من لايلقي بالاً إلى مبلغ أربعين ألف فرنكا».

مرّت فترة صمت لم تكن تقطعها إلاّ تعابير دهشة الأولاد:

- «انظري، ياماما، هذه الزهرة!»

- أوه، هوذا واحدة هي الأجمل!

- ما اسم هذه الزهرة؟

قال بلتزار وهو يرفع يديه بعصبية ثم يضمها بحركة قنوط: «أيّة ورطة يصعب على العقل البشري الوصول إلى نتيجة فيها: اتحاد بين الهيدروجين والاوكسجين، تتفتق عنه وفق معايرات مختلفة في الوسط نفسه، والمبدأ نفسه، هذه الألوان التي يشكل كلٌ منها نتيجة مختلفة»(١).

استمعت السيدة كلايس جيّداً إلى طرفي هذه القضية التي طرحها بلتزار بسرعة بحيث بدا من الصعب أن تلمّ بها كلية بالرغم من اقتناعه أنها تدرس علمه المفضل، ثم توجّه إليها بإشارة غامضة: «ستدركين أن من الصعب جداً استيعاب ما أعنيه!» وبدا أنه قد غاب في احدى هذه التأملات التي غدت لديه مألوفة.

قال بييركين وهو يتناول فنجان القهوة من يدي مرغريت: «أعتقد هذا» والتفت إلى السيدة كلايس هامساً: «تطردين الأمر الطبيعي فيرتد بخطا سريعة،

---

(١) هذه الملاحظات حول النباتات تعود إلى عالم النبات السويسري بيرام دي كندول الذي بدا تأثير ملاحظاته العلمية في مؤلفات بلزاك في هذه الرواية وفي «سرافيتا».

أرجو أن تتكرّمي بمحادثته عن موضوع الدين بنفسك. إنَّ الشيطان غير قادر الآن أن ينتزعه من تأملاته التي قد يستمرّ فيها حتى الغد». ثم نهض مودّعاً كلايس الذي تظاهر بأنه لم يسمعه، وقبل جان الصغير الذي كان في حضن أمّه وانسحب بعد انحناءة احترام عميقة.

التفت بلتزار إلى امرأته بعد أن أغلق الباب وأحاط خصرها بذراعه، وبدّد القلق الذي اعتراها من شروده المصطنع وهو يقول لها: «لقد عرفت جيّداً كيف جعلته ينصرف».

أدارت السيدة كلايس رأسها نحو زوجها دون أن تخجل من أن تظهر له الدموع التي ترقرقت في عينيها، فقد كانت دموع الفرح العذبة! ثم أسندت جبينها إلى كتفه وتركت جان ينزلق من حضنها إلى الأرض.

«لندخل إلى غرفة الجلوس»، قالت بعد فترة.

كان بلتزار خلال السهرة بكاملها في غبطة عارمة، فقد ابتكر ألف لعبة لأولاده، وانخرط في بعض هذه الألعاب بنفسه بحيث لم يلاحظ مغادرة امرأته لمرتين أو ثلاثة. في نحو الساعة التاسعة والنصف، بعد أن نام جان، وبعد أن ساعدت مرغريت أختها فليسيا على خلع ملابسها، وعادت لتجد أمّها جالسة على الأريكة الكبيرة، ووالدها إلى جانبها يتحدث إليها وهو يمسك بيدها؛ وخشيت أن تعكر على والديها خلوتهما، وأرادت أن تعود دون أن تكلمهما، لكن السيّدة كلايس لاحظت ذلك ونادت ابنتها «تعالي يامرغريت تعالي يابنتي العزيزة» ثم جذبتها نحوها وقبّلت بحنان جبينها وقالت لها: «خذي كتابك إلى غرفتك ونامي باكراً» وقال بلتزار «أسعدت مساءً يابنتي العزيزة»، وتقدمت مرغريت فقبّلت أباها ثم انسحبت.

بقي كلايس وزوجته لفترة من الوقت وحدهما يرقبان الألوان الأخيرة للشفق التي تتلاشى بين تفرّعات أغصان وأوراق الحديقة التي حلّت بها العتمة فلم تعد تلحظ تقاطيعها، وما أن ساد الليل حتى قال بلتزار لزوجته بصوت غلب عليه التأثر «فلنصعد».

قبل أن تجعل التقاليد الانكليزية غرفة المرأة مكاناً مقدّساً، كانت غرفة الفنلندية مكاناً عصبيّاً، فربّات المنازل في تلك البلاد لايحطن الفضيلة بالأبهة، وإنما هي عادة متأصلة منذ الطفولة، تعلق بيتي يجعل من غرفة النوم حرماً بهيّاً تسود فيه العواطف الرقيقة، وتتحد البساطة بكل ما في الحياة الاجتماعية من رقّة وقدسيّة.

في الوضع الخاص الذي كانت السيدة كلايس موجودة فيه، فإنّ أيّة امرأة تريد مثلها أن تجمع حولها الأشياء الأكثر أناقة، وقد فعلت هي ذلك، إنّما بذوق مرهف يقدر تأثير المظهر الذي يحيط بنا على العواطف. إن هذا يعد ترفاً لدى المخلوقة الجميلة، لكنه لدى السيّدة كلايس ضرورة، فهي قد أدركت مدلول هذه الكلمات «إن المرأة تخلق جمالها!» وهي حكمة وجهت جميع تصرفات الزوجة الأولى لنابوليون وجعلتها غالباً متصنّعة بينما بقيت السيدة كلايس دائماً طبيعية وحقيقية.

بالرغم من أن بلتزار كان قد عرف جيّداً غرفة زوجته، فإن نسيانه للأشياء الماديّة في الحياة وصل إلى درجة جعلته يحسّ برعدة محبّبة وكأنه يرى هذه الغرفة للمرّة الأولى؛ فالبهجة المزهوّة لامرأة ظافرة انسكبت في ألوان الخزامى الرائعة التي تسامت بأعناقها الطويلة من مزهريات البورسلين الصيني الضخمة الموزّعة بمهارة، وفي انتشار الأضواء التي لايمكن مقارنة تأثيراتها إلا بتلك التي تحدثها الجوقات الموسيقية الطروب. كان ضوء الشموع يعطي بريقاً متناسقاً لأقمشة الحرير المطعمّة بالكتان التي تجلّت رتابتها بانعكاسات الذهب الموزّع باعتدال على بعض الأثاث وباختلافات ألوان الأزهار التي تشبه مجموعات الجواهر، إنه هو سرّ هذه التجهيزات، دائماً هو ...!

لايمكن لجوزفين أن تعبّر لبلتزار ببيان أوضح بأنه هو دائماً سبب أفراحها وأتراحها، ومظهر هذه الغرفة يبهج الروح ويطرد كل فكرة كئيبة بحيث لاتبقى إلا عاطفة مفعمة بالسعادة الثابتة النقية. كان قماش الطنافس المشترى من الصين ينشر حلاوة عذبة تتغلغل في الجسد دون أن تتعبه؛ أخيراً فالستائر

المسحوبة بعناية تعبّر عن رغبة في العزلة، ورغبة خاصة في المحافظة على أدق الأصوات في الكلام، وأن تحبس هنا أنظار الزوج المستعاد.

كانت السيدة كلايس قد سرّحت شعرها الجميل الأسود الناعم وأرسلته على جانبي جبينها كجناحي غراب وقد تدثرت بمئزر يرتفع حتى العنق حيث يزينه وشاح طويل تتثنى فيه المخرّمات؛ وقد ألقت على زوجها بعد أن أنزلت السجف العازل للباب، وهو يجلس قرب المدخنة إحدى هذه النظرات المفعمة بابتسامة مرحة التي تعرف المرأة المرهفة العقل، وقد اضفت روحها مزيداً من الجمال على وجهها، كيف تعبر فيها عن آمالها التي لاتقاوم. إنّ أكبر جاذبية للمرأة تتجلّى في اعتمادها المستمر على شهامة الرجل في تصريح رقيق بالضعف تمجّده فيه، وتوقظ لديه أروع العواطف. ألا يتلاءم التصريح بالضعف مع الإغراءات الساحرة؟

عندما انزلقت حلقات السجف خفيّة على قضيبها الخشبي، التفتت إلى زوجها، واسندت يدها على كرسي، كأنها أرادت في تلك اللحظة أن تخفي عيوبها الجسديّة، فبدت حركتها اللطيفة دعوة خفيّة إلى عونها، دفعت بلتزار الغارق في تأمّل ذلك الرأس الزيتوني اللون البارز أمام خلفية رمادية تجذب النظر وتسرّه، إلى أن ينهض ليحتضن امرأته ويحملها إلى الأريكة، وكان هذا جلّ مطلبها.

قالت له وهي تأخذ يده وتحتفظ بها بين يديها المكهربتين: «لقد وعدتني أن تطلعني على سر أبحاثك، فلنتفق، ياعزيزي على أنني أهل لمعرفته، إذ أنني امتلكت الشجاعة لدراسة هذا العلم الذي أدانته الكنيسة لأتمكن من فهمك، لكنني فضولية، فلا تُخفِ عني شيئاً، لذلك حدثني أيّة صدفة دفعتك لتنهض ذات صباح وملؤك انشغال البال، بينما تركتك في العشيّة مفعماً بالسعادة؟

- ألأجل أن تستمعي إلى حديث في الكيمياء خلقت هذا الجوّ من الفتنة الساحرة؟

- ياعزيزي، أن أتلقى اعترافاً يجعلني أكثر قرباً إلى قلبك هو أكبر

المسرّات بالنسبة لي، أليس تفاهم الروح هو الذي يشمل ويولّد كل مباهج الحياة؟ لقد عاد حبك لي نقياً وكاملاً، وأريد أن أعرف أيّة فكرة سيطرت عليك فحرمتني منك طويلاً. نعم إنني أغار من فكرة أكثر من غيرتي من جميع النساء مجتمعات؛ فالحب واسع لكنه ليس بلانهاية، بينما للعالم أعماق لاحدود لها، لا أستطيع أن أراك فيها غائصاً لوحدك، إنني أكره كل ما يمكن أن يفصل بيننا. فإن حصلت على المجد الذي تسعى إليه، فسأكون تعيسة بالرغم من الغبطة العارمة التي سترفل بها، فأنا وحدي ياسيدي من يجب أن يكون ينبوع سعادتك.

- كلا، ياملاكي، لم تكن فكرة تلك التي وجّهتني الوجهة الجميلة، إنّما هو رجل.

- رجل، صاحت بذعر.

- ألا تذكرين يا ببيتا ذلك الضابط البولوني الذي آويناه لدينا في العام ١٨٠٩؟

- نعم إنني أتذكره، بل لقد عيل صبري من أن ذاكرتي تستعيد غالباً منظر عينيه الشبيهتين بلسانين من نار، وهذين الوقبين فوق حاجبيه وكأن فيهما سواد فحم جهنم، وصلعته العريضة، وشاربيه المنتصبين، ووجهه المزوّى التعب!... أخيراً الهدوء المرعب في مشيته!... ولو أن مكاناً وجد في نُزُل المدينة، لما رقد هنا بالتأكيد.

- هذا الرجل البولوني النبيل اسمه آدم ويرزشفونيا، وعندما تركتنا مساء، منفردين في غرفة الجلوس، أخذنا نتحدث صدفة عن الكيمياء، ولقد انتزعه البؤس من هذا العلم، فاضطر أن يتجنّد. أعتقد أننا بمناسبة كأس ماء محلى، تعارفنا على أننا من هواة هذا العلم، فعندما طلبت من مولكينيه أن يحضر بعض قطع السكر، بدرت من الضابط حركة تنمّ عن دهشة، وسألني هل درست الكيمياء؟ - مع لافوازييه، أجبته. - كم أنت سعيد لأنك حرّ وغني! هتف، وانطلقت من صدره إحدى هذه الزفرات التي تكشف لدى الرجال عن جحيم من

آلام مكبوتة في قحف الرأس أو حبيسة في القلب، أو بالأحرى هي شيء من لهب، أو من همّ مركز لا يستطيع الكلام التعبير عنه، وقد ختم تأمّله بنظرة جمدتني. بعد فترة صمت، أخبرني أنه لجأ إلى السويد بعد أن أصبحت بولونية شبه ميتة، ووجد في دراسة الكيمياء التي كان يشعر دائماً بميل لا يقاوم نحوها مواساة له هناك؛ ثم أضاف: «أعتقد أنك قد تعرفت مثلي على أن الصمغ العربي، والسكر والنشاء المسحوق تعطي جميعها مادة واحدة قطعاً، وفي التحليل تعطي النتيجة الكيفية ذاتها». ومرّت فترة صمت أخرى، وبعد أن تأمّلني بعين مستقصية قال لي في مسّارة وبصوت منخفض، كلمات جديّة ورسمية لم يبق في ذاكرتي منها اليوم إلا المعنى العام، لكنه أرفقها بعزم في الصوت، وبنبرات حارّة وقوة في الحركة هزت مني الصميم وضربت على موطن الإدراك كما تضرب المطرقة على حديد وضع على سندان.

إليك باختصار هذه الاستدلالات التي كانت بالنسبة لي كما الجمرة التي وضعها الله على لسان أشعيا، إذ أن دراساتي لدى لافوازييه جعلتني أشعر بمدى أهميتها، لقد قال لي: إن تكافؤ هذه العناصر الثلاثة، المتميزة في الظاهر، قد قادتني ياسيدي، إلى التفكير بأن جميع منتجات الطبيعة تعود إلى المبدأ نفسه. إن مبادىء الكيمياء الحديثة قد برهنت عن حقيقة هذا القانون، في القسم الأكثر أهمية من التأثيرات الطبيعية. إن الكيمياء تقسم الخلق إلى قسمين متميّزين: الطبيعة العضوية، والطبيعة اللاعضوية.

إن الطبيعة العضوية بشمولها جميع المخلوقات النباتية أو الحيوانية التي تظهر فيها تعضية أكثر أو أقل كمالاً، أو بمعنى أصح، قدرة مختلفة على التحرّك تحدّد فيها عواطف مختلفة، هي بالتأكيد القسم الأكثر أهمية في عالمنا؛ والواقع أن التحليل قد ردّ جميع منتجات هذه الطبيعة إلى أربعة أجسام بسيطة، ثلاثة منها غازيّة: الآزوت، والهيدروجين، والأوكسجين، وجسم آخر صلب، لامعدني هو الكربون.

بعكس الطبيعة اللاعضوية القليلة الاختلاف، المجرّدة من الحركة

والإحساس، والتي يمكن ألا نقرّ لها إمكان النمو، بالرغم من أن العالم ليّنه قد منحها شيئاً بسيطاً من ذلك. هذه الطبيعة تحوي ثلاثة وخمسين عنصراً تشكل باتحاداتها المتنوعة جميع منتجاتها. أيحتمل أن تكون الوسائل أكثر عدداً حيث تكون النتائج الأقل؟...

إن رأي معلمي القديم أن هذه الأجسام الثلاثة والخمسين لها أساس واحد، عدّله سابقاً تأثير قوّة خامدة الآن، لكن العبقرية الانسانية قادرة على إحيائها. لنتصور أن فعالية هذه القوّة قد استيقظت للحظة، إننا سنحصل عند ذلك على كيمياء موحّدة[1]، ويحتمل أن تكون الطبيعتان العضوية واللاعضوية مستندتين إلى أربعة عناصر أساسية، وإذا تمكنّا أن نفكك الآزوت الذي يجب أن نعتبره عنصراً سالباً، فلا يتبقى لدينا إلا ثلاثة عناصر. هكذا نصل إلى ثلاثية الأقدمين الشهيرة وإلى مقولة سيميائي العصر الوسيط الذين نسخر منهم خطأً. إن الكيمياء الحديثة ليست الآن إلا هذا، وهو كثير كما أنه قليل، إنّه كثير لأن الكيمياء قد ألِفَت ألا تتراجع أمام أيّة صعوبة، وهو قليل بالمقارنة مع ماتبقى ويجب فعله. لقد قدّمت الصدفة خدمة جلّى لهذا العلم الرائع! وهكذا فإن هذه الدمعة من الكربون النقي، المتبلور، وهي الألماس، تبدو وكأنها آخر عنصر يمكن خلقه. إن السيميائيين القدامى الذين اعتقدوا أن الذهب قابل للتفكك وبالتالي قابل للصنع، قد تراجعوا أمام فكرة انتاج الألماس، مع إننا قد اكتشفنا طبيعة تركيبه وقانونه. لقد ذهبت أنا إلى أبعد من ذلك! لقد قمت بتجربة برهنت لي أن الثلاثية الغامضة موضع الاهتمام منذ زمن عريق في القدم لا وجود لها في التحاليل الحاليّة التي لاتتوجّه نحو نقطة ثابتة؛ وإليك التجربة[2]:

(١) يعتمد بلزاك في سرد هذه المعلومات السائدة في عصره على ماأستمده من «لافوازيه» (١٧٤٣ ـ ١٧٩٤) العالم الكيميائي الفرنسي المشهور، وبرزيليوس (١٧٧٩ ـ ١٨٤٨) العالم الكيميائي السويدي، وبيرام دي كاندول (١٧٧٨ ـ ١٨٤١) عالم النبات السويسري، ولينه (١٧٠٧ ـ ١٧٧٨) العالم الطبيعي السويدي، وأخيراً جيرهارد(١٨١٦ ـ ١٨٥٦) الكيميائي الفرنسي.

(٢) هذه التجربة تعود إلى العالم برزيليوس.

«ابذر حبّات من الحرّف (كمثال على مادة من مواد الطبيعة العضوية) في زهر الكبريت (كمثال أيضاً على جسم بسيط). اسق البذور بالماء المقطر كي لا تدخل إلى منتجات الإنتاش أي أساس غير معروف. إن البذور تنتش وتنمو في وسط معروف متغذيّة من عناصر سبق معرفتها بالتحليل. اقطع على عدّة مرات سوق هذه النباتات إلى أن تحصل على كمية كافية لإعطائك بالحرق مقداراً من الرماد. بتحليل هذا الرماد ستجد حمض السيليس، والألومين، وفوسفات الكلس وكربوناته، والكربونات المغنيزية، والكربونات البوتاسية، والكبريتات وأوكسيد الحديد، وكأن الحُرف قد نبت في الأرض على ضفاف المياه؛ والحال أن هذه الأجسام لاتوجد لا في الكبريت، وهو الجسم البسيط الذي استخدم كتربة للنبات، ولا في الماء الذي استخدم لسقايته، والمعروف التركيب؛ وبما أنها ليست أيضاً في البذرة فلا يمكن تفسير وجودها في النبات إلا بافتراض عنصر مشترك للأجسام الموجودة في الحُرْف وفي الأجسام المستخدمة كوسط له.

هكذا فإن الهواء، والماء المقطّر، وزهر الكبريت، والعناصر التي أعطاها تحليل الحرف أي البوتاس والكلس والمغنيزيا والألومين الخ ..لها أساس مشترك منتشر في الجو كما صنعته الشمس.

من هذه التجربة غير القابلة للاعتراض استنتجت وجود **المطلق**! إنّه مادة مشتركة في جميع المخلوقات، معدّلة بقوة وحيدة، هذا هو الوضع الصريح والواضح للمشكلة التي يطرحها المطلق والتي تبدو لي قابلة للبحث، هنا ستصادف الثلاثية المبهمة التي ركعت أمامها البشرية في كل الأزمان: المادة الأوليّة، والوسيلة، والنتيجة. ستجد هذا الرقم الرهيب «ثلاثة» في كلّ شيء بشري، إنّه يهيمن على الأديان، والعلوم، والقوانين.

هنا أوقفت الحرب والشقاء أبحاثي، إنّك تلميذ لافوازييه، وأنت غني وسيد

وقـتك، يمكنني إذاً أن أطلعك على نتـائجي؛ هوذا التـعليل الذي استـشـفّه من تجاربي الشخصية: **المادّة الواحدة** هي أساس مشترك بين الغازات الثلاثة والكربون و**الوسيلة** هي الأساس المشـترك للكهربائية السالبة والكهربائية الموجبة.

إن سرت إلى اكتشاف البراهين التي تثبت هاتين الحقيقتين، فستملك الإدراك السامي لجميع تأثيرات الطبيعة.

أوه! ياسيدي، عندما نحمل هنا ـ وضرب بيده على جبهته ـ كلمة الخلق الأخيرة، مع توقّع المطلق، هل يمكن العيش بعد ذلك إلا منساقين في حركة هذه الجموع من البشر المندفعين في ساعة معيّنة كل مجموعة وراء الأخرى، دون أن يعرفوا ماذا يفعلون. إن حياتي الحالية هي عكس الحلم تماماً، إن جسدي يروح ويجيء، ويتحرك، ويدخل وسط الحديد والمدافع والرجال، ويخترق أوربة إرضاء لقدرة أطيعها مع احتقاري لها. إن روحي لاتعي أبداً هذه الحركات، فهي ثابتة، غارقة في فكرة، متخدّرة بهذه الفكرة، فكرة البحث عن المطلق؛ عن هذا المبدأ الذي يمكن فيه لبذور مماثلة تماماً، توضع في وسط واحد، فيعطي بعضها كؤيسات بيضاء، وبعضها الآخر كؤيسات صفراء؛ وهي ظاهرة تنطبق أيضاً على دود الحرير الذي يتغذّى من الأوراق نفسها، ويبدو دون أيّة فروق ظاهرة، لكن بعضه يعطي حريراً أصفر، وبعضه الآخر يعطي حريراً ابيض. أخيراً فإن هذا المبدأ يطبق على الإنسان ذاته، الذي يرزق شرعاً أولاداً مختلفين كلياً، بالرغم من أنه هو ذاته لم يتغيرّ والأم واحدة.

ألا يفرض الاستنتاج المنطقي لهذا الواقع تعليلاً بجميع هذه التأثيرات في الطبيعة؟ هيه، أي شيء أكثر مطابقة لأفكارنا عن الاله من الاعتقاد بأنه صنع كل شيء بالوسيلة الأكثر يسراً؟ ألا يلخّص الولع الفيثاغوري بالرقم «واحد» الذي تتفرّع عنه جميع الأرقام، وبالرقم «اثنين» الذي يبدأ فيه التراكم الأوليّ وهو نموذج التراكمات الأخرى، وبالرقم «ثلاثة» الذي شكّل في جميع

الأزمنة «الإله» أي المادّة، والقوّة، والناتج، ألا يلخّص تقليدياً المعرفة المبهمة للمطلق؟

إن ستاهل[1] وبيشه[2] وباراسلس[3] وأغريبا[4] وجميع الباحثين الكبار عن الأسباب السحرية، كانت كلمة السرّ لديهم «التريسمجيستا»[5] وهي تعني العظيم ثلاثاً. إنّ الجاهلين المتعوّدين على إدانة السيمياء، هذه الكيمياء السامية، لا يعرفون دون شك، أننا مشغولون بتبرير الأبحاث المتحمسة لهؤلاء الرجال العظام؛ فعند التحقق من المطلق، يجب أن آخذ بتلابيب الحركة[6]. آه! بينما كنت اتغذى بالبارود، وأوجّه الأوامر للرجال للموت عبثاً، كان معلمي القديم يجمع الاكتشافات واحداً بعد الآخر، ويطير نحو المطلق! وأنا انتظر الموت ككلب قرب بطارية مدفع.

بعد أن استعاد هذا الرجل الكبير البائس بعض هدوئه، قال لي بأخوة مؤثّرة: «إن وجدت تجربة تستحق الإجراء فسأوصي لك بها قبل أن أموت»

تابع بلتزار وهو يشدّ على يد امرأته: «إن دموع الغضب التي سالت على وجنتي هذا الرجل المخدّدتين، ياعزيزتي ببيتا، قد رمت في روحي نار هذا الاستدلال التي كان لافوازيه قد هيّأ وَقْدها دون أن أجرؤ على الانصراف الكليّ لها.

صاحت السيدة كلايس، التي لم تستطع الامتناع عن مقاطعة زوجها: «كيف تمكن هذا الرجل، بقضائه ليلة واحدة تحت سقف منزلنا، أن ينتزع منك كل مودّتنا، وأن يهدم بجملة واحدة، بل بكلمة واحدة، سعادة عائلة.

---

(١) ستاهل: (١٦٦٠ ـ ١٧٣٤): طبيب ألماني، وهو واضع نظرية الفلوجيستيك في الكيمياء، وقد نقضها لافوازيه

(٢) بيشه: (١٦٣٥ ـ ١٦٨٢): كيميائي الماني، قال بوجود أجسام غير قابلة للانقسام، وأخرى مركبة

(٣) باراسلس. (١٩٤٣ ـ ١٥٤١) طبيب سويسري اهتم باكسير الحياة وحجر الفلاسفة.

(٤) أغريبا فون نتسهم (١٤٨٦ ـ ١٥٣٥) سيميائي وطبيب، كان مستشاراً لشارل كنت

(٥) تريسمجيست: العظيم ثلاثاً، لقب كان اليونان يطلقونه على الههم هرمس.

(٦) الحركة: مثار اهتمام بلزاك في رواياته الفلسفية، ذكرها في جلد الحَبَب، وهنا في البحث عن المطلق.

آه ياعزيزي بلتزار! هل رسم هذا الرجل إشارة الصليب؟ هل تفحصته جيّداً؟ إن إبليس وحده له هذه العين الصفراء التي تنفث لهب بروميثيوس. نعم إن الشيطان وحده هو الذي تمكن من اقتلاعك مني، ومنذ ذلك اليوم، لم تعد أبداً أباً، ولا زوجاً، ولا ربّ عائلة.

انتصب بلتزار واقفاً في الغرفة ووجّه إلى امرأته نظرة ثاقبة وهو يقول: «ماذا! أتلومين زوجك لأنّه قد سما فوق جميع الرجال، ليتمكن أن يلقي تحت قدميك حلّة المجد الأرجوانية كتقدمة زهيدة أمام كنوز قلبك! إذاً أنت لاتدركين ما فعلته منذ ثلاث سنوات؟

إنها خطوات جبّارة! ياعزيزتي ببيتا»

قال هذا وقد أثير، وبدا وجهه عند ذاك لامرأته وقد تألق تحت نار العبقرية أكثر من تألقه تحت نار الحبّ وبكت وهي تسمعه يردّد: «لقد نفذت اتحاد الكلور والآزوت[1]، وحلّلت عدة أجسام اعتبرت بسيطة حتى الآن، واكتشفت معادن جديدة ... وتابع عندما رأى دموع زوجته: «بل حلّلت الدموع، هذه الدموع تحوي قليلاً من فوسفات الكلس وكلورور الصوديوم، ومادة مخاطية، وماء[2]». واستمر في الكلام دون أن يلاحظ الاختلاجات الرهيبة التي أثرت على شكل جوزفين. لقد انساق مع العلم الذي حمله بعيداً، وقد نشر جوانحه، فوق العالم المادّي.

«هذا التحليل ياعزيزتي، هو أحد أفضل البراهين على نظام المطلق. إن كل حياة تنطوي على احتراق؛ ووفق فعالية الموقد شدّة أو نقصاناً تكون الحياة أكثر أو أقلّ استمراراً، وهكذا فإن فناء الفلّز المعدني بطيء إلى مالانهاية، لأن

(١) عملية كيميائية تمكن من إجرائها دلونغ في ١٨١٢.
(٢) تحليل أجراه فوركروا وفوكلن في ١٧٩٠.

الاحتراق فيه فرضي وكامن، وغير محسوس: وهكذا فالنباتات التي تترطب دون انقطاع بالاتحاد الذي تنتج عنه الرطوبة، تعيش إلى مالانهاية، ومايزال العديد من النباتات التي عاصرت الطوفان الأخير حيّة إلى الآن؛ لكن في جميع المرات التي أتقنت فيها الطبيعة جهازاً، ووضعت فيه لسبب مجهول الإحساس أو الغريزة، أو الذكاء، وهي ثلاث درجات متميّزة في المنظومة العضوية فإن هذه العضويات الثلاث تتطلب احتراقاً تتناسب فعاليته طرداً مع النتيجة الحاصلة؛ والانسان الذي يمثّل أعلى درجة من الذكاء وهو رمز الجهاز الوحيد الذي ينتج قدرة نصف خلاّقة تتجلّى في الفكر، هو بين الكائنات الحيوانية، المخلوق الذي يصل فيه الاحتراق إلى الدرجة الأكثر شدّة والذي تبدو آثاره القوية منكشفة إلى حدّ ما بالفوسفاتات، والكبريتات والكاربونات التي تنتج عن جسده وتكشفها تحاليلنا. أليست هذه المواد هي الآثار التي تتركها فعالية السيّالة الكهربائية، أساس كل خصوبة؟

ألا تظهر الكهربائية فيه باتحادات متنوّعة أكثر منها في أيّ حيوان آخر؟ أليست لديه قدرات أكبر منها في أي كائن آخر ليمتصّ النصيب الأشدّ من كنه المطلق، ويتمثله ليركب منه في أكمل ماكنة قوّته وأفكاره! أعتقد ذلك. إن الإنسان قُربةٌ، وهكذا ففي رأيي[1] إن الأحمق هو من يحوي دماغه أقل نسبة من الفوسفور أو أي ناتج آخر من الكهرطيسية، والمجنون من حوى دماغه نسبة زائدة والانسان السوي من حوى نسبة قليلة، والرجل العبقري من كان المخيخ فيه مشبعاً إلى درجة ملائمة، أما من اختلفت مشاربهم كالعاشق المتيم، والحمّال، وراقص الباليه، والأكول النّهِم فهم هؤلاء الذين انحرفت فيهم القوة الناتجة عن سيالتهم الكهربائية. وهكذا فإن عواطفنا ...

ـ كفى يابلتزار، إنّك ترعبني، انك تهين المقدّسات، كيف! أيكون حبي ...

---

(١) هذا الرأي يستند إلى دراسات قام بها كيميائي فرنسي شاب، هو جان باتيست كورب وقدّمت إلى أكاديمية العلوم في تموز ١٨٣٤.

- مادة اتيرية(١) تنطلق، وهي دون شك كلمة المطلق، فكّري إذاً فيما إذا كنت أوّل من يتمكن، أول من يتمكن! من إيجاد، من إيجاد، من إيجاد!.....

هتف كلايس بهذه الكلمات بنبرات ثلاث مختلفة، كان خلالها وجهه يسمو في درجات متصاعدة حتى التعبير عن الوحي. «سأصنع المعادن، سأصنع الألاميس، سأكرر الطبيعة.»

- هل ستكون أكثر سعادة؟ صرخت بقنوط، ياللعلم اللعين، وللشيطان الرجيم! إنك تنسى ياكلايس أنك ترتكب خطيئة الكبرياء التي وقع فيها إبليس. إنّك تتطاول على الله.

- أوه! أوه! الله!

- إنه ينكر الله! صاحت وهي تعصر يديها. «كلايس! إن للّه قدرة لن تصل إليها أبداً.

عند هذه الحجة التي بدت وكأنها تلغي علمه العزين، تطلّع إلى امرأته وهو يرتعش متسائلاً: «ماذا؟!».

- القوة الوحيدة، الحركة(٢). هذا ما استوعبته من الكتب التي ألزمتني بقراءتها. حللّ الزهور، والثمار، وخمر ملَقة، ستكتشف بالتأكيد عناصرها التي تأتي، كعناصر عُشبة الحُرف التي حللتها، من وسط يبدو أنه كيانها الغريب، ويمكنك أن تجدها في الطبيعة، لكن إن جمعتها هل ستصنع منها هذه الأزهار، وهذه الثمار، وخمر ملَقة؟ هل لديك تأثيرات الشمس التي لايدرك كنهها؟ هل لديك جو اسبانية؟ أن تتمكن من التحليل لايعني أنك تتمكن من الخلق!

- إذا تمكّنت من إيجاد القوة الملزمة(٣)، يمكنني أن أخلق.

---

(١) الإتير: عرفت مقولة الإتير شهرة كبيرة في القرن التاسع عشر وقد عرفها معجم التاريخ الطبيعي الذي نشره دترفيل «الإتير مائع نافذ جداً يفترض أنه منتشر في الكون كلّه، وهو في بنية الكون كما السيّالة العصبية في بنية الحيوان، إنّه يصون هذه الرابطة الوثيقة بين أقسام هذا الكل الشامل

(٢) سجّل بلزاك في «أفكار، ومواضيع، وشذرات» (إن الانسان يستخدم القوة ولا يخلقها أبداً، وكل قوة يعتقد الانسان أنه قد خلقها هي استعارة من الحركة الخالدة تعاد إليها في اللحظة ذاتها»

(٣) القوة الملزمة: فكرة شغلت اهتمام بلزاك طويلاً وقد جاء في ملاحظات فلسفية: «ماهي القدرة الملزمة التي تضمّ وتجمع الجزئيات أو أقسام العناصر الماديّة؟»

ـ «ما من شيء يوقفه» صرخت ببيتا بصوت قانط. «آه ياحبي لقد مات، لقد فقدته» وفاضت عبراتها، وأبرقت عيناها، وقد حركهما الألم وقدسية العواطف التي تبوح بها، بجمال لايحدُّ، وتابعت وهي تنتحب «لقد متّ كلياً، إنني أرى ذلك، فهذا العلم فيك أكثر قوة من ذاتك، وقد حملك في تحليقه إلى مرتبة أعلى بكثير من أن تنزل منها لتكون رفيق امرأة مسكينة. أيّة سعادة يمكنني أن أقدِّمها إليك أيضاً؟ آه، أريد كمواساة معزيّة أن أومن أن الله قد خلقك لتكشف دن أعماله، وتترنّم بحمده، وأنه قد وضع في إهابك قوّة لاتقاوم تهيمن عليك؛ لكن كلا، إنّ الله رحيم، وقد ترك في قلبك بعض أفكار من أجل امرأة تعبدك وأولاد يجب أن ترعاهم. نعم إنّ الشيطان وحده يمكن أن يوجّهك للغوص وحيداً في وسط هذه اللجج التي لاقرار لها، وهذه الظلمات التي لا ينيرها إيمان الأعالي، إنما يخيم عليها اعتقادك الرهيب بقدراتك!

من ناحية أخرى، ألم تلاحظ ياعزيزي أنك قد بدّدت تسعمئة ألف فرنك خلال ثلاث سنوات؟ أوه! أنصفني، فأنت ربّي على هذه الأرض، وأنا لا ألومك على شيء؛ ولو أننا لوحدنا لحملت إليك وأنا راكعة كل ثروتنا وأنا أقول لك: «خذ، ألق بها في فُرنك حوّلها إلى دخان، وكنت سأضحك وأنا أراها تتطاير. وإن افتقرت لذهبت أتسوّل دون خجل لأؤمن لك الفحم الضروري لفرنك. أخيراً لو أنني بإلقائي نفسي في هذا الفرن أهيّ لك العثور على مطلقك المقوت، لفعلت ذلك، ياكلايس، بملء السعادة، لأنك تعتبر مجدك ومسرّاتك في هذا السرّ المفقود. لكن أولادنا ياكلايس، أولادنا، ماذا سيكون مصيرهم، إن لم تكتشف سريعاً هذا السرّ الجهنمي؟! هل تعلم لماذا حضر بييركين؟ لقد جاء يطلب منك تسديد ثلاثين ألف فرنك ديناً عليك، ولا تملكها. إن أملاكك لم تعد لك. لقد قلت له أن لديك هذه الثلاثين ألف فرنك لأجنبك الورطة التي ستوقعك فيها أسئلته، لكن للحصول على هذا المبلغ فكّرت ببيع فضيّاتنا القديمة»

رأت عند ذلك عينيه وقد جال بهما الدمع، فألقت بنفسها بقنوط على قدميه

وقد رفعت نحوه يدين متوسلّتين هاتفة: «أوقّف ياعزيزي لفترة أبحاثك لنتمكن من توفير المال اللازم للعودة إليها فيما بعد، إذا لم تتمكن من الإقلاع عنها كليّاً. أوه! أنا لا أدينها، وأنا مستعدة لأنفخ في أفرانك إن أردت، ولكن لاترم أولادنا إلى الفاقة، وإذا كان العلم قد سيطر على قلبك بحيث لم يعد فيه مكان لحبّهم، فلا تحوّل حياتهم إلى تعاسة بدلاً من السعادة اتي يجب أن تهيّئها لهم.

إن عاطفة الأمومة كانت غالباً الأضعف في قلبي. نعم لقد تمنيت غالباً ألا أكون أمّاً لأتمكن من الاتحاد بشكل أوثق مع روحك، وحياتك! وهكذا من أجل أن أتخلص من عذاب الضمير فأنا اسألك الرحمة بمصلحة أولادك قبل مصلحتي.

كان شعرها قد تهدّل وتموّج على كتفيها، وعيناها ترشق ألف عاطفة كرشق السهام، لقد انتصرت على منافستها، ورفعها بلتزار وحملها إلى الأريكة، وجثا عند قدميها، وقال لها بلهجة رجل استيقظ من كابوس مزعج: «لقد سببت لك إذاً كثيراً من الأحزان!»

- أجابت وهي تمرّر يدها في شعره: «ياعزيزي البائس، مازلت تسبّب لي الكثير بالرغم عنك، هيّا تعال واجلس قربي» وأشارت إلى مكانه على الأريكة الواسعة. «لقد نسيت كلّ شيء، لأنك عائد لنا سنصحّح كلّ شيء ياعزيزي، لكنك لن تبتعد عن زوجتك أبداً، أليس كذلك؟ قُل نعم! اسمح لي، ياعزيزي كلايس الطيّب الجميل، أن أمارس على قلبك النبيل هذا التأثير النسائي الضروري واللازم لسعادة الفنانين التعساء، وكبار الرجال المتألمين. لك أن تغيظني، وتعنّفني إن أردت، لكن اسمح لي أن أخالفك قليلاً لمصلحتك، لن استغلّ أبداً السلطة التي ستمنحني إياها. كن شهيراً ولكن كن سعيداً أيضاً. لا تفضّل الكيمياء علينا. اسمع سنكون كثيري التسامح، وسنسمح للكيمياء أن تدخل شريكاً معنا وتقاسمنا قلبك، ولكن كن عادلاً، ألا تعطنا نصف قلبك؟ قُل، أليست تضحيتي سامية؟

دفعت بلتزار إلى الابتسام بهذا الفن الرائع الذي تمتلكه النساء، لقد تعرّضت للموضوع الشائك في صيغة مزاج تعرف النساء اتقانه. مع ذلك وبالرغم من أنّها تظاهرت بالضحك، فان قلبها كان منكمشاً بعنف بحيث لم يعد إلى الحركة المنتظمة والهادئة لحالته المعتادة، لكن عندما رأت في عيني بلتزار التعبير الذي فتنها، والذي يسجّل نصرها الذاتي ويكشف عن التأثير الكامل لقدرتها القديمة التي ظنّت أنها قد فقدتها. قالت له وهي تبتسم: «صدّقني يابلتزار، لقد هيأتنا الطبيعة لنشعر، وبالرغم من أنّك لا تريد إلا أن نكون ماكنات كهربائية، فإن غازاتك، وموادك الإتيرية لن تفسر أبداً الموهبة التي نملكها في استشفاف المستقبل.

ـ بلى، بواسطة الألفات، فالقدرة على الرؤيا التي تصنع الشاعر، والقدرة على الاستنتاج التي تصنع العالم، قائمتان على أُلفات غير منظورة، لاتمسُ، ولا توزن، يصنّفها العامّة في صفّ الظواهر المعنوية، إنما هي تأثيرات فيزيائية. إن المتنبيء ينظر ويستنتج، لكن هذا النوع من الأُلفات نادر جداً، ويصعب جداً إدراكه بحيث يتعذر إخضاعه للتحليل أو للملاحظة.

قالت وهي تختلس منه قبلة لتبعد حديث الكيمياء الذي شاء سوء الحظ أن تثيره: «هذه إذاً ليست إلا ألفة؟!.

ـ كلا إنها اتحاد، فعنصران من إشارة واحدة لاينتجان أية فعالية.

ـ كفى، اصمت، إنّك تقودني إلى الموت ألماً. نعم، لن أتحمل ياعزيزي، أن أرى منافستي حتى في فورات حبك.

ـ لكنني، ياحياتي العزيزة، لا أفكر إلا بك، فأعمالي هي أمجاد لعائلتي، وأنت في صميم جميع آمالي.

ـ هيّا، ألا تنظر إليّ؟.

كانت هذه المشاحنة العائلية قد أكسبتها جمال امرأة شابّة، ولم يكن زوجها يرى من كل شخصها إلا رأسها الذي يبرز فوق غيمة من الحرائر والمخرّمات.

- نعم، لقد كنت على خطأ بيّن في هجرك من أجل العلم، والآن عندما أغرق في مشاغلي فإنني أرجو ياعزيزتي ببيتا أن تنتزعيني منها، فأنا أريد ذلك. خفضت بصرها، وتركته يتناول يدها، مثال الجمال فيها هذه اليد القويّة والحسّاسة في آن معاً، لكنها قالت: أريد ماهو أكثر من ذلك».

- «إنك ساحرة في جمالك بحيث تستطيعين أن تنالي ماتريدين.

- «أريد أن أحطّم مخبرك وأقيّد بالأغلال علمك» قالت وقد أبرقت عيناها بلهب مثير.

- حسنٌ، فلتذهب الكيمياء إلى الجحيم

- إن هذه اللحظة تمسح جميع آلامي، ويمكنك الآن أن تعذبني قدر ماتشاء ترقرقت الدموع في عيني بلتزار وهو يسمع هذه الكلمات وقال: «إنّك على حقّ، فأنا لا أراك إلا من وراء حجاب، ولم أكن استمع إليك أبداً».

- لو أن الأمر يتعلّق بي وحدي لأغرقت عذابي في الصمت، دون أن أرفع صوتي أمام مليكي، لكن أولادك بحاجة إلى اهتمامك ياكلايس؛ وأؤكد لك أنك إن واصلت تبديد ثروتك بهذه الطريقة، حتى لو كان هدفك مجيداً فإن العالم لن يأخذه بالاعتبار وسيقع اللوم على عائلتك. ألا يكفيك، وأنت الرجل السامي الإدراك، أن امرأتك قدلفتت انتباهك إلى خطر لم تلاحظه؟. كفانا كلاماً في هذا الموضوع ياعزيزي كلايس، ففي هذا المساء يجب ألا تكون سعادتنا منقوصة. قالت ذلك وهي توجه إليه ابتسامة ونظرة ملؤها الغنج والإغراء.

في صبيحة تلك الأمسية الخطيرة في حياة تلك العائلة، لم يصعد بلتزار كلايس إلى مخبره، ولاشك أن جوزفين قد حصلت منه على وعد يتعلّق بأيقاف أعماله، وقد بقي إلى جانبها طيلة النهار.

في اليوم التالي اتخذت الأسرة استعداداتها للذهاب إلى الريف حيث بقيت نحو شهرين، ولم تعد إلى المدينة إلا لتهتم بالحفلة التي أراد كلايس إحياءها كالسابق احتفاء بالذكرى السنوية لزواجه. كان بلتزار مع مرور الأيام يحسّ بالاختلال الذي أحدثته أعماله ولا مبالاته في أوضاعه الماديّة، فمن الخدم

السبعة الذين كانوا لديه في آخر مرة استقبل فيها، لم يبق إلاّ لمولكينيه، وجوزيت الطباخة، ووصيفة عجوز اسمها مرتا لم تفارق سيدتها منذ أن غادرت الدير، لذلك كان مستحيلاً استقبال عِليَة القوم في المدينة بمثل هذا العدد المحدود من الخدم؛ لكن السيِّدة كلايس تغلبت على الصعوبات بأن عملت على استدعاء طباخ من باريس، واستخدم ابن البستاني كنادل واستعارة خدم بييركين؛ وهكذا لم يلاحظ أحد ماهي فيه من ضيق؛ وخلال العشرين يوماً التي استغرقتها التحضيرات، عرفت السيدة كلايس بمهارة كيف تشغل أوقات زوجها: فحيناً تكلّفه بالاهتمام بالأزهار النادرة التي يجب أن تزين الدرج الرئيس، والرواق والأجنحة، وحيناً آخر ترسله إلى دونكرك ليؤمن بعض هذه الأسماك الضخمة التي تعتبر زينة الموائد في مناسبات إقليم الشمال. واحتفال كاحتفال كلايس يعتبر أمراً رئيساً يتطلب إجراءات عديدة ومراسلات نشطة في بلاد تعتبر تقاليد الضيافة فيها تعبيراً عن شرف العائلات، ومائدة العشاء نصراً يجب أن يحققه أسياد المنزل وخدمه على المدعوين. لقد جيء بالمحار من أوستند، وبالديوك البريّة من اسكوتلندة. وبالثمار من باريس، أخيراً فإن أقل المكمّلات كانت على مستوى الترف الموروث؛ فالحفلة الراقصة في بيت كلايس لها شهرتها، إذ أن تلك السهرة في دوي وهي مركز المقاطعة آنئذ، تفتتح إن صحّ القول موسم الشتاء، وتعتبر مثالاً لجميع حفلات المنطقة، وهكذا فخلال خمسة عشر عاماً جهد بلتزار في أن يتميز، وقد نجح في ذلك بحيث رويت الحكايات عن حفلته ضمن دائرة تعدّى نصف قطرها بعد عشرين فرسخاً، فسردت القصص عن التبرجات والمدعوين بأدق التفاصيل، وعن المستجدّات التي شوهدت أو الأحداث التي مرّت.

هذه الاستعدادات حالت بين كلايس وبين التفكير بالبحث عن المطلق، فبعودته إلى الأفكار الأهلية والحياة الاجتماعية ارتدت إلى العالم كبرياؤه كرجل، وكفلمندي، وسيّد بيت عريق واغتبط بإدهاش المقاطعة. وقد أراد أن يسمَ تلك السهرة بسمة جديدة فاختار من نزوات الترف أكثرها جمالاً، وأكثرها غنى،

واكثرها زوالاً، إذ جَعل من بيته مشتل نباتات نادرة، وأعدّ لكل سيّدة من المدعوات باقة أزهار، وتطابقت تفاصيل الحفل الأخرى مع مستلزمات هذا الترف الخارق، فما من شيء إلا ويبدو مثيراً للانتباه، غير أن النشرة التاسعة والعشرين[1]، والأخبار الخاصة المتعلقة بهزيمه الجيش الكبير في روسية ونكبة برزينا انتشرت بعد العشاء؛ وخيّم على أهل دوي حزن عميق وصادق بحيث دفعتهم العاطفة الوطنية إلى الامتناع عن الرقص كليّة.

كان من بين الرسائل التي وصلت من بولونية إلى دوي واحدة لبلتزار مرسلة من وييرشونيا الذي كان يحتضر في درسدن، على مايذكر، من جرّاء جرح أصيب به في أحد الاشتباكات الأخيرة، وقد أراد أن ينقل إلى مضيفه عدة أفكار تتعلّق بالمطلق خطرت له بعد لقائهما الأخير، وقد أغرقت هذه الرسالة كلايس في شرود عميق دفع الحاضرين لتبجيل وطنيته، لكن الأمر لم يلتبس على زوجته، فقد غدت الحفلة بالنسبة لها حداداً مضاعفاً، إذ تغلفت تلك الأمسية التي كان منزل كلايس يشعّ فيها بآخر بريق له بالكآبة والعبوس وسط كلّ هذا البهاء وهذه الطُرَف التي تجمعت في ذلك البيت خلال ستة أجيال لكل منها هوسه، وكل طرفة منها أثارت إعجاب أهل دوي للمرة الأخيرة.

كانت ملكة ذلك اليوم مرغريت التي قدّمها أهلها للمجتمع وهي في ربيعها السادس عشر، وقد جذبت أنظار كلّ الحاضرين ببساطة متناهية، وبمظهر ساذج بريء، وهيئة تتوافق مع ذلك المنزل؛ فهي نموذج الفتاة الفلمندية التي صوّرها رسّامو المنطقة رأس مليء مستدير تماماً، وشعر خرنوبي مسترسل ينقسم عند الجبين إلى عصبتين، وعينان رماديتان على خضرة، وذراعان بضّتّان، وجسم مليء لا يؤثر على جمال القوام، ومظهر خجول، لكن على جبينها العريض المتعالي رزانة تحتجب بسكون ولطف ظاهرين؛ ودون أو تركن إلى

---

(١) النشرة التاسعة والعشرون: هي النشرة التي أصدرها نابوليون في ٣ كانون أول ١٨١٢ ووصلت إلى باريس في ١٨منه تنبيء الشعب الفرنسي بتراجع الحملة على روسية. ونكبة برزينا: هي الفاجعة التي حلت بالجيش الفرنسي أثناء اجتياز النهر وقد ورد ذكرها في طبيب الريف .

الحزن أو الكآبة، لم يكن يبدو عليها كثير من الابتهاج، فالتفكير والنظام، والشعور بالواجب وهي التعابير الرئيسة الثلاثة في الطبع الفلمندي تتجلّى في هذا الوجه الذي يبدو بارداً للوهلة الأولى لكن النظر يرتد إليه ثانية منجذباً بما يبدو في قسماته من لطف وأنفة رائعة هي ضمان السعادة العائلية.

بغرابة لم يتمكن الفيزيولوجيون من تعليلها، لم يكن يبدو على مرغريت أي شبه بأمّها أو أبيها، إنما هي صورة حيّة عن جدّها لأمّها أحد أفراد عائلة كرنينك من بروج الذي مايزال رسمه المحتفظ به بعناية يشهد على هذا الشبه بثّ موعد العشاء الحياة في الحفلة، وإذا كانت نكبة الجيش قد حالت دون متعة الرقص، فإن معظم الحاضرين فكّر بأن يجب ألا تحرمه من طيّبات المائدة. لكن المتحمسين للوطن انسحبوا بعدها بسرعة، أما اللامبالين فقد بقوا مع بعض هواة اللعب والعديد من أصدقاء كلايس، لكن ذلك المنزل الذي كان يشعّ بالأضواء والذي هرع إليه أعيان دوي أخذ يخيم عليه السكون شيئاً فشيئاً، وحوالي الساعة الواحدة صباحاً خلت القاعة الكبرى وبدأت الأنوار تخمد بين صالة وأخرى وأخيراً خيّمت العتمة على البهو الداخلي الذي كان يلتمع بالأضواء ويضجّ بالحركة، وكأنها نذير ينبىء بالمستقبل القاتم الذي ينتظر تلك العائلة.

وعندما أوى الزوجان إلى مخدعهما، أطلع بلتزار زوجته على رسالة البولوني لكنها أعادتها إليه بحركة حزينة فقد كانت تتوقع المستقبل.

الواقع أن بلتزار بدءاً من ذلك اليوم، لم يستطع أن يخفي الكآبة والضجر اللذين حلاّ به؛ فهو في الصباح بعد أن تتناول العائلة فطورها، يداعب لفترة جان الصغير في غرفة الجلوس، ثم يتحدث مع ابنتيه المشغولتين بالخياطة أو التطريز، أو شغل المخرّمات، لكن كان يبدو عليه التعب سريعاً من هذه المحادثة وتلك المداعبة، فكأنهما واجب يتحتم القيام به، وعندما تنزل زوجته بعد ارتداء ثيابها، تجده يجلس دائماً على أريكة عريضة يتأمل مرغريت وفليسيا دون أن يملّ من ضجّة بكراتهما، وعندما تصل الصحيفة فإنّه يقرؤها بتمعّن كتاجر متقاعد لا يعرف كيف يمضي الوقت؛

ثم ينهض ويتأمل السماء عبر زجاج النوافذ، ويعود ليجلس أو يذكي نار المدفأة وهو سارح في حلم رجل تبعد عنه هيمنة أفكاره الشعور بحركاته.

كانت السيدة كلايس في ذلك الموقف، تأسف بشدة على نقص ثقافتها وضعف ذاكرتها، إذ يصعب عليها أن تستمر لمدة طويلة في محادثة ممتعة؛ زد على أنّه قد يستحيل على كائنين استنفدا الكلام أن يسعيا إلى التفتيش عن مواضيع للهو خارج حياة القلب أو الحياة الواقعة. فلحياة القلب أوقاتها وهي تتطلب المواجهة، وتفاصيل الحياة الواقعية لا يمكن أن تشغل طويلاً النفوس التي ألفت أن تقرّر بسرعة والمجتمع لا تتحمله الأرواح المتحابة، فالكائنان المنعزلان المتعارفان كلياً، يجب إذاً أن يفتشا عن انشراحهما في أسمى مراتب الفكر إذ يستحيل أن تواجه المدى الواسع بالأشياء التافهة. ثم أن الرجل الذي تعود أن يعالج الأمور الكبيرة تصعب تسليته إن لم يحتفظ في صميم قلبه بهذا الأساس من البراءة، وهذه العفوية التي تجعل الرجال العباقرة في لطفهم كالأطفال، لكن هذه الطفولة في القلب ظاهرة بشرية نادرة جداً لدى أولئك الذين يعتبرون أن مهمتهم أن يروا كل شيء، ويعرفوا كل شيء، ويدركوا كل شيء.

تمكنت السيّدة كلايس خلال الأشهر الأولى أن تتخلص من هذا الوضع الحرج بجهود خارقة، أوحى لها بها الحبّ أو الضرورة؛ فقد أرادت حيناً أن تتعلّم لعبة طاولة الزهر التي لم تمارسها أبداً في السابق، وتمكنت بأعجوبة أن تحقق هدفها، ودفعت حيناً آخر بلتزار إلى الاهتمام بتثقيف ابنتيه طالبة منه توجيه مطالعاتهما؛ وقد نفدت هذه الوسائل، وجاءت لحظة وجدت جوزفين نفسها أمام بلتزار كما السيدة دى منتنون أمام لويس الرابع عشر، لكن بدون أن يكون لها من أجل تسلية السيد المتخامد، لا أبّهات السلطان ولا حيَل البلاط الذي يعرف كيف يمثّل ألف ملهاة كملهاة رسول ملك سيام[1] أو صوفي العجم؛ فالملك

---

(١) ملهاة يذكر ڤولتير أن واضعها هو صاحب حانة من سيفالونية (اليونان) اسمه فالك كونستانس، في العام ١٦٨٤.

الذي تصاغر بعد أن استهلك فرنسة إلى التماس ذرائع ابن العائلة الموسرة، قد فقد الشباب والنجاح وشعر بعجز رهيب وسط هذه العظائم؛ لكن المربية الملكية التي عرفت كيف تهدهد الأولاد لم تكن تعرف دائماً كيف تهدهد الملك الذي كان يعاني من إسرافه في استغلال الأشياء والناس والحياة، وحتى الاله. لكن كلايس كان يعاني من فرط الطاقة، إذ أنّه وهو المعذّب بفكرة تضيّق عليه الخناق يحلم بأبهات العلم التي تعود على الإنسانية بالكنوز وعليه بالمجد، إنه يتألم كما يتألم الفنّان الذي يصارع الشقاء، كشمشون الذي شدّ وثاقه إلى أعمدة الهيكل. لقد كانت النتيجة واحدة بالنسبة لهذين العاهلين، فعاهل العلم قد أرهقته قوّته وعاهل السلطان خمَده شعوره بالضعف.

ماذا يمكن أن تفعل بيبيتا وحدها أمام هذا التوق العلمي؟؛ فبعد أن استغلت الوسائل التي هيّأتها لها الاهتمامات العائلية لجأت إلى المجتمع تطلب منه المساعدة، فدعت إلى حفلتي تناول قهوة أسبوعياً، والقهوة في دوي تحلّ محل الشاي، وحفلتها أمسية كاملة يتناول فيها المدعوون الخمور المعتّقة والمشروبات الروحية التي تطفح بها أقبية تلك البلاد السمحة، ويأكلون الحلويات، ويشربون القهوة السادة أو الممزوجة بالحليب والمبرّدة بالمثلجات بينما تترنّم النساء بالأغاني العاطفية، أو يتحدثن عن مستجدات الزينة أو يثرثرن بشائعات المدينة انّها مناظر لوحات ميريس أو تربرغ[1]، لكن بدون الريشات الحمراء التي تزيّن القبّعات الرمادية المقرّنة، وبدون قيثارات وملابس القرن السادس عشر البهيّة. لكن الجهود التي يبذلها بلتزار في تلك الحفلات ليبدو بدور سيد المنزل المضياف، وبشاشته المتكلّفة، ومظاهر تلاطفه، كلّها تعبر عن عمق الألم الذي ينكشف بما يبدو عليه من تعب في اليوم التالي.

هذه الحفلات المستمرة، وهي مسكّنات ضعيفة، تؤكّد خطورة الداء؛ والأغصان التي يتعلّق بها بلتزار وهو يتدحرج نحو الهوّة، كانت تؤخّر سقوطه لكنها تجعله أكثر ثقلاً؛ وإن كان لم يتحدّث أبداً عن اهتماماته السابقة، ولم

---

(١) من الرسّامين الهولانديين في القرن السادس عشر والسابع عشر

تصدر عنه بادرة أسف وهو يشعر باستحالة ما وضع فيه نفسه من التزام بعدم العودة إلى تجاربه، فإن في حركاته الكئيبة، وصوته الضعيف، ووهنه كأنه ناقه، البوادر المعبّرة. كان مللـه يتفجّر أحياناً حتى في الطريقة التي يأخذ بها الملاقط ليبني دون انتباه في نار المدفأة أحد هذه الأهرامات العجيبة من قطع الفحم الحجري. كانت تظهر عليه الغبطة عند حلول المساء فالنوم يبعد عنه دون شك فكرة ملّحة، لكنه ينهض في اليوم التالي أكثر كآبة إذ يقدّر صعوبة النهار الذي ينبغي عليه اجتيازه حاسباً الوقت الذي سيمرّ متباطئاً، كمسافر أثقل عليه خواء الصحراء التي يجتازها.

لئن كانت السيّدة كلايس تعرف سبب هذا السقام فإنّها كانت تجهد للتجاهل مدى الدمار الذي يحدثه. إنّها شديدة العزم أمام آلام النفس، لكنها واهنة القوى أمام مآثر القلب. هي لاتجرؤ أن تسأل بلتزار وهو يستمع إلى ملاحظات ابنتيه أو ضحكات جان، لكن بنظر الرجل المنشغل بأفكار أخرى؛ إنّما ترتعش وهي تراه ينفض عنه الكآبة ويجرّب بعاطفة سمحة أن يظهر فرحاً كي لا يحزن أحداً، وكانت مداعبات الأب لابنتيه، أو ملاعبته لجان تمليء عيني جوزفين بالدموع فتخرج لتخفي الانفعالات التي تسببها بسالة تعرف النساء جيّداً ثمنها ومدى ما تحدثه من انفطار في القلب. كانت تنتاب السيد كلايس الرغبة أحياناً لتصرخ: «اقتلني وافعل ماتريد». لقد بدت عينا كلايس تفقدان تدريجياً بريقهما الحيّ وتتحوّلان إلى ذلك اللون المزرق الباهت المعبّر عن الغمّ في أعين العجائز وظهر التثاقل في اهتماماته بامرأته وفي كلماته، وقد ازدادت هذه الأعراض خطورة في نهاية شهر نيسان بحيث أرعبت السيدة كلايس التي أصبح هذا المشهد بالنسبة لها، لا يحتمل، ولامت نفسها ألف مرّة وهي تقدّر الإخلاص الفلمندي الذي التزم بموجبه زوجها بالوعد الذي تعهّد به؛ وفي يوم بدا لها فيه بلتزار منهاراً أكثر من أي وقت مضى لم تتردد في أن تضحي بكل شيء لإعادته إلى الحياة. فاجأته بالقول: «ياصديقي، إنني أحلّك من وعدك!»

نظر إليها بلتزار بدهشة، فتابعت «إنك تفكر بتجاربك أليس كذلك؟» أجاب

«بلى» بحركة تذعر بحيويتها، لكن السيدة كلايس التي كانت قد أمعنت التفكير بمدى اللجّة التي سيغوصان فيها، هي أبعد الآن من أن توجه إليه أي عتب أو لوم، إنّما تناولت يده وشدّت عليها وهي تبتسم قائلة: «شكراً ياعزيزي، إنني واثقة من قدرتي، لقد ضحيت من أجلي بأكثر من حياتك؛ وقد جاء دوري الآن بالتضحيات؛ وبالرغم من أنني قد بعت بعض جواهري، فما يزال لدي، اضافة إلى ماورثته عن أخي، بعض ما أمدك به من مال يلزمك لمواصلة أبحاثك. لقد كنت أفكر أن أحتفظ بهذه الحليّ لابنتيّ لكن مجدك سيزيّنهما بما هو أفخر منها، زد على أنك ستجدّد لهما يوماً جواهر أكثر جمالاً.

زادت الغبطة التي نمت عنها أسارير كلايس في قنوط جوزفين، فقد أدركت بألم أن هوى هذا الرجل أشد قوّة من ذاته. لقد كان كلايس على ثقة بمشروعه بحيث يدرج دون أن يرتعش على مسار يؤدي به، في رأيها إلى الهوّة. إنّ له الإيمان واليقين ولها الشك والحمل الثقيل: ألا تتألّم المرأة دائماً من أجل اثنين؟ إنّها في هذه اللحظة تقنع بالإيمان بالنجاح، تريد أن تبرّر لنفسها تواطؤها في الهدر المحتمل لثروتهما. «إنّ حبي لك مدى الحياة لن يكفي للعرفان بجميل تضحيتك يابيبيتا» قال كلايس وقد غمره الحنان.

ماكاد ينهي هذه الكلمات حتى دخلت مرغريت وفليسيا يوجّهان لهما التحية، وغضت السيدة كلايس ببصرها، وبقيت للحظة منذهلة أمام ابنتيها اللتين استلبت ثروتهما لمصلحة وهم، بينما أخذهما والدهما على ركبتيه وأخذ يحدثهما بانشراح وقد أسعده أن يتمكن من التعبير عن الغبطة التي تملكته.

منذ تلك اللحظة، دخلت السيدة كلايس في حياة زوجها المضطرمة، فمستقبل أولادها ومقام زوجها كانا بالنسبة لها عاملين محرّكين بقوة مماثلة لعاملي المجد والعلم الدافعين لكلايس، وهكذا لم تعرف تلك المرأة التعسة لحظة من الطمأنينة بعد أن بيعت جواهر البيت في باريس، بواسطة الأب دي سوليس مرشدها، وبعد أن بدأ منتجو المواد الكيماوية يشحنون إرسالياتهم. كانت تتعرض دون انقطاع للقلق الذي يثيره شيطان العلم، وهذا الاندفاع في الأبحاث

الذي يغني زوجها، إنّها تحيا في توقّع مستمر، وتبقى كالميتة لأيام كاملة وقد تسمّرت في مقعدها بتأثير عنف رغباتها بالذات التي لاتجد لها متنفساً كمتنفس بلتزار في أعماله المخبرية إنّما تعذّب روحها وهي تغذّي شكوكها ومخاوفها. إنّها تلوم نفسها أحياناً على مراعاتها لهوى يبدو لها هدفه مستحيلاً كما أدانه الأب دي سوليس، وهي تنهض وتذهب إلى نافذة الفناء الداخلي، وتنظر برعب إلى مدخنة المخبر، فإن تصاعد منها الدخان تأمّلته بقنوط فالأفكار المتشائمة تعصر منها القلب والروح، فهي ترى في هذا الدخان ثروة أولادها تتبدّد؛ لكنها بذلك تنقذ حياة والدهم: أليس واجبها الأوّل في أن تجعله سعيداً؟. هذه الفكرة الأخيرة أعادت إليها الهدوء للحظة. كانت قد حصلت على السماح لها بالدخول إلى المخبر، والبقاء فيه لكنها تخلّت سريعاً عن هذه الترضية المحزنة، إذ أنّها عانت من آلام شديدة الوطأة عندما رأت بلتزار غير مهتم بها. بل وظهر لها غالباً متضايقاً من وجودها، مما عرّضها لنفاد صبر لايحتمل ولرغبة قاسية في أن تفجّر البيت فهي تتعرّض فيه للموت من جراء ألف علّة خارقة.

أصبح لمولكينيه بعد ذلك بالنسبة لها مماثلاً لمقياس ضغط، فإن سمعته يصفر وهو يروح ويجيء لتقديم الغداء أوالعشاء، فهذا يعني أن تجارب زوجها ناجحة، وأنه يعقد الأمل على نتائج سارّة قريبة، وإن بدا لمولكينيه عابساً مكفهر الوجه، فإنها تنظر إليه بألم لأن بلتزار غير راض. لقد توصّلت السيّدة والخادم إلى نوع من التفاهم رغم الإذعان المتعجرف لهذا والأنفة المتعالية لتلك. إنّها ضعيفة وعزلاء أمام إنهاكات الفكر الرهيبة، فهي ترزح تحت تناوبات من الرجاء واليأس تزيد في اضطرابات المرأة المحبّة، وفي هموم الأم القلقة على عائلتها. لقد أصبح الصمت المكدّر الذي رمى الصقيع سابقاً في قلبها، يتشارك دون أن تدري مع المظهر القاتم الذي خيّم على المنزل ومع الأيام الكاملة التي تمرّ على قاعة الجلوس دون ابتسامة وغالباً دون كلمة؛ وفي توقع أمومي متشائم عوّدت ابنتيها على أعمال المنزل، وجربت إكسابهما مهارة في بعض أشغال النساء لتتمكنا من العيش إن ألّمت بهما الفاقة، فهدوء هذا البيت كان يحضن إذاً قلقاً مخيفاً.

في نهاية الصيف كان بلتزار قد أنفق ثمن الجواهر المباعة في باريس بواسطة الأب العجوز دي سوليس، وتراكمت عليه ديون لدى بروتز وشيفرفيل تقدّر بعشرين الف فرنك في آب ١٨١٣، أي بعد عام تقريباً من المشهد الذي بدأت به هذه الرواية، كان كلايس قد قام ببعض التجارب الممتعة التي احتقرها للأسف، إذ أن جهوده بالنسبة للهدف الرئيس من أبحاثه كانت بدون نتيجة، وفي اليوم الذي أنهى به سلسلة أعماله كان الشعور بعجزه يسحقه، واليقين بأنه قد بدّد مبالغ معتبرة من المال دون طائل يقنطه، إنّها كارثة مرعبة بالنسبة له.

غادر سقيفته ونزل بهدوء إلى غرفة الجلوس، وألقى بنفسه على أريكة وسط أولاده، وبقي للحظات كأنّه ميت، لا يجيب على أسئلة زوجته التي تلاحقه، واغرورقت عيناه بالدموع فهرب إلى جناحه كي لا يظهر مايعانيه من آلام.

تبعته جوزفين وأحضرته إلى غرفتها حيث ترك قنوطه يتفجر وهو وزوجته منفردان. هذه الدموع في عيني رجل، وهذه الكلمات من فنان يائس، وهذه التأسفات من ربّ عائلة، انطبعت بطابع ذعر وحنان وجنون سبّب للسيد كلايس آلاماً فاقت جميع آلامها الماضية، وكان على الضحيّة أن تواسي الجلاّد. وعندما قال بلتزار بلهجة تصميم مرعبة: «إنني رجل بائس، لقد غامرت بحياة أولادي، وبحياتك، ويجب عليّ أن انتحر لأترككم سعداء!»: أصابت هذه العبارة صميم قلبها، وخشيت وهي العارفة بطبع زوجها أن ينفذ في لحظة قنوط عزمه، وأحسّت بإحدى هذه الثورات التي تعكّر الحياة من منابعها، ومايزيد في خطورتها أن ببيتا مضطرة أن تكبت عنيف نتائجها بالتظاهر بهدوء كاذب؛ وهي تقول: «لقد استشرت ياعزيزي غير بيبركين الذي أخشى أن تكون صداقته ليست بالقدر الذي لايتمنى فيه سراً خرابنا، ومستشاري العجوز هو بالنسبة لي بطيبة الأب، إنه الكاهن دي سوليس، معرّفي، وقد أجزاني نصيحة تنقذنا من الإفلاس. لقد تفحّص لوحاتك، وثمن ماهو موجود منها في الصالة الكبرى يمكن أن يسدّد المبالغ المرتهنة عليها عقاراتنا وما يتوجب عليك لمتجر بروتز وشيفرفيل، إذ لاشك أن له مبلغاً متوجب السداد.

أومأ كلايس برأسه إيجاباً فبدا رأسه وقد جلّله الشيب.

إن الأب دي سوليس يعرف آل هاپ ودونكر في امستردام، وهم من غلاة هواة اللوحات، وعلى شوق كمحدثي نعمة ليتفاخروا بأبّهة لم تتح إلاّ للبيوتات العريقة، لذلك فهم مستعدون لشراء لوحاتنا بكامل ماتستحقه من قيمة، وهكذا يمكننا أن نسترد دخلنا ويمكنك أن تأخذ من الثمن الذي يقارب مئة ألف دوقية قسماً تتابع فيه تجاربك. انني وابنتيك نكتفي بالقليل، ومع الزمن وبشيء من التوفير يمكننا أن نؤمن لوحات أخرى تحلّ محل المباعة، وتعيش سعيداً!»

رفع بلتزار رأسه نحو امرأته وقد بدت على سيمائه غبطة ممزوجة بالخشية؛ لقد انقلبت الأدوار فالزوجة أصبحت حامية الزوج.

أحاط هذا الرجل الزائد الحنان ذو القلب الصامد نسبة إلى قلب جوزفين، زوجته بذراعيه دون أن يلحظ اختلاج قلبها الذي يخفق بشدّة تبدّت في رعشة عصبية على شعرها وشفتيه

ـ لا أجرؤ أن أقول لك أنه لم يعد بيني وبين الكشف عن المطلق إلا مسافة شعرة. إذ لا ينقصني لتفويز المعادن إلا أن أجد وسيلة لاخضاعها لحرارة شديدة في وسط يكون الضغط الجوي فيه معدوماً أي في فراغ مطلق.

لم تستطع السيدة كلايس أن تتحمل ماتبدّى في هذا الجواب من أنانية لقد كانت تنتظر بوادر شكر عميق على تضحياتها فإذ بها تلقى قضية كيمياء؛ فتركت فجأة زوجها، ونزلت إلى غرفة الجلوس، وتهالكت على الأريكة بين ابنتيها المذعورتين، وأجهشت بالبكاء. وأخذت مرغريت وفليسيا، كل منهما بإحدى يدي أمهما، وجثتا إلى جانبها وهما تبكيان دون أن تعرفا سبب هذا الحزن وهما تسالانها بإلحاح: «مالك ياأمي».

«ياأولادي المساكين، إنني احتضر، انني أشعر بالموت»

دب الذعر في فؤاد مرغريت من هذا الجواب، وقد رأت على وجه أمّها لأوّل مرّة هذه الصفرة الباهتة التي تميّز ذوي الوجوه السمراء.

صاحت فليسيا: «مرتا، مرتا، اسرعي إلينا، فوالدتي تحتاجك». أسرعت

المربية العجوز من المطبخ وعندما رأت البياض المخضر على وجه سيّدتها الداكن قليلاً في سمرته والملوّن بقوة عادة صاحت بالاسبانية «بحق المسيح إن سيّدتي تموت!» وخرجت مسرعة ونادت جوزيت لتسخن ماء لتدفئة رجلي سيّدتها وعادت إلى قربها.

صاحت السيدة كلايس: «لا ترعبي سيّدك يامرتا، ولا تقولي له شيئاً».

ثم التفتت إلى ابنتيها وضمّتهما بشدة إلى صدرها بحركة يائسة وقالت: «ياابنتي العزيزتين أريد أن أعيش إلى الوقت الذي أراكما فيه متزوّجتين وسعيدتين» ثم توجهت إلى مرتا وطلبت منها أن تخبر مولكينيه بضرورة الذهاب إلى الأب دى سوليس ليطلب منه الحضور لمقابلتها.

كان لابدّ لهذا الأمر الجلل أن ينعكس حتى على المطبخ، فجوزيت ومرتا، وهما المخلصتان لسيدتهما وابنتيها، شعرتا بدافع هذه المحبّة الوحيدة لديهما بضربة توجّه لهما، وسمعت هذه الكلمات المرعبة: «إن السيدة تحتضر، لقد سبّب لها السيّد الموت، عجّلي بحمام ماء ساخن مع الخردل لرجليها!» مما دفع جوزيت إلى توجيه اللوم ببعض عبارات استهجان للمولكينيه الذي كان يأكل بلا مبالاة وبرود وهو يجلس إلى زاوية المائدة أمام إحدى النوافذ التي يأتي منها نور الفناء إلى المطبخ حيث يبدو كل شيء نظيفاً كصالة استقبال صغيرة في منزل خليلة شابة.

«يجب أن ينتهي الأمر عند هذا الحدّ» قالت جوزيت موجّهة النظر إلى الوصيف وهي تصعد على طبلية لتأخذ عن رفّ قدراً نحاسياً يلتمع كالذهب، وتابعت: «مامن أم يمكن أن ترى ببرود أباً يتسلى بتبديد ثروة كما يفعل السيد»

كانت جوزيت وقد اعتمرت بغطاء رأس ذي كشاكش يشبه كسّارة بندق ألمانية، تحدج لمولكينيه بحدّة بدت فيها خضرة عينيها الصغيرتين الحمراوين كأنها تقطر سمّاً، وهزّ الوصيف العجوز كتفيه لا مبالياً بحركة جديرة بمثيل برم لميرابو، ثم حشا فمه بشطيرة ملأى بالزبدة والمقبلات، وهو يقول: «كان يجب على السيدة بدلاً من أن تزعج السيّد أن تمدّه بالمال، فسنغدو قريباً أثرياء نلعب بالذهب، فيجب ألا يضنّ حتى بالفلس الذي لانجده ....

ـ حسن، لماذا لاتمد السيد ببعض مالك، وأنت تضع بالفائدة عشرين ألف فرنك؟ إنّه معلمك ويبدو أنك واثق من نتائج أعماله وتصرفاته

ـ «أنت لاتفهمين من هذا الأمر شيئاً ياجوزيت، إذهبي إلى تسخين مائك» أجاب الفلمندي مقاطعاً الطبّاخة.

ـ إن فهمي يعي أن هذا المكان كان يحوي ألف مارك(١) من الفضيات عملتم على صهرها أنت وسيدك، وأنه إن سمح لكما بالسير على هذا المنوال، فالدينار بين أيديكما يغدو درهماً بحيث لاتبقيان على شيء.

ـ وتدخّلت مرتا قائلة: «والسيّد سيسبّب الموت السيّدة ليتخلص من امرأة تردعه وتمنعه من أن يبتلع كل شيء، لقد ركبه الشيطان هذا واضح! إنّك تجازف بروحك وأنت تساعده يامولكينيه، هذا إن كان لك روح، إذ أنني أراك كقطعة جليد بينما كل من هنا يتفطّر حزناً وأسى وهاتان الآنستان تبكيان كالمجدلية، هيّا أسرع لاستدعاء الأب دي سوليس.

ـ إن سيدي قد كلفني بترتيب بعض الأشياء في المخبر، وحيّ اسكرشن بعيد جداً عن هنا، فاذهبي إليه أنت.

ـ انظروا هذا المسخ! قالت مرتا، «ومن يغسل للسيدة رجليها؟ أتريد تركها تموت؟ فالدم يفور في رأسها.

كانت مرغريت قد دخلت إلى المطبخ من الغرفة المجاورة وقالت: «مولكينيه، عليك عند العودة من استدعاء الأب دي سوليس، أن تمرّ على الطبيب بيبركن ترجوه أن يحضر سريعاً إلى هنا.

ـ «ألا تذهب الآن؟!» قالت جوزيت.

ـ «لقد طلب في سيدي، ياآنسة، أن أرتب له مخبره» أجاب لمولكينيه وهو يلتفت إلى الإمرأتين بنظرة متحدية

ـ توجهت مرغريت إلى والدها وقد رأته ينزل السلّم: «ألا يمكنك ياوالدي أن تتخلى لنا عن لمولكينيه الآن لإرساله في مهمة إلى المدينة؟.

---

(١) المارك: وزن قديم يعادل ٢٤٤،٧٥ غرام.

قالت مرتا وهي تسمع السيد كلايس يطلب من لمولكينيه الاستجابة لطلب ابنته «ستذهب الآن أيها الصيني الخبيث!»

قلة وفاء الوصيف للمنزل كانت موضوعاً مستمراً للجدل بيَن المرأتين ولمولكينيه الذي كان يثير ببروده تعلّق جوزيت والمربية بسيدتهما. وقد أثّر هذا الصراع على صغاره ظاهرياً على مستقبل العائلة، عندما احتاجت فيما بعد إلى المساعدة ضد نوب الدهر. كان بلتزار شارداً بحيث لم يلحظ الحالة المرضية لجوزفين، وقد أخذ جان على ركبتيه وجعله ينطّ بحركة آلية وهو يفكر بالمشكلة التي أصبح بمقدوره حلّها؛ وقد رأى زوجته تعالج بحمام مياه ساخنة لرجليها، ولاتستطيع أن تنهض عن الأريكة التي استلقت عليها في غرفة الجلوس، كما لاحظ ابنتيه تهتمان بأمهما دون أن يفتش عن سبب هذه العناية المشدّدة، وعندما أراد جان أو مرغريت الكلام، طلبت منهما السيدة كلايس الصمت مشيرة إلى بلتزار. كان طبيعياً لمشهد مماثل أن يدفع مرغريت، الموجودة بين أبيها وأمها، وهي في عمر يمكّنها من الحكم على السلوك، أن تفكّر في هذا الوضع ملياً. إن الحياة الخاصة للعائلات تمرّ بفترة يصبح الأولاد فيها إرادياً أو لا إرادياً حكّاماً على نويهم؛ وقد أدركت السيدة كلايس حراجة هذا الوضع، ودفعها حبها لبلتزار إلى أن تبرّر أمام عيني مرغريت مايبدو في ذهن فتاة في السادسة عشر من عمرها، زلاّت للأب. هكذا فإن الاحترام العميق الذي أبدته السيدة كلايس في ذلك الظرف لبلتزار وهي تنزوي أمامه، كي لا تعكّر تأملاته قد وَسَم بطابع من الرعب جلال الأبوة في نفوس الأولاد؛ لكن هذا التفاني، أيّاً كانت عدواه، قد زاد إعجاب مرغريت بأمّها، التي تشاركها بصورة خاصة أحداث الحياة اليومية هذا الشعور كان قائماً على نوع من التنبؤ بالآلام التي اهتمت الفتاة طبعاً، بمعرفة سببها؛ وما من قوّة بشرية تستطيع أحياناً أن تحول دون تسرّب كلمة من مرتا أو جوزيت فتكشف لمرغريت عن أصل المشكلة التي يغوص فيها البيت منذ أربع سنوات، وبالرغم من تكتّم السيدة كلايس فإن ابنتها أخذت تلمّ شيئاً فشيئاً، وببطء، وخيطاً بعد خيط، بالشبكة الغامضة اتي تلفّ

هذه المأساة العائلية؛ وهكذا أصبحت مرغريت، بعد فترة معيّنة موضع ثقة أمّها، وتلك التي يُخشى أكثر مايكون حكمها، لذلك وجّهت السيدة كلايس إليها كل عنايتها، لتجرب أن تغرز فيها معنى تضحيتها لبلتزار، فحزم وتعقل ابنتها يُدبّان في نفسها القشعريرة لمجرّد التفكير بإمكان قيام صراع بين مرغريت وبلتزار، عندما ستكون الابنة ربّة البيت بعد موت الأم؛ فهذه المرأة البائسة وصلت إذاً إلى التخوّف من عقابيل موتها أكثر من خوفها من الموت نفسه؛ وتجلّى اهتمامها ببلتزار في قرار اتخذته يقوم على أن تحرّر أملاك زوجها من الرهن، فتؤمن له الاستقلال، وتتقي كل نزاع مستقبلي بالفصل بين مصالحه ومصالح أولاده، وبذلك تأمل أن تراه سعيداً حتى اللحظة التي يغلق الموت فيها عينيها؛ كما اعتمدت على أن تورّث ابنتها رقّة قلبها فتتابع من بعدها، قرب والدها، لعب دور ملاك الحب، بممارستها على العائلة سلطة وصائية ومحافظة، أليس في ذلك انعكاس حبّها من أعماق القبر على أولئك الذين تحبّهم؟ غير أنّها لاتريد أن يفقد الأب الحظوة في عيني ابنته باطلاعها في وقت مبكر على مايثيره هوس بلتزار العلمي من مخاوف لديها، إنّها تدرس روح وطبع مرغريت لتحكم عمّا إذا كانت هذه الشابّة ستغدو من تلقاء نفسها أمّاً لأخويها وأختها، وعوضاً، عن الزوجة الرقيقة الحنون لوالدها؛ وهكذا كانت الأيام الأخيرة للسيدة كلايس معكّرة بهذه الحسابات والمخاوف التي لاتستطيع أن تفشي سرّها لأحد؛ وقد اندفعت بشعورها أنّ حياتها بالذات قد تأثرت بالموقف الأخير، إلى توجيه نظرها إلى المستقبل، فبلتزار من الآن فصاعداً، لايعير اهتماماً لكلّ مايسمى اقتصاد أو ثروة أو عواطف عائلية، وهو منصرف لإيجاد المطلق.

لم يكن يقطع الصمت العميق الذي يسود غرفة الجلوس إلا الحركة الرتيبة لرجل كلايس التي استمرّت في اهتزازها دون أن يلاحظ أن جان قد نزل عنها؛ وكانت مرغريت الجالسة قرب أمّها ترقب وجهها الشاحب والمتشنج، تلتفت من وقت إلى آخر نحو والدها وقد أدهشها جمود عاطفته؛ ومن ثم سُمع صرير

البوّابة المطلة على الشارع وهي تفتح وتغلق، ورأت العائلة الأب دي سوليس وهو يجتاز الفناء مستنداً إلى ذراع ابن أخيه.

«آه، هوذا السيد امانويل» هتفت فليسيا.

- «الشاب الطيّب، تسرني رؤيته ثانية» قالت السيدة كلايس وهي ترى إمانويل دى سوليس.

تورّد خدا مرغريت وهي تستمع للمديح الذي بدر من أمّها، فمنذ يومين أيقظ هذا الشاب في قلبها عواطف لم تكن تعرفها من قبل، وأحيا في ذهنها خواطر كانت هامدة حتى الآن. لقد مرّت خلال الزيارة التي قام بها المعرّف لتائبته بعض هذه الأحداث التي لاحسّ بها لكنها تلعب دورها في الحياة؛ ولنتائجها أهميّة تتطلب اظهار صورة هاتين الشخصيتين الجديدتين اللتين ظهرتا في محيط العائلة. كان من مبادىء السيدة كلايس أن تتمّ سراً طقوس ورعها الديني في الاعتراف والتناول، وكان مرشدها الروحي غير معروف تقريباً في وسطها العائلي، فهذه هي المرة الثانية فقط التي ظهر فيها في بيتها. وقد أثار مظهر العم وابن الأخ فيها، كما في التي سبقتها، إحساساً بالعطف والإعجاب؛ فالأب دي سوليس عجوز في الثمانين من العمر، ذو شعر فضي، يظهر وجهاً مهدّماً كأن الحياة غارت من عينيه، وهو يمشي بصعوبة، إذ أن إحدى ساقيه النحيلتين تنتهي بقدم مشوّهة بشكل مرعب، وهي موضوعة في غلاف مخملي، وتلزمه باستعمال عكاز عندما لايستند إلى ذراع ابن أخيه. ظهره المقوّس وجسمه اليابس يظهران طبيعة متألّمة وواهية، تسيطر عليها إرادة من حديد وروح دينية طاهرة حافظت عليها. هذا الكاهن الاسباني الأصل المتميّز بمعرفة عميقة وورع حقيقي، ومعلومات شديدة السعة كان على التتابع دومينيكياً، ثم مرشداً روحياً في طليطلة، فوكيلاً عاماً لبطريركية مالين، ولولا الثورة افرنسية لأوصلته حماية آل كازا - ريال، إلى أعلى المراتب الكنسية، لكن الحزن الذي خلّفه موت الدوق الشاب، تلميذه جعله يسأم الحياة العامة، وينصرف بكليّته إلى تربية ابن أخيه، الذي تيتّم في سن مبكّرة. وخلال غزو

بلجيكة استقر قرب السيدة كلايس، وقد أظهر منذ شبابه حماساً للقديسة تريز قاده، مع ميل في تفكيره، إلى الناحية الروحية في المسيحية، وقد وجد في الفلاندر حيث للآنسة بورنييون[1] وكذلك للكتاب أصحاب الرؤيا والمتصوّفين الطمأنينيين[2] كثير من الأتباع، مجموعة من الكاثوليكيين أولعت بمعتقداته واعتبرته بطريركالها فعاش بينهم مستمراً واياهم على اتباع مذهب المتصوّفين رغم التحريم الكنسي لمؤلّفات السيدة غيون[3] وفنيلون[4]. كان صارماً في عاداته، ومثالياً في حياته، وقد عرف عنه أنه قدمرّ بحالات إشراق[5]؛ وبالرغم من الزهد الذي ينظر به كورع شديد التديّن إلى أمور هذا العالم، فإن الحبّ الذي يكنّه لابن أخيه جعله يهتم بمصالحه؛ وعندما يتطلب الأمر البذل لإحسان، فإن العجوز يحرّض المؤمنين في كنيسته على المساهمة بسخاء قبل أن يلجأ إلى ثروته الذاتية، وكان له من سلطته الأبوية النافذة، وغاياته الخالصة النقاء، ورجاحة فكره التي لاتضلّ، مايدفع الجميع إلى تلبية مطالبه أما التباين بين العم وابن أخيه فهو أشبه بالفرق بين شجرة السوحر العجفاء تمدّ جذورها ترتشف الحياة من ضفة النهر وطرد النسرين يمرع بالورد ويسامق بفرعه الزاهي السماء وهو يلفّ الشجرة المطحلبة يحول بينها وبين الإنهيار.

ربّى العم إمانويل بقسوة، واحتفظ به قربه كما تحتفظ السيّدة المسنّة بالعذراء، فامتلأت نفس الشاب بهذه الحساسية السريعة الانفعال، وهذه البراءة

---

(١) انطوانيت بورنيون: فتاة من ليل ولدت في العام ١٦١٦، وكانت شديدة الدمامة، اعتزلت الناس منذ صغرها وانصرفت إلى قراءة كتب التصوّف والرؤيا، تجوّلت في الفلاندر والمانية حتى موتها في العام ١٦٨٠ وألفت ما لايقل عن اثني وعشرين كتاباً في التعبّد الداخلي والتصوّف.

(٢) الطمأنينيين: اتباع مذهب يرى أن الكمال يقوم على حب الله وسكون الروح

(٣) مدام غيون (١٦٤٨ ـ ١٧١٧): كانت امرأة رائعة الجمال، ترملت وهي في الثامنة والعشرين، وانصرفت إلى حياة الزهد والتصوف.

(٤) فنيلون (١٦٥١ ـ ١٧١٥): رجل دين وتربية، كان مربياً لدوق دي بورغوني، عارض بيانه لويس الرابع عشر، فنقم عليه انسحب إلى دير، وله مؤلفات تربوية ودينية.

(٥) الاشراق: حالة يغيب فيها المتصوّف عن الشعور وعالم الحسّ.

نصف الحالمة، أزهار تمرّ على جميع الشباب لكنها ترسخ في النفوس التي تتغذّى بالمبادىء الدينية. لقد حشد الكاهن الشيخ خلاصة العواطف المثيرة لدى تلميذه فأعده لتحمل آلام الحياة بمشاغل متواصلة، ونظام أشبه بنظام الأديرة. هذه التربية التي من شأنها أن يطلّ منها إمانويل بكامل جدّته على المجتمع، فينعم بأوائل عواطف الودّ إن لقي الطيبة، أضفت عليه مظهراً ملائكياً أكسب شخصيته جاذبية تسحر الفتيات، فعيناه الخجلتان يتضاعف بريقهما بالتعبير عن نفس قوية شجاعة فيرفّ ألقهما في الروح كرنين تموّجات صوت البلور في السمع، ووجهه المعبر رغم انتظامه يستلفت النظر بحسن استدارته، ودقة تقاسيمه، والهدوء العميق الذي يكسب القلب الطمأنينة. كل شيء فيه متناسق، شعره الأسود، وعيناه وحاجباه بدكنتهما السمراء تبرز بياض بشرته وتلوّنها النضر، في صوته عذوبة متوقعة عن هذا الوجه الجميل، وحركاته الأنثوية تتوافق مع موسيقى صوته، والصفاء الحنون في نظرته؛ ويبدو أنه يجهل الجاذبية التي يثيرها التحفظ شبه الكئيب في موقفه، والاعتدال في كلامه، والعناية المغلّفة بالاحترام التي يحيط بها عمّه؛ فبرؤيته يدرس المشية المتعرّجة للكاهن العجوز ليتلاءم مع انعطافاته المؤلمة بطريقة لاتعاكسه، ويتطلع إلى البعيد ليتقي مايمكن أن يسبب الأذى لقدميه، وليقوده في المنحى الصائب يستحيل عدم الإقرار بما في نفس إمانويل عن عواطف كريمة تجعل من الإنسان كائناً سامياً. إنه يبدو كبيراً بمحبته لعمه دون أن يحاسبه، وبإطاعته له دون مناقشة وبالاسم العذب الذي أطلقته عليه عرّابته فرأى كل انسان فيه قدراً محبباً له؛ وعندما يفرض العجوز هيمنته كدومينيكي سواء في منزله أولدى الآخرين، فإن إيمانويل يرفع رأسه أحياناً بشهامة كأنه يحتج على قوته إن وجدت في صراع مع رجل آخر، بحيث أن أصحاب القلوب الكبيرة ينتابهم التأثر، مثلهم مثل الفنانين أمام تحفة متميّزة، فالعواطف الطيبة ترن أصداؤها في الروح أمام التصرفات الحيّة كمثل رنينها أمام إنجازات الفن.

كان إيمانويل قد رافق عمه عندما حضر لدى المؤمنة بورعه ليفحص

لوحات منزل كلايس، وعندما تلقت مرغريت من مرتا نبأ وجود الأب دي سوليس في الصالة الكبرى، تذرّعت بتعلّة لترى هذا الرجل الشهير، ولحقت بأمّها لتشبع فضولها، ودخلت بطيش تقريباً متكلفة الخفة التي تتذرع بها الفتيات لإخفاء رغباتهن، وصادفت قرب العجوز المكتسي بالسواد، والمنحني الظهر، والأورب، والشبيه بالجثة، وجه إيمانويل النضر العذب، وتلاقت نظرات هذين الشابين المتماثلين في فتوّتهما، وبراءتهما، معبرة عن الدهشة ذاتها.

لاشك أن مرغريت وإيمانويل قد تصوّر كل منهما الآخر في أحلامه، فقد خفض كل منهما عينيه ثم رفعهما بحركة مماثلة معبراً عن شعور مماثل؛ وتناولت مرغريت ذراع أمّها، وحدّثتها همساً بوقار، فاحتمت إن صحّ القول تحت جناح الأمومة وهي تمدُّ عنقها بحركة التمّ لترى إيمانويل الذي بقي من جهته يسند عمه بذراعه؛ وبالرغم من أن النور كان موزّعاً بمهارة لتظهر من خلاله قيمة كل لوحة، فإن ضعفه في الصالة كان ملائماً لهذه النظرات العابرة التي هي مصدر غبطة الأشخاص الخجولين. لاشك أنّهما لم يصلا حتى في التفكير إلى افتراض التجاوب العاطفي، لكن الاثنين كانا يشعران بهذا الاضطراب العميق الذي يهزّ القلب والذي يحتفظ الشاب بسره لنفسه سواء عن متعة أو عن حياء إن الانطباع الأوّل الذي يحدّد فيض الحساسية الكامنة طويلاً يتبعه لدى جميع الشبّان دهشة شبه رعناء تماثل تلك التي يشعر بها الأطفال عند سماع نغمات الموسيقى لأوّل مرّة؛ فبعض الأطفال يضحكون ثم يفكرون بما سمعوه، بينما بعضهم الآخر لا يضحك إلا بعدما ينتابه من تفكير، لكن أولئك الذين فطرت الروح فيهم لحياة الشعر أو الحبّ فيستمعون طويلاً، ويطلبون النغم مجدّداً بنظرة تتقد فيها اللذّة أو يفترُّ عنها التوق إلى اللانهائي. إن كنّا نَحِنُّ باستمرار إلى مرابع طفولتنا، وقد فطرنا على الإحساس بجمال النغم، بحيث نتذكر الموسيقى وحتى الأداة بمزيد من اللذّة، فكيف يمكننا أن نمنع أنفسنا من حبّ الكائن الذي كشف لنا لأوّل مرة عن نغمات الحياة؟ أليس القلب الأول الذي أوحى إلينا بالحبّ بمثابة الوطن؟. كان كل من إيمانويل ومرغريت، أحدهما

للآخر ذلك الصوت الموسيقي الذي ايقظ الإحساس، وتلك اليد التي أزاحت حجب الغيوم وكشفت عن الشواطىء التي تستحم بها شمس الهاجرة. فعندما توقفت السيّدة كلايس مع الكاهن العجوز أمام لوحة لغيد(1) تمثّل ملاكاً، مدت مرغريت رأسها لترى انطباع إيمانويل، وبحث الشاب بعينيه عن مرغريت ليقارن فكرة اللوحة الخرساء بفكرة المخلوقة الحيّة، أحسّ كلٌّ من الشابين بهذه الملاحظة اللاإرادية الفاتنة ونعما بها، وأطرى الكاهن الشيخ برزانة هذه اللوحة الجميلة، وتجاوبت معه السيدة كلايس لكن الشابين بقيا صامتين. هكذا تمّ اللقاء بينهما، وقد ساهمت إضاءة الصالة العامة المحاطة بالسريّة، وسكون المنزل، ووجود الأهل في نقش المعالم الحسّاسة لهذا السراب الضبابي في القلب؛ ثم أخذت الخواطر المبهمة التي أمطرت نفس مرغريت تهدأ، وتجلّت في روحها كالمدى الرائق، واصطبغت بشعاع متألق، وما أن تمتم إيمانويل ببعض عبارات يستأذن فيها السيدة كلايس بالانصراف حتى نشر هذا الصوت ذو النبرة العذبة المخملية في قلب مرغريت افتتاناً غريباً، متمتماً التجلّي المفاجيء الذي سبّبه إيمانويل والذي سيمرع لمصلحته إذ أن الرجل الذي يستخدمه القدر لإيقاظ الحبّ في قلب فتاة شابة يجهل غالباً ماقام به من عمل ويتركه غير مكتمل. انحنت مرغريت وقد تملّكها الذهول وأودعت في نظرتها معالم وداعٍ اصطبغ بالأسف لفراق هذه الرؤية الصافية الجذابة فكانت كالطفل الذي مايزال راغباً في الاستماع إلى الموسيقى التي أطربته، تمّ هذا الوداع في أسفل الدرج القديم أمام باب غرفة الجلوس وعندما رجعت إلى تلك الغرفة تابعت بنظرها العم وابن أخيه إلى أن اجتازا بوّابة المنزل المطلّة على الشارع وأغلقت خلفهما.

كانت السيدة كلايس منشغلة بمواضيع هامة أثارها التشاور مع موجّهها بحيث لم تلاحظ تغيّر سحنة ابنتها؛ وعندما ظهر الأب دي سوليس وابن أخيه لديها

---

(1) غيد (١٥٧٥ ـ ١٦٤٢) هو الفنّان الايطالي غيدو رنّي، وله لوحات عديدة تتمثّل فيها مشاهد دينية تظهر فيها صور ملائكة.

للمرة الثانية، كانت مشوّشة بشكل شديد بحيث لم تلاحظ الحمرة التي صبغت وجه مرغريت معبّرة عن اختمار الغبطة الأولى التي عمرت قلبها البكر، وتناولت الفتاة شغل أبرتها عندما أعلن عن حضور الكاهن وابن أخيه، وبدت كثيرة الاهتمام بما في يديها بحيث وجهت إليهما التحية دون أن ترفع نظرها، كما أن السيد كلايس ردّ التحيّة التي وجهها إليه السيد سوليس بطريقة آلية وخرج من غرفة الجلوس كرجل منصرف إلى مشاغله.

جلس الراهب الدومينيكي العجوز قرب تائبته، وهو يوجّه إليها تلك النظرات العميقة التي يسبر فيها غور النفوس، وقد أحسَّ بالكارثة لمجّرد رؤيته السيد كلايس وزوجته ـ قالت الأم «اذهبوا إلى الحديقة ياأولادي، وأنت يامرغريت أطلعي إيمانويل على أزهار خزامى والدك».

خرجت مرغريت نصف خجلى وقد أخذت بيد فليسيا وهي تنظر إلى الشاب الذي تورّد خدّاه وخرج من غرفة الجلوس ممسكاً بجان تجنباً للارتباك، وعندما وصل الأربعة إلى الحديقة انفصل جان وفليسيا وبقيت مرغريت ودي سوليس الشاب شبه منفردين فقادته إلى أمام مشتل الخزامى الذي رتبه لمولكينيه وفقاً لطريقة العام السابق.

ـ «أتحب أزهار الخزامى؟» سألت مرغريت إيمانويل بعد فترة صمت لم يجرّب الشاب أن يقطعها. إنها أزهار جميلة، ياآنسة، ولأجل محبتها يجب توفّر الذوق ومعرفة تقدير الجمال، إن هذه الأزهار تفتنني ولاشك أن اعتيادي العمل في الغرفة الصغيرة المعتمة التي أسكن بها قرب عمي جعلتني أفضل كل ماهو ناعم على النظر» تأمّل مرغريت وهو ينطق بالكلمات الأخيرة، لكن دون أن تتضمن نظرته المليئة برغبات مضطربة أي تلميح إلى البياض الرائق، والهدوء، والألوان الناعمة، التي تحوّل هذا الوجه إلى زهرة.

«أنت إذاً تعمل كثيراً» تابعت مرغريت وهي تقود إيمانويل إلى مقعد من خشب ذي مسند دهن باللون الأخضر.» انك من هنا لن ترى أزهار الخزامى عن قرب، وبذلك لن تتعب عينيك، فأنت على حق، إذ أن هذه الألوان تبهر البصر.

- أجاب الفتى بعد فترة صمت كان خلالها يسوّي بقدمه رمل الممر: «ماذا يشغلني؟ أمور كثيرة، إذ أن عمي يريد مني أن أصبح كاهناً».

- أوه! قالت مرغريت ببراءة.

- لقد قاومت إذ لا أشعر أنني مهيّأ لذلك، ولقد لزمتني شجاعة فائقة لمعارضة رغبات عمي فهو طيّب جداً، ويحبني كثيراً، ولقد دفع عني مؤخراً بدل الخدمة الالزامية، أنا اليتيم الفقير.

- ماهو توجّهك إذاً سألت مرغريت، التي بدرت منها حركة بدت وكأنها تريد العودة عن سؤالها. ثم أضافت «أرجو المعذرة، ياسيدي، على مابدر مني من فضول».

- «أوه، ياآنسة قال إيمانويل وهو ينظر إليها نظرة تحمل من الاعجاب قدر ماتحمل من الودّ، مامن شخص باستثناء عمي وجّه إليّ حتى الآن هذا السؤال. إنني ادرس لأكون أستاذاً. ماذا تريدين أن أعمل؟ لست غنياً، فإذا أمكنني أن أصبح مدير إحدى مدارس الفلاندر، فإنني أؤمن معيشة متواضعة، وسأتزوج امرأة بسيطة أخلص لها الحب. هذا ما آمله في الحياة. ربّما لهذا السبب أفضل زهرة ربيع يراها جميع الناس في سهل أورشي على هذه الخزامى المليئة بألوان الذهب والأرجوان والسفير والزمرد التي تمثّل حياة مترفة؛ بينما تمثّل زهرة الربيع حياة هادئة وأبوية، حياة الأستاذ القانع الذي سأكونه.

- قالت «لقد أطلقت دائماً، حتى الوقت الحاضر، على أزهار الربيع، اسم المرغريت» احمر ايمانويل دي سوليس بشدّة، وفتش عن جواب، وهو يحرّك الرمل تحت قدميه بعصبية، وقد حار في التعبير عن أيٍّ من الأفكار التي تواردت على خاطره، وقد شعر بحمقها، وأقلقه تأخره في الجواب فقال: «إنني لا أجرؤ على النطق باسمك ..» ولم ينه عبارته.

«استاذ!» تابعت القول.

- أوه، ياآنسة، سأصبح أستاذاً ليكون لي مهنة، لكنني سأجرّب وضع

مؤلفات تجعلني ذا فائدة كبيرة، إنني أشعر بميل كبير للدراسات التاريخية.

- «آه!»

كانت هذه الآه مليئة بأفكار مبهمة جعلت الشاب يزداد خجلاً ومن ثم أخذ يضحك ببلاهة وهو يقول: «إنك تجعلينني أتكلّم عن نفسي، يا آنسة، بينما كان الواجب ألا نتحدث إلاّ عنك.

- «إن والدتي وعمك قد أنهيا على ما أعتقد محادثتهما.» قالت وهي تنظر نحو نوافذ غرفة الجلوس.

- إنني أرى السيّدة والدتك متغيرة كثيراً.

- «إنّها تتألّم، وهي لا تريد أن تبيّن لنا سبب آلامها، ولا يمكننا نحن إلا أن نعاني من آلامها.»

كانت السيدة كلايس في الواقع قد أنهت استشارة حسّاسة تتعلق بمسألة وجدانية يعود التقرير فيها إلى رأي الأب دي سوليس، إذ أنها توقعت افلاساً كاملاً، لذلك أرادت أن تحتفظ دون علم بلتزار، الذي لايهتم كثيراً بأوضاعه المالية، بمبلغ معتبر مقتطع من ثمن اللوحات تكفّل الأب دي سوليس ببيعها في هولندة، وستخبيء هذا المبلغ وتحتفظ به إلى الأيام الصعبة؛ وبعد مداولة مترويّة، وبعد أن قدّر الراهب الدومينيكي الشيخ الظروف التي تمرّ بها تائبته أقرّ لها هذا التصرف الحكيم، وعمل على الاهتمام بعملية البيع التي وجب أن تتمّ سرّاً حتى لاتؤثر كثيراً على مقام السيد كلايس.

أرسل العجوز ابن أخيه مزوّداً برسالة توصية إلى امستردام، حيث نجح الشاب وقد سرّه أن يقوم بخدمة لآل كلايس، في بيع لوحات الصالة إلى المصرفيين الشهيرين هاب ودونكر بمبلغ ظاهر مقداره خمسة وثمانون ألف دوكات هولندية يضاف إليه مبلغ خمسة عشر ألف دوكات تدفع سرّاً للسيدة كلايس. وكانت اللوحات من الشهرة بحيث يكفي لإتمام الصفقة أن يجيب السيد كلايس على الرسالة التي وجهها إليه محل هاب ودونكر، وقد كلّف إيمانويل دي سوليس من قبل كلايس باستلام ثمن اللوحات التي شحنها سرّاً ليحجب نبأ هذا البيع عن مدينة دواي.

نحو نهاية شهر أيلول سدّد بلتزار ديونه، وحرّر من الرهن أملاكه، واستأنف أعماله، لكن بيت كلايس تجرّد من أجمل زينة فيه، لكن بلتزار وقد أعماه هوسه العلمي، لم تبدر عنه أيّة بادرة ندم، وكان يبدو على أتمّ الثقة بقدرته على تعويض بيع الوفاء[1] هذا. اللوحات المئة لم تعد تساوي شيئاً في عيني جوزفين تجاه السعادة المنزلية وغبطة زوجها، كما أنها ملأت الصالة باللوحات الموزّعة في أجنحة الاستقبال، ولتغطية الفراغ الذي بقي في القسم الأمامي من المنزل فإنها عملت على تغيير الأثاث؛ وقد بقي لبلتزار بعد أن سدّد ديونه نحو مئتي ألف فرنك يستطيع من خلالها معاودة تجاربه، أما الخمسة عشر ألف دوكات الخاصة بالسيدة كلايس فقد ائتمنت عليها الكاهن دي سوليس وابن أخيه اللذين باعاها مستغلّين ارتفاع قيمتها خلال الحرب القاريّة وخبأا حصيلة البيع البالغة مئة وستين الف فرنك في قبو المنزل الذي يسكنه الأب دي سوليس؛ ورأت السيدة كلايس بغبطة حزينة زوجها منصرفاً كلياً إلى تجاربه خلال ثمانية أشهر تقريباً؛ غير أنها وقد أصيبت بقسوة من جراء الصدمة التي حدثت لها وقعت فريسة داء الدَّنَف الذي أخذ يتفاقم بينما كان بلتزار غارقاً في علمه فلا التقلبات السياسية في فرنسة، ولا هزيمة نابوليون الأول، ولاعودة آل بوربون إلى العرش أمكنها أن تصرفه عن اهتماماته، فلم يعد لا زوجاً، ولا أباً، ولا مواطناً، إنّما هو كيميائي فقط.

وصل الضنى بالسيدة كلايس نحو نهاية العام ١٨١٤، إلى درجة لا تسمح لها بمغادرة السرير؛ ولم ترد أن تستسلم للخمول في غرفتها التي عرفت فيها أياماً سعيدة، حيث ذكريات سعادتها المتلاشية توحي إليها بمقارنات لا إرادية مع الحاضر الذي ترزح تحته، ففضّلت البقاء في غرفة الجلوس، وقد استجاب الأطباء لرغبتها عندما وجدوا هذه الغرفة مهواة جيّداً، ومفرحة، وأكثر ملائمة لوضعها من غرفتها، فنصب لها سرير بين المدفأة والنافذة المطلّة على

(١) بيع الوفاء: هو بيع أشياء ثابتة أو منقولة يتصرف بها الشاري لأجل معين يحق خلاله للبائع استردادها لقاء ثمن البيع مضافاً إليه مبلغ متفق عليه. حتى إذا انقضى هذا الأجل أصبح البيع قطعياً.

الحديقة، تقضي فيه تلك المرأة التعسة حياتها، فكانت تشغل أيامها الأخيرة بتقوى تزرع في روح ابنتيها اشعاع روحها؛ وقد أتاح الحبّ الزوجي الذي ضعف في مظاهره للحبّ الأمومي أن يتجلى. لقد زادت الأم من لطفها بقدر ما تأخّرت في التعبير عنه، وكجميع أصحاب النفوس الكريمة برهنت عن رقّة في العواطف كأنّها ندامة، فباعتقادها أنّها حرمت أولادها من حنان متوجّب لهم، كانت تسعى إلى التكفير عن أخطائها المتوهمة، فبذلت كل عناية، وكل انتباه يغمرهم بالغبطة. لقد أرادت بطريقة ما أن تحييهم في قلبها، وتظللهم بجناحيها الضعيفين، وتعوّضهم في يوم واحد عن كلّ الحب الذي لم تمتعهم به في أيام سابقة. كانت الآلام تمنح لمداعبتها وكلماتها دفئاً عذباً يفيض عن روحها تسكبه عيناها على أبنائها قبل أن تنطق به شفتاها بنبرات ملؤها النوايا الطيّبة، بينما تبدو يدها وكأنها تمسحهم ببركاتها.

لم تفاجأ مدينة دوي، بعد أن عاد آل كلايس إلى عادات ترفهم السابقة، أن يرتدوا الآن عنها، تحيط بهم العزلة، ولا يطأ دارهم زائر، ويستغني بلتزار عن إحياء حفل ذكرى زواجه؛ فقد بدا للمدينة أن مرض السيّدة كلايس يعتبر سبباً وجيهاً لهذا التغيّر، كما أنّ تسديد الديون أوقف التقوّلات السيئة؛ أخيراً فإن التقلبات السياسية التي طرأت على الفلاندر، وحرب المئة يوم، والاحتلال الأجنبي، أحاطت الكيميائي كلياً بالنسيان. كانت المدينة خلال هاتين السنتين معرضة غالباً للاحتلال، يتعاقب عليها مرّة الفرنسيون، ومرة الأعداء، وقد وفد إليها كثير من الغرباء، ولجأ إليها كثير من الريفيون، وحرمت من العديد من المصالح وطرحت على بساط البحث فيها العديد من القضايا والحركات والنكبات بحيث لم يعد أحد يفكر إلا بنفسه؛ فكان الأب دي سوليس وابن أخيه، والأخوان بييركين الأشخاص الوحيدين الذين يأتون لزيارة السيّدة كلايس، وتعرّضت خلال شتاء ١٨١٤ ـ ١٨١٥ لأشد الآلام كرباً، ونادراً ما يأتي زوجها لزيارتها فيقضي سويعات من بعد العشاء قربها، وبما أنّها لا تمتلك من القوة مايعينها على إجراء محادثة طويلة، فإنه لم يكن يتلفظ إلا بعبارة أو عبارتين متشابهتين

دوماً، ويجلس ويصمت ويسود في غرفة الجلوس سكون مرعب؛ ولم تكن تكسر هذه الرتابة إلا في الأيام التي يقضي فيها الأب دي سوليس وابن أخيه السهرة في منزل كلايس، وبينما يلعب الكاهن الشيخ وبلتزار بطاولة الزهر، تتسامر مرغريت وإيمانويل قرب سرير أمها التي تبتسم لغبطتهما البريئة دون أن تظهر كم هي طيّبة ومتألمة في روحها المعذّبة. كانت نسمة هذا الحب العذري الطرية تفيض موجة بعد موجة، وكلمة بعد كلمة، وكان تهدّج الصوت الذي يفتن هذين الشابين يحطم قلبها، والالتفاتة العابرة الذكية إلى المودّة السائدة بينهما، تردّها، وهي شبه ميّتة، إلى ذكريات الأوقات السعيدة الفتيّة التي تنعكس الآن مرارة كلها. كان إيمانويل ومرغريت من الرقّة بحيث يكبحان مظاهر الحبّ العذبة، كي لا يسيئا إلى امرأة متألّة يدركان غريزياً مدى عمق جراحها.

مامن أحد لاحظ حتى الآن أن للعواطف حياة خاصة بها، وطبيعة تنبثق عن الظروف التي تتولّد فيها، فهي تحتفظ بطبيعة الأماكن التي ترعرعت فيها، وبانطباع الأفكار التي أثّرت على نموها. هناك عواطف صيغت باضطرام وتبقى مضطرمة كعاطفة السيّدة كلايس نحو زوجها، وهناك عواطف خلقت في جو من الحبور فهي دائماً جذلى كاستبشار الصباح فجَنَى الغبطة فيها مترافق دائماً بالضحكات والأفراح. لكن يصادف أيضاً حبّ تغلّفه الكآبة دوماً أو تحيط به التعاسة، فمسرّاته شاقة، ومكلفة، ومثقلة بالمخاوف ومسمّمة بالندم، أو مليئة بالقنوط. كان الحب الكامن في قلب إيمانويل ومرغريت دون أن يدرك أحدهما أو الآخر أنّه الحبّ، هذه العاطفة التي تفتحت تحت قبة صالة كلايس العاتمة أمام كاهن عجوز قاس في لحظة صمت وهدوء، هذا الحبُّ الرزين المتروي، إنّما الخصب بالتلوّنات الناعمة، وبالمباهج الصامتة الشهيّ كعناقيد عنب اختطفت من زاوية كرمة؛ كان يتعرّض للون رمادي ومسحة قاتمة اصطبغ بهما منذ الساعات الأولى. هذان الفتيان بعدم جرأتهما على إظهار أي تعبير عاطفي واضح أمام هذا السرير من الألم كانا يزيدان دون أن يدريا من متعة تنطبع في قلبيهما. إنها الرعاية التي يحيطان بها المريضة وقد أحب إيمانويل أن يساهم بها وهو

سعيد بالانضمام إلى مرغريت وكأنه يعتبر نفسه مسبقاً إبناً لهذه الأم، وهي مظهر العرفان الكئيب تفتّر عنه شفتا الفتاة بدلاً من لغة العشّاق المعسولة. انّها آهات قلبيهما يمتلئان فرحاً بنظرة متبادلة، دون أن تتميّز كثيراً عن التنهدات التي يقتلعها مشهد الألم الأمومي. كانت الهنيهات الطيّبة لاعترافاتهما غير المباشرة، ووعودهما غير المكتملة، وبشاشاتهما المكبوتة أقرب إلى هذه الرموز التي رسمها رافاييل على أرضية سوداء. كانا كلاهما على يقين لا يفصحان عنه، إنّهما يعرفان أن الشمس فوقهما، لكنّهما يجهلان أيّة ريح ستطرد الغيوم الكبيرة القاتمة المتراكمة حول رأسيهما؛ انّهما يشكان بالمستقبل ويخشيان أن تلازمهما الآلام باستمرار؛ فهما باقيان بخجل في ظلال هذا الشفق دون أن يجرؤا على التساؤل: **هل سننهي سويّة هذا النهار؟** غير أن الحنان الذي كانت تبديه السيدة كلايس لأبنائها كان يخفي بشهامة كل مايتعلق بها؛ فأولادها لا يسبّبون لها ارتعاشاً ولارغباً، بل هم تعزيتها لكنهم ليسوا حياتها. إنّها تحيا بهم لكنها تموت لأجل بلتزار؛ فأياً كانت المشقة التي تعانيها من وجود زوجها شارداً خلال ساعات كاملة، يرميها من وقت إلى آخر بنظرة رتيبة، فإنها لاتنسى آلامها إلا خلال تلك اللحظات القاسية. إنّ لامبالاة بلتزار تجاه تلك المرأة المحتضرة يبدو إجرامياً للغريب الذي قد يشهده، لكن السيدة كلايس وابنتيها تعوّدتا على ذلك، فهن يعرفن قلب ذلك الرجل ويعذرنه؛ وإن تعرّضت السيدة كلايس خلال النهار لأزمة خطرة، إن تفاقمت حالتها وبدت وكأنها تكاد تنتهي، فإن كلايس وحده في البيت وفي المدينة يجهل ذلك، فلمولكنيه وصيفه يعرف، ولكن لا ابنتيه اللتين تلزمهما والدتهما بالصمت، ولا زوجته، يعلمنه بالأخطار المحدقة بالمخلوقة التي كان يهيم بها حباً؛ ففي اللحظة التي يسمع بها وقع خطواته في الرواق في موعد العشاء، تنتشي السيدة كلايس، فهي ستراه الآن، وتجمع قواها لتستمتع بتلك الفرحة؛؛ وفي اللحظة التي يدخل فيها يدبّ اللون بحرارة في تلك المرأة الشاحبة ونصف الميتة، وتستعيد مظهر الصحّة، فتبدو بهيئة كاذبة أمام العالم الذي يتقدم إلى قرب سريرها، ويمسك بيدها، فهي في

حالة جيِّدة بالنسبة إليه فقط؛ وعندما يسألها: «كيف أنت اليوم، يازوجتي العزيزة»؟ تجيب: «إنني أحسن، ياعزيزي» بحيث تجعل هذا الرجل الشارد يظن أنها ستنهض في اليوم التالي معافاة؛ فانشغال فكر بلتزار من الأهمية بحيث يخيَّل إليه أن الداء السائر بزوجته إلى الموت ماهو إلاَّ توعك بسيط. إنها محتضرة بالنسبة لجميع الناس، لكنها حيّة بالنسبة إليه. كانت نتيجة تلك السنة فرقةً تامة بين الزوجين، فكلايس ينام بعيداً عن زوجته، وينهض منذ الصباح لينحبس في مخبره أو في مكتبه، فلا يعود يراها إلاَّ بوجود ابنتيه أو بحضور صديقين أو ثلاثة يعودونها، وبذلك لم يعد يفكر بها. هذان الكائنان اللذان ألفا سابقاً التفكير المشترك، لم يعد لهما إلا نادراً تلك اللحظات من التواصل، والعفوية والبوح التي هي عماد حياة القلب، وجاء حين انقطعت فيه هذه المباهج على ندرتها؛ وكانت الآلام الجسمية عاملاً مساعداً لتلك المرأة المسكينة فأعانتها على تحمل فراغ وفُرقة كانا سيقتلانها لو أنّها ماتزال في حيويتها. لقد كانت آلامها من الشدّة بحيث كان يسعدها أحياناً ألا يشهدها من تكنُّ له الحب الدائم. كانت تتأمل بلتزار خلال فترة من السهرة وعندما تدرك أنه سعيد بوضعه، فإنها تتعلق بهذه السعادة التي سبّبتها له. كانت تكفيها هذه المتعة العابرة، فلا تتساءل عمّا إذا كانت ماتزال محبوبة، إنما تجهد للاعتقاد بذلك، وتنزلق على تلك الطبقة من الجليد دون أن تجرؤ على الضغط عليها خشية أن تحطّمها وتغرق قلبها في عدم مريع؛ ولمّا لم يطرأ أي حادث يعكّر هذا الهدوء وقد ساهم الداء الذي ينهش تدريجياً اسيدة كلايس في استقرار هذه الهدأة الداخلية بمحافظته على المودة الزوجية في وضع راكد، كان من السهل الوصول ضمن هذه الحالة القاتمة إلى الأيام الأولى من العام ١٨١٦.

نحو نهاية شهر شباط، جاء موثّق العقود بييركين يوجّه الضربة التي ستؤدي إلى القبر بتلك المرأة الملائكية التي وصف الأب دي سوليس روحها بأنها بدون خطيئة تقريباً. قال هامساً في لحظة كانت الابنتان بعيدتين بحيث لاتسمعان حديثه: «سيدتي، لقد كلّفني السيد كلايس بأن استدين له مبلغ ثلاثمئة ألف فرنك لقاء رهن أملاكه، فخذي حذرك من أجل مستقبل أولادكم».

ضمت السيدة كلايس يداها، ورفعت عينيها إلى السقف، وشكرت موثق العقود بانحناءة متسامحة من رأسها وابتسامة حزينة تأثر منها. كانت هذه العبارة بمثابة طعنة خنجر قاتلة لبيبتا. لقد انصرفت في ذلك النهار إلى أفكار حزينة زادت قلبها انتفاخاً، وجعلتها في إحدى تلك الحالات التي يفقدفيها المسافر توازنه، فيتدحرج مدفوعاً بحصاة صغيرة حتى أسفل الهوّة التي بقي فترة يسير بجرأة على حافتها. عندما انصرف موثق العقود طلبت السيّدة كلايس من مرغريت أن تحضر لها كل مايلزمها للكتابة، واستجمعت قواها وانشغلت لفترة من الزمن في كتابة وصيّة؛ توقفت مرات عديدة تتأمل ابنتها، لقد حان وقت الاعترافات، فمرغريت بإدارتها للمنزل منذ مرض أمها حقّقت جيّداً الرجاء الذي وضعته المحتضرة فيها بحيث أن السيدة كلايس ألقت نظرة خالية من القنوط على مستقبل عائلتها بعد أن رأت نفسها تُبعَث في هذا الملاك المحبّ والقوي. لاشكّ أن هاتين المرأتين استشعرتا مسارات حزينة متبادلة بينهما. ونظرت الفتاة إلى والدتها في الوقت الذي كانت فيه الوالدة تنظر إليها وترقرقت الدموع في عيون الاثنتين؛ فلعدّة مرات، وفي اللحظة التي كانت تتوقف فيها السيدة كلايس عن الكتابة هتفت مرغريت.» أيا أمي؟ وكأنها تريد البوح بكلام، ثم تتوقف وقد اختفت الكلمات في حلقها، دون أن تسألها الأم المنصرفة إلى أفكارها الأخيرة، عن سبب استفهامها. أخيراً أرادت الأم أن تختم رسالتها، وكانت مرغريت تمسك لها بشمعة، فتراجعت كي لايدفعها الفضول إلى قراءة العنوان لكن الأم قالت لها بصوت يتفطر ألماً: «يمكنك أن تقرئيه يا ابنتي» ورأت أمّها تعنون الرسالة بهذه الكلمات: «إلى ابنتي مرغريت». وأضافت وهي تضعها تحت وسادتها «سنتحدث بعد أن أستريح» وتهالكت على مخدتها وقد أضناها الجهد الذي بذلته، ونامت لعدة ساعات. عندما استيقظت كانت ابنتاها وابناها راكعين أمام سريرها يصلون بحرارة. كان ذلك يوم خميس وقد وصل غابرييل وجان للتوّ من كليّتهم يرافقهم ايمانويل دي سوليس الذي عين استاذاً للفلسفة والتاريخ.

«ياأولادي الأعزاء، حانت لحظة الوداع، لن تتركوني الآن! أنتم، ومن ...» ولم تنه كلامها.

هتفت مرغريت وهي ترى شحوب والدتها: «سيد إيمانويل، اذهب وخبّر والدي، أنّ والدتي قد ساءت حالتها.»

صعد سوليس الشاب إلى المخبر، وبعد أن أخبره لمولكينيه أن بلتزار سيأتي ليحدثه، وبعد طلب ملحّ من الشاب أجاب بلتزار بأنه سينزل

قالت السيدة كلايس لايمانويل عند عودته: «اذهب ياصديقي مع ولديّ واحضر لي عمك، إذ أن من الضروري أن أتناول القربان الأخير وأريده من يده» عندما وجدت نفسها وحيدة مع ابنتيها، أشارت إلى مرغريت التي فهمت ماتريد والدتها فصرفت فليسيا، وقالت مرغريت التي لم تكن مقدّرة لسوء الحالة التي أوصلتها إليها صدمة بييركين: «منذ عشرة أيام لم يبق لديّ مال أنفق منه على البيت ويترتب علي أجر ستة أشهر للخدم، وقد حاولت مرتين أن أطلب دراهم من والدي، لكنني لم أجسر. ألا تعلمين أن لوحات الرواق والقبو قد بيعت؟!

- «إنه لم يقل لي كلمة تتعلّق بذلك» هتفت السيدة كلايس. «ياإلهي إنك تستدعيني باكراً إليك، ماذا سيحل بكم يا أولادي المساكين؟ وراحت في صلاة حارّة لوّنت عينيها بوميض التوبة، ثم قالت بعد أن تناولت الرسالة من تحت وسادتها: «هوذا وصية لن تفتحيها ولن تقرئيها إلا في اللحظة التي تشعرين فيها بعد موتي أنّكم في ضيق شديد، أي إذا عزّ عليكم الخبز هنا. ياعزيزتي مرغريت، أحبّي جيّداً والدك، واعتني بأختك وأخويك، خلال أيام وربما خلال ساعات ستكونين على رأس هذا البيت كوني مقتصدة، وإن وجدت في موقف يتعارض مع إرادة والدك، وهذا مايمكن أن يحصل، إذ أنّه أنفق مبالغ كبيرة من المال سعياً وراء سرّ يعود بالمجد والثراء الواسع عليه، وسيحتاج دون شك إلى مال، وقد يسألك شيئاً منه، استخدمي عند ذاك كل حنان الابنة واعرفي كيف توفّقين بين المصالح التي ترعينها بمفردك وبين ما يتوجّب عليك لوالد، لرجل كبير ضحّى بسعادته، وبحياته من أجل شهرة عائلته، لايمكن أن يكون مخطئاً إلاّ في

الشكل أما غاياته فنبيلة دائماً، وهو فائق الطيبة، وقلبه مليء بالحب. سترونه دائماً طيباً ومحباً، أنتم! يجب أن أقول لكم هذه الكلمات وأنا على حافة القبر، إذا أردت أن تخففي عني سكرات موتي يامرغريت، فعديني يابنتي أن تأخذي مكاني في رعاية والدك، لاتسبّبي له أي حزن، لا تلوميه على شيء، لاتدينيه! أخيراً كوني وسيطة لطيفة ومتسامحة إلى أن يعود بعد إنهاء مهمته، رأساً مدبراً لعائلته.

- «إنني أفهمك ياوالدتي العزيزة، وسأفعل ماتريدينه» قالت مرغريت وهي تقبل عيني المحتضرة الملتهبتين.

- لا تتزوجي، ياملاكي، إلا بعد أن يتمكن غابرييل من أن يحلّ محلك في إدارة شؤون المنزل، فزوجك قد لا يقاسمك شعورك ويخلق الارتباك في العائلة، ويسبّب الألم لوالدك.

نظرت مرغريت إلى والدتها وقالت لها: «أليست لك أيَّة وصية أخرى تتعلّق بزواجي؟

- أتترددين يابنتي العزيزة؟ قالت المحتضرة بذعر.

- كلا، إنني أعد بطاعتك.

- يابنتي المسكينة، لم أعرف أن أضحي بنفسي من أجلكم، قالت الأم وهي تذرف الدموع الحارّة، وأنا أطلب منك التضحية من أجل الذين لارشد لهم هنا. اعملي بحيث لا يدينني اخواك أو أختك أبداً. أحبي جيّداً والدك، ولاتعارضيه ...كثيراً. ثم ألقت برأسها على الوسادة ولم تضف كلمة، فقد خارت قواها، فالمعركة الداخلية بين الزوجة والأم كانت عنيفة جداً.

بعد لحظات حضر كهنة المدينة يتقدمهم الأب دي سوليس، وامتلأت غرفة الجلوس بأفراد المنزل، وعندما بدأت مراسم القداس تطلّعت ا لسيدة كلايس، وقد أيقظها معرّفها، في وجوه الأشخاص حولها، ولما لم تر بلتزار سألت «أين السيد؟».

هذه الكلمة كانت تختصر حياتها وموتها، وقد لفظت بلهجة مثيرة للشفقة بحيث أحدثت قشعريرة مروّعة في الجمع.

انطلقت مرتا، رغم تقدّمها في السنّ، كالسهم وصعدت الأدراج وقرعت بعنف على باب المخبر وهي تصرخ بعنف ساخطة: «إن سيدتي تحتضر أيها السيّد، والكل بانتظارك لإقامة المراسم الدينية».

«إنني نازل» أجاب بلتزار.

حضر لمولكينيه بعد فترة، وهو يقول أن سيّده يتبعه، ولم تفتأ السيدة كلايس تنظر إلى باب الغرفة، لكن زوجها لم يظهر إلا بعد أن كادت المراسم تنتهي.

كان الأب دي سوليس والأولاد يحيطون بسرير المحتضرة، وقد احمرّت جوزفين وهي ترى زوجها داخلاً وانهمرت بعض دمعات على خديها، وقالت له بعذوبة ملاك دبّت القشعريرة في الحاضرين «كنت دون شك، على وشك تفكيك الآزوت!» هتف بصوت مرح: «لقد تمّ ذلك، فالآزوت يحوي الاوكسجين ومادة ذات طبيعة غير وازنة يحتمل أنها مبدأ .....»

ارتفعت همهمات استنكار تقاطعه وتعيد إليه حضور بديهته فتساءل: «ماذا يقال لي؟ أأنت في حالة سيئة؟ ماذا حدث؟»

«إن ماحدث، أيها السيّد، أن زوجتك تموت، وأنك قد قتلتها» همس الأب دي سوليس ذلك في أذنه ساخطاً واستند إلى ذراع إيمانويل دون أن ينتظر جواباً وخرج وقد تبعه الأولاد مودّعين حتى الفناء. وبقي بلتزار كالمصعوق وهو ينظر إلى امرأته، وقد اغرورقت عيناه بالدموع.

«تموتين، وأنا قد قتلتك! ماذا يقول؟» هتف صائحاً.

- ياعزيزي، لم أكن احيا إلا بحبك، وقد سلبت مني الحياة دون شعور منك.

- «اتركونا» قال كلايس للأولاد في اللحظة التي دخلوا فيها. هل انقطعت لحظة واحدة عن حبك؟ قال وهو يجلس قرب سرير زوجته ويأخذ يديها مقبلاً.

ـ لاألومك على شيء ياصديقي، لقد جعلتني سعيدة، سعيدة جداً، لا يمكنني أن أتحمل مقارنة الأيام الأولى لزواجنا التي كانت مترعة وهذه الأيام الأخيرة التي لم تكن فيها أنت ذاتك، وكانت خاوية. إن حياة القلب كحياة الجسد لها فعالياتها . ومنذ ست سنوات وأنت ميت بالنسبة للحبّ، والعائلة، وكل ما يسبّب سعادتنا ، لن أحدثك عن المباهج التي كانت وقفاً على مرحلة الشباب، إذ أنها تتوقف في خريف الحياة لكنها تترك ثماراً تتغذى منها الأرواح، وثقة لا حدود لها، وعادات لطيفة رقيقة، والواقع أنك حرمتنا من كنوز عمرنا هذه. إنني راحلة في الموعد المحدّد: لم نكن نحيا سويّة بأيّة طريقة، لقد أخفيت عني أفكارك وتصرفاتك. كيف يمكن إذاً أن تخشاني؟ هل وجّهت لك يوماً كلمة، أو نظرة أو حركة مشوبة باللوم؟ لقد بعت آخر لوحاتك، لقد بعت حتى خمور قبوك، لقد استدنت من جديد على أملاكك، دون أن تقول لي كلمة.

آه! إنني! إنني أخرج إذاً من الحياة، كارهة الحياة؛ فإن ارتكبت أخطاء، وإن ضللت وأنت تتابع المستحيل، ألم أظهر لك أنني أكن من الحبّ مايكفي لأجد حلاوة في مقاسمتك أخطائك، وأن أسير دائماً إلى جانبك،حتى لو سرت بي على طرقات الجريمة! لقد أفرطت في حبي: هذا هو اعتزازي، وهذا هو ألمي. لقد استمر مرضي مدة طويلة يابلتزار! إذ بدأمن هذا المكان الذي سأقضي فيه، في اليوم الذي برهنت لي فيه أنك تنتمي إلى العلم أكثر من انتمائك للعائلة. هوّذا امرأتك ميتة، وثروتك الخاصة مستهلكة. إن ثروتك وزوجتك يخصانك ويمكنك التصرّف بهما ، ولكن في اليوم الذي أغيب فيه، فإن ثروتي ستؤول إلى أولادك، ولايمكنك أن تأخذ منها شيئاً فماذا سيؤول إليه أمرك؟ إنني الآن مدينة لك بالحقيقة، فالمحتضرون يرون بعيداً! أين هو من ا لآن فصاعداً الثقل الموازن الذي سيعدّل ذلك الهوى الملعون الذي جعلت منه حياتك؟ إن كنت قد ضحيّت بي من أجله، فإنّ أولادك سيهونون عليك كثيراً، إذ يجب أن أتذكر بالتقدير بأنّك كنت تفضلني على الجميع. لقد رميت في هذه الدوّامة مليونين من الفرنكات وست سنوات من عمل متواصل، ولم تصل إلى شيء ....»

عند هذه الكلمات، وضع كلايس رأسه المبيّض بين يديه وخبّأ وجهه.

«لن تجد شيئاً إلا الخزي لنفسك، والشقاء لأولادك، إنّهم الآن يلقبونك بسخرية كلايس ـ السيميائي، وفيما بعد قد تصبح كلايس المجنون!

أما أنا، فإنني مؤمنة بك، أعرفك كبيراً وعالماً، ملؤك العبقرية، ولكن العبقرية بالنسبة للعوام تشبه الجنون؛ والمجد هو شمس الموتى، أمّا في حياتك فستكون تعيساً ككلّ من أصبح كبيراً، وستدمّر مستقبل أولادك. إنني أرحل دون أن استمتع بشهرتك التي كانت ستعزيني عمّا فقدته من سعادة. الواقع ياعزيزي بلتزار لأجل أن يكون موتي أقل مرارة، يجب أن أكون على يقين بأن أولادنا لن يفتقدوا قطعة الخبز، لكن لاشيء حتى ولا أنت يمكن أن يهدّىء هواجسي.

أقسم، قال كلايس، أن ....

ـ لا تقسم ياصديقي، حتى لا تحنث بقسمك. قالت مقاطعة له. لقد وجبت لنا عليك الرعاية، وقد حرمتنا منها منذ مايقرب من سبع سنوات. إن العلم حياتك؛ والرجل الكبير يجب ألا يكون له زوجة أو أولاد. اذهبوا وحدكم في طريقكم إلى الشقاء.

إن فضائلكم ليست فضائل الناس العاديين. إنّكم ملك العالم، فلا تعرفون أن تختصوا بامرأة أو بعائلة. إنّكم تمتصون الأرض التي تحيط بكم كما تفعل الأشجار الضخمة! أما أنا النبتة المسكينة فلا يمكنني الارتفاع عالياً فأنا أنتهي عند نصف حياتك.

لقد انتظرت هذا اليوم الأخير لأعبر لك عن هذه الأفكار الرهيبة التي لم اكتشفها إلاّ على بريق الألم والقنوط. جنب ذلك أولادي! فلترن هذه الكلمة في قلبك! سأقولها لك حتى نفسي الأخير. لقد ماتت الزوجة، ألا ترى ذلك؟ لقد جرّدتها ببطء وتدريجياً من عواطفها ومسرّاتها. للأسف لولا هذه العناية الشديدة التي اتخذتها لا إرادياً هل أمكنني العيش طيلة هذه المدّة؟ لكن هؤلاء الأولاد المساكين لم يهجروني، لقد كبروا قرب آلامي؛ هكذا صمدت الأم. حافظ، حافظ على أولادي».

«لمولكينيه!» صرخ بلتزار بصوت مدوٍّ، وظهر الخادم القديم أمامه فجأة. «اذهب واتلف كل شيء في الأعلى، الماكنات والأجهزة، افعل ذلك بحذر ولكن حطّم كل شيء. «لقد تخليت عن العلم»، قال موجّهاً الكلام لزوجته «لقد فات الوقت» قالت وهي تنظر إلى لمولكينيه. ثم هتفت وهي تشعر بدنو الأجل «مرغريت!» وبدت مرغريت على عتبة الباب، وأطلقت صرخة ثاقبة وهي ترى عيني أمّها تصفرّان، وردّدت المحتضرة «مرغريت!».

حوَت هذه الصيحة الأخيرة نداءً ملحاً لابنتها، انّها تقلّدها سلطة كبيرة، فهي بمثابة وصية.

هرعت العائلة مذعورة، ورأت السيدة كلايس تتلاشى بعد أن استنفدت القوى الأخيرة من حياتها في حديثها مع زوجها. وجمد بلتزار ومرغريت في مكانهما هي قرب رأس السرير وهو عند نهايته. والاثنان لايمكنهما التصديق بموت تلك المرأة التي لايعرف أحد مثلهما كامل فضائلها وحنانها الذي لاينفد؛ وتبادل الأب والابنة نظرة مثقلة بالأفكار: الفتاة قد أدانت أباها، والأب يرتعش إذ يرى في ابنته أداة انتقام، وبالرغم من أن ذكريات الحبّ التي ملأت بها زوجته حياته قد عادت بكثرة لتستقرّ في ذاكرته، وتمنح للكلمات الأخيرة للمتوفاة سلطة مقدسة يجب الإنصات دائماً إلى صوتها، فإن بلتزار كان يشك في قلبه الضعيف أمام عبقريته، ومن ثم فهو يسمع هدير هوى يرفض فيه قوة ندمه، ويجعله يخاف من نفسه.

عندما غابت تلك المرأة؛ أدرك كل واحد أن لبيت كلايس روحاً، وأن هذه الروح لم تعد موجودة. هكذا كان الألم على أشدّه في العائلة، بحيث أن غرفة الجلوس التي تخيّم عليها روح جوزفين بقيت مقفلة، فما من انسان يجرؤ على دخولها. إن المجتمع لايمارس أيّاً من الفضائل التي يطلبها من الأشخاص؛ وهو يرتكب الجرائم في كل ساعة، لكنه يرتكبها بالكلام، وهو يهيء للتصرفات السيئة بالسخرية كما يحطّ من قدر الجمال بالهزؤ. إنّه يسخر من الأبناء الذين يبكون كثيراً آباءهم، ويلعن أولئك الذين لايبكونهم كفاية، ومن ثم فهو يتسلى! إنّه

يتسلى بروز جثمان الموتى قبل أن تبرد. في مساء اليوم الذي قضت فيه السيدة كلايس؛ نثر أصدقاء تلك المرأة بعض الأزهار على قبرها بين جلستي لعب هويست، وقرّظوا محاسنها وهم يبحثون في ورق اللعب على «الكبّا والبستوني»؛ ثم بعد عدّة عبارات تثير الدمع التي هي ألفباء الحزن الجماعي والتي تقال بالنبرات نفسها، دون أن تتأثر العاطفة زيادة أو نقصاناً، في جميع مدن فرنسة، وفي كل ساعة، فإنّ كل فرد أخذ يحسب قيمة ذلك الميراث. كان بييركين أوّل من أبدى للمتحدثين عن هذا الحدث أن موت تلك المرأة الممتازة هو أفضل لها، فقد أشقاها زوجها كثيراً، لكنه أفضل بكثير لأبنائها أيضاً، فهي لاتتمكن من ردع زوجها الذي تعبده عن تبذير ثروتها، أما اليوم فإن كلايس لايتمكن من التصرف بمالها. راح كل واحد يقدّر تركة السيدة كلايس المسكينة ويخمّن مدخراتها (هل ادخرت؟ أولم تدخّر؟) ويحصي مجوهراتها، ويستعرض ملبوساتها، ويحسب ماتحويه أدراجها، بينما ماتزال العائلة المحزونة تبكي وتصلي قرب سرير المتوفاة؛ وبنظرة الخبير الوازن للثروات، اعتبر بييركين أن أملاك السيدة كلايس التي يمكن أن تحصر الآن يمكن أن تبلغ قيمتها نحو مليون ونصف فرنك وهي تتمثّل بغابة وينيي التي ارتفعت قيمة أخشابها في الاثنتي عشر سنة الأخيرة ارتفاعاً كبيراً، وحسب الضخمة منها والمنتقاة، والقديمة والحديثة؛ كما حسب أملاك بلتزار التي ماتزال ذات مردود بالنسبة لأولاده، إذا لم تمتد لاقتطاعها ديون التصفية، فالآنسة كلايس هي إذا، وفقاً لمنطق بييركين دائماً، الفتاة ذات الأربعمئة ألف فرنك. لكنه أضاف: «أما إذا لم تتزوّج سريعاً، وذلك مايؤمن لها الاستقلال بأموالها، وإزالة شيوع غابة وينيي، وتصفية حصص القُصّر من الأولاد واستعمالها بطريقة لايتمكن الأب من التصرف بها، فإن كلايس رجل سيبدّد هذه الثروة وهي نصيب أبنائه».

أخذ كل واحد يتساءل عن شباب المنطقة المؤهلين لطلب يد الآنسة كلايس ولكن مامن أحد تلاطف مع موثق العقود وافترضه من المرشحين لذلك؛ ووجد الموثّق بدوره الحجج لرفض الفرقاء المقترحين واعتبار كلا منهم غير جدير

بمرغريت، وكان المتحدثون يتغامزون باسمين وقد سرّهم إطالة هذه المسامرة الاقليمية الماكرة. لقد رأى بييركين في موت السيدة كلايس حدثاً ملائماً لطمعه وأخذ يقطع في تلك الجثة لمصلحته.

قال وهو يأوي إلى منزله «كانت هذه المرأة طيّبة لكنها مزهوّة كالطاووس، ولاشك أنها لم تكن ترضى بي صهراً لها. هيه! هيه! لماذا لا أناور الآن لأتزوج هذه الابنة؟ إن الأب كلايس رجل أسكره الكربون، وهو غير مهتم بأولاده، فإذا طلبت منه يد ابنته، بعد اقناع مرغريت بضرورة زواجها بسرعة لانقاذ ثروة أخويها وأختها، فإن الأب سيكون مسروراً لتخلصه من ابنة تربكه.

نام وهو يحلم بالمحاسن الزوجية في هذا العقد، ويتأمل جميع المغانم التي ستؤمّنها له هذه الصفقة، والضمانات المؤمنة لسعادته التي توفرها هذه الانسانة التي سيكون زوجاً لها. إنّ من الصعب أن يجد في الاقليم شابة بمثل رقة جمال وحسن تهذيب مرغريت، هي في حلاوتها وتواضعها كتلك الزهرة الجميلة التي لم يجرؤ ايمانويل على تسميتها أمامها، وقد خشي أن يكشف بذلك عن أمنيات قلبه الكامنة. إنّها أبيّة في عواطفها، ومتديّنة في مبادئها، وستكون زوجة عفيفة مخلصة، وهي لن تشبع الطموح الذي يخالج نفس كل رجل تقريباً عند اختيار امرأة، إنّما ترضي أيضاً كبرياء موثق العقود للمقام الكبير الذي تحظى به عائلتها في الفلاندر، وهي النبيلة الأبوين، وسيقاسمها زوجها هذه الحظوة.

في صباح اليوم التالي سحب بييركين من صندوقه بعض أوراق النقد ذات الألف فرنك وذهب يقدمها بمودّة لبلتزار ليجنبه المتاعب المالية وهو الغارق الآن في ظروف مؤلمة حزينة، وقد توقّع أن يتأثر بلتزار من هذه الالتفاتة الكريمة فيمتدحه مشيداً بشخصه وطيبة قلبه أمام ابنته، لكن ذلك لم يحدث؛ فقد وجد كلايس وابنته في ذلك الفعل بادرة بسيطة، وكانت آلامها من الحصر بحيث لا يخطر بييركين في بالهما؛ والواقع أن قنوط بلتزار كان من الشدّة بحيث أن الأشخاص المتهيئين للومه على سلوكه الماضي غفروا له، ليس باسم العلم الذي يبرّر أفعاله، إنّما لما أظهره من أسف لايعوّض مافات.

إن الناس يكتفون بالتكشير، وهم يستدُّون مما يعطون، دون أن يتحققوا من العيار. فالألم الحقيقي بالنسبة لهم مشهد، نوع من المتعة تهيؤهم لغفران كل شيء؛ حتى المجرم، في نهمه للانفعالات، يفي دون تمييز ذلك الذي يضحكه، وذلك الذي يبكيه، دون أن يسألهم حساباً عن الوسائل.

كانت مرغريت قد أنهت عامها التاسع عشر، عندما عهد إليها والدها بإدارة المنزل، وقد دان أخواها وأختها بورع لسلطتها خاصة وأن أمهم في اللحظات الأخيرة من حياتهم قد أوصتهم باطاعة اختهم البكر. بدت في ثوب الحداد وقد برز بياضها المتألق، كما أظهر الحزن رقتها وصبرها؛ ومنذ الأيام الأولى أعطت برهاناً جلياً عن هذه الشجاعة الانثوية، وهذه الرصانة الثابتة التي يتصف بها الملائكة المكلّفون بنشر السلام، وهم يلمسون بسعفهم الخضراء القلوب المتألمة. لكن إن تعوّدت، بإدراكها المبكر لواجباتها، أن تخفي آلامها، فإن هذه الآلام مافتئت تزداد شدة، والهدوء الخارجي الذي يبدو عليها لايتوافق مع عمق أحاسيسها، وقد قدّر لها أن تتعرّض في سن مبكرة لهذه التفجّرات الرهيبة في العاطفة التي لايتمكن القلب دائماً أن يحتويها. كان والدها يجعلها دائماً منحصرة بين السخاء الطبيعي للأرواح الشابة وصوت الضرورة الملحّة، فالحسابات التي طوّقتها غداة وفاة والدتها جعلتها في نزاع مع مصالح الحياة، في لحظة لاتتطلع فيها الفتيات إلا للمسرّات. انّها تربية الألم تتعرّض لها دائماً الطبائع الملائكية!

إن الحب الهادف إلى المال والتفاخر يشكل أكثر الأهواء عناداً، وهو ما دفع بيركين إلى عدم التأخر في خداع الوارثة؛ فبعد عدة أيام من ملازمة الحداد بحث عن مناسبة ليحدث مرغريت، وبدأ عملياته بمهارته يمكن أن تغويها. لكن الحبّ أكسب روحه بُعدَ نظر منعه من الاعتماد على مظاهر هي أكثر ملائمة للغشّ العاطفي، وجعله يظهر الطيبة، وهي طبع فيه، إنّها طيبة موثق العقود يخال نفسه عاشقاً عندما يفوز بالمال؛ واعتمد على قرابته المشبوهة، وعلى عادته المألوفة في تسيير أمور تلك العائلة والاطلاع على أسرارها، وعلى ثقته بتقدير

الأب وصداقته له، وتقديره أنه وهو في لامبالاته كعالم لم يخطط لأيّ مشروع مستقبلي لابنته، كما افترض أن مرغريت ليس لديها أي اصطفاء عاطفي. فهيّأ لتقديرها مسعى لا دور فيه للهوى إلا معتمداً على حسابات لم يستطع حجبها وهي الأكثر كرهاً لدي النفوس الشابة؛ وتبيّن بذلك أنه هو الساذج، بينما عرفت هي كيف تستخدم المواربة، ذلك أنه اعتقد أن من السهل التأثير على فتاة عزلاء ولم يقدّر مزايا الضعف.

قال لمرغريت وهو يتمشىّ معها في ممرات الحديقة الصغيرة: «يا ابنة العم العزيزة، إنك تعرفين رقّة قلبي، وتعرفين كم أنا مستعد لاحترام العواطف التي تخالجك في هذه الفترة. إن روحي الحسّاسة تؤلمني في مهنتي كموثق عقود، فأنا انسان ذو قلب يضطر إلى الاهتمام باستمرار بمصالح الآخرين، بينما يجب أن انساق مع العواطف العذبة التي تسكب السعادة في الحياة، وهكذا فإنني أتألم كثيراً لاضطراري لمكالمتك في مشاريع تتعارض مع حالتك النفسية؛ إنما يجب ذلك. لقد فكرت بكم كثيراً في الأيام الأخيرة، ولا بدّ أن أعترف بأن نكبة شاذة تجعل ثروة أخويك وأختك، وثروتك بالذات في خطر. ألا تريدين أن تنقذي عائلتك من دمار كامل؟.

- ماذا يجب أن أفعل؟ وهي شبه مذعورة من هذه الكلمات.

- تتزوجين، أجاب بييركين

- لن أتزوج مطلقاً، هتفت.

- ستتزوجين عندما تفكرين بوعي في الوضع الحرج الذي أنتم فيه

- وكيف يمكن لزواجي أن ينقذ...

- هذا ما انتظره منك، يا ابنة العم، إن الزواج يمنحك حقّ التصرف. قال مقاطعاً

- ولماذا أسعى إلى هذا الحق؟ سألت مرغريت.

- ليمكنك التملّك، يابنة العم الصغيرة، قال موثق العقود بلهجة المنتصر، وتابع «وفي هذه الحالة يحق لك بيع غابة وينيي لإزالة الشيوع وبالتالي فجميع ثيَم الميراث تحوّل إلى رأس مال نقدي وسيضطر والدك كوصي أن يضع أنصبة أخويك وأختك بحيث لاتتمكن الكيمياء أن تنال منها.

- وماذا سيحدث في حال العكس؟ سألت.

- عند ذلك يدير والدك أملاككم، وإذا عاد إلى التفكير بصنع الذهب، فيمكن أن يبيع غابة وينيي ويترككم عراة كصغار سان جان. إن غابة وينيي تساوي في هذا الوقت نحو مليون وأربعمئة ألف فرنك، ولكن مابين ليلة وضحاها قد يقطع والدك أخشابها فلا تعد الألف وثلاثمئة أربنت من الأرض العارية تساوي أكثر من ثلاثمئة ألف فرنك. أليس من الأحسن تجنّب هذا الخطر المؤكد تقريباً، بأن تعجلي باستحقاق القسمة بحقّك في التصرّف؟ إنك تنقذين بذلك الغابة من القطع الذي سيؤجّله والدك لأنه يلحق الضرر بك في تلك الفترة التي تروح الكيمياء فيها في سُبات، سيضطر والدك قطعاً لوضع أموال التصفية في التسليف لأمد طويل، والقيمة الاسمية حالياً هي تسعة وخمسون وهكذا سيحصل هؤلاء الأولاد الأعزاء على ريع خمسة آلاف ليرة لكل خمسين ألف فرنك، وبما أنه لا يمكن التصرف في رأس مال القصَّر فإن أخويك وأختك سيجدون عند بلوغهم سن الرشد أموالهم وقد تضاعفت.!بينما في الحالة المغايرفواقع الأمر... كما رأيت في السابق، فإن أباك قد أنقص أملاك والدتك، وستعرف مقدار النقص بالجرد فإن ظهر عجز يمكنكم أن تضعوا إشارة الرهن على أملاكه، وبذلك تنقذون شيئاً ما.

– «أفٍّ، إن في هذا تحقيراً لأبي، والكلمات الأخيرة لأمي لم يعفُ عليها الزمن بحيث لا أتذكرها الآن. إنّ أبي لا يمكن أن يسلب أولاده، إنّك تتنكرّ له يا سيّد بييركين». قالت وقد ترقرقت بعض دموع الألم في عينيها.

ـ لكن، يا ابنة العم العزيزة، إن عاد والدك إلى الكيمياء فـ...

ـ سيحلُّ بنا الدمار أليس هذا ما تريد قواه؟.

ـ أوه، الدمار الكلّي، صدقيني، يا مرغريت، قال وهو يأخذ يدها ويضعها على قلبه، «إنني أشعر انني مقصر في واجبي إذا لم أصر على ذلك، ومصلحتك وحدها...» قالت مرغريت بمظهر بارد وهي تسحب يدها: «أيها السيّد، إن مصلحة عائلتي بالطبع تتطلّب ألاّ أتزوّج، لقد حكمت أمي بذلك.».

ـ ابنة العم! صاح بيقين رجل المال الذي يشهد ثروة تضيع من يديه: «إنّك تنتحرين أنّك ترمين في البحر إرث إمك. الواقع سأبقى وفياً للصداقة الخالصة التي أكنّهالك! إنّك لا تعلمين كم أحبك، إنني أعبدك منذ اليوم الذي رأيتك فيه خلال حفلة الرقص الأخيرة التي أقامها والدك! لقد كنت رائعة؛ ويمكنك أن تفخري بصوت القلب عندما يتحدث عن المصلحة يا عزيزتي مرغريت؛ وبعد أن توقف لحظة قال: «نعم سندعو إلى مجلس عائلة، وسنعمل على منحك حق التصرّف دون استشارتك».

ـ لكن ما معنى حق التصرّف؟

ـ إنّه حقّ حيازة أموالك وإدارتها.

ـ إذا كان بالإمكان منحي هذا الحقّ دون زواج، فلماذا تريدني إذاً أن أتزوج؟ ومع من؟

جرب بييركين أن تحمل نظرته إلى ابنة عمّه مسحة من التدلّة لكن هذا التعبير يتناقض مع تحجرّ عينيه اللتين تعوّدتا حسن التجاوب مع المال، بحيث أن مرغريت لم تجد في هذا الودّ غير المتوقّع إلا سعياً إلى مصلحة.

ـ ستتزوجين الشخص الذي سيعجبك في هذه المدينة... إن الزوج ضروري الك، على الأقلّ من وجهة نظر المصلحة؛ فأنت ستواجهين والدك، فهل ستتمكنين من الصمود منفرده؟

ـ «نعم، أيّها السيد، سأعرف كيف أدافع عن أخويّ وأختي عندما يقتضي الأمر ذلك».

«يا للمدّعية المزعجة! قال بييركين في نفسه قبل أن ينطق بصوت عال: «كلا لن تتمكني من الصمود أمامه.»

ـ فلننه هذا الموضوع» قالت بحزم.

– وداعاً، يا ابنة العم، سأسعى إلى خدمتك بالرغم عنك، وسأبرهن لك عن حبي بحمايتي لك ضد نكبة يتوقعها جميع الناس في المدينة.

ـ إنني أشكرك على ما أبديته لي من اهتمام لكنني أرجوك ألا تقترح أو تعمد إلى أي إجراء يسبب أيّة مضايقة لوالدي.»».

بقيت مرغريت مستغرقة في التفكير وهي ترى بييركين يبتعد، وقارنت بين صوته الذي يرنّ مصلحة، وطرائقه المشابهة للنوابض في مرونتها، ونظراته المصبوغة بالتذلّل أكثر منها بالرقّة وبين عواطف إيما نويل التي تتسربل بشجو يتغنّى بغزل مكتوم صامت. مهما حدث ومهما قيل يوجد نوع من مغناطيسية مدهشة لا تخفى نتائجها أبداً؛ ورنّة الصوت والنظرة، وحركات الرجل المحبّ المشبوهة العاطفة يمكن تقليدها، ويمكن لممثل بارع أن يخدع إحدى الفتيات، لكن لأجل أن ينجح ألا يجب أن يكون وحيداً؟ إذا كان إلى جانب تلك الفتاة روح تهتز متوافقة مع عواطفها، ألا تتعرّف سريعاً على تعابير الحبّ الحقيقي؟ إن ايمانويل في تلك الفترة، كمرغريت، واقع تحت غيوم شكّلت منذ لقائهما، قضاءً وقدراً، جوّاً قاتماً فوق رأسيهما يحجب عنهما منظر سماء الحبّ الزرقاء، فتدلّهه نحو صفيّته يزيده ضعف الأمل حلاوة وغموضاً في مظاهره الورعة، فالفرق في المستوى الاجتماعي شاسع بينه وبين الآنسة كلايس. وليس له وهو الفقير، إلا اسم جميل يقدّمه لها، وهو لا يرى أيّة بارقة حظٍ في قبوله زوجاً لها. لقد انتظر دائماً بعض تشجيع أبت مرغريت أن تمنحه له تحت أنظار المحتضرة الخائرة. والاثنان بطهرهما المتكافىء لم يتبادلا حتى الآن أيّة كلمة حب؛ وغبطتهما هي تلك الغبطة الأنانية التي يضطر التعساء إلى القناعة بها منفردين. لقد ارتعشا منفصلين بالرغم من أنّهما قد تأثّرا بقبس ينطلق من رجاء واحد، ويبدو أنهما يخافان من نفسيهما، بإحساس كل منهما جيّداً بشعور الآخر، فإيمانويل يرتعد

عندما يلمس يد مليكته التي جعل قلبه صومعة لها، وأي تماس بينهما مهما كان شأنه يبعث في نفسه أحاسيس كثيرة الإثارة بحيث لا يتمكن من السيطرة على أهوائه الجامحة. لكن بالرغم من أنه لم تبدر منهما أيّة دلائل عابرة أو مستفيضة، بريئة أو جادّة، مما يجيز بها لأنفسهم حتى العشاق الأكثر حياءً، فإن كلا منهما يتربّع في قلب الآخر، وكلا منهما يعرف أنه مستعد لبذل أكبر التضحيات بالنسبة للآخر، وفي ذلك المسرّات الوحيدة التي يمكن أن يتذوّقاها.

منذ وفاة السيدة كلايس، اختنق حبهما الخفي تحت ألبسة الحداد، وتحوّل الجو الذي يعيشان فيه من اللون الرمادي إلى اللون الأسود، وانطفأت النضارة المشرقة بالدموع، وتبدّل تحفظ مرغريت إلى شبه برود إذ أنها حرصت على الوفاء بقسمها لأمّها، وبالرغم من أنّها أصبحت أكثر حرية من ذي قبل فإنّها غدت أكثر تصلباً؛ وقد التزم إيمانويل بحداد حبيبته مدركاً أن أيّة أمنية حب وأبسط مطلب يعتبر خيانة لشرائع القلب، وهكذا غدا هذا الحب الكبير خفياً أكثر من ذي قبل، وهاتان الروحانْ الناعمتان يصدر عنهما النغم ذاته ولكن تباعدُ بينهما الآلام، كما باعدت من قبل مظاهر حياء مطلع الشباب ثم احترام معاناة المحتضرة؛ لقد اقتصرا على لغة العيون الساحرة، والفصاحة الخرساء للتصرفات الوفيّة، وترابط ملتزم، وتآلفات شباب سامية هي خطوات أولى لحبٍّ في طفولته. كان ايمانويل يأتي كل صباح ليستفقد كلايس ومرغريت، لكنه لا يدخل إلى غرفة الطعام إلا عندما يحمل رسالة من غابرييل أو عندما يلح عليه كلايس للدخول، وتخلق النظرة العابرة الأولى نحو الفتاة في نفسه ألف فكرة مليئة بالودّ، ويعاني مما تتطلبه المناسبة من احتشام لا يتخلى عنه، فيقاسم البيت حزنه، وينثر أخيراً ندى دموعه في قلب صديقته بنظرة لا يخالجها أي قصد خفي.

هذا الشاب الطيّب ارتضى العيش في الحاضر متعلقاً بسعادة يظن أنها عابرة حتى أن مرغريت تلوم نفسها أحياناً لأنها لم تمدّ إليه يدها بسماحة قائلة له: «لنكن أصدقاء».

استمر بييركين في هواجسه بذلك العناد المماثل للصبر الفطري لدى الحمقى. إنّه يحكم على مرغريت وفق القواعد العادية التي ينظر بها الجمهور إلى النساء، لقد اعتقد أن كلمات الزواج، والحريّة، والثروة التي همس بها في أذن الفتاة ستنتش في روحها وستزهر عن رغبة سيستفيد منه، وتصوّر أن برودها تستر ومواربة؛ لكنه بالرغم من إحاطتها بعناية واهتمام رقيقين. لم يتمكن من حجب طرائقه الطاغية التي ألفها كرجل تعوّد أن يبتّ في المشاكل الكبرى المتعلقة بحياة العائلات، كان يتحدث لمواساتها بتلك الأقوال المبتذلة المألوفة لدى أبناء مهنته، ويلتف كالحلزون حول الآلام تاركاً عليها مسحة من عبارات جافة تزيل عنها قداستها؛ فرقته تملّق وهو يترك كآبته المختلفة على الباب، عندما يستعيد حذاءه المضاعف أو مظلّته، ويستخدم لهجة تتيحها له دالته الطويلة كأداة ليثبت مكانة في قلب العائلة وليقنع مرغريت بزواج أشهرَ سلفاً في كلّ المدينة.

كان الحبّ الحقيقي، والمخلص، والمبجّل يشكل تناقضاً واضحاً مع حبّ أناني محسوب. ما من شيء متجانس لدى كلا الرجلين. أحدهما يختلق هوى ويتسلّح من مزاياه القليلة ليتمكن من الزواج من مرغريت؛ والآخر يخفي حبه ويجزع إذا انكشف وفاؤه؛ وقد أمكن لمرغريت بعد فترة من الوقت من وفاة والدتها، وفي اليوم ذاته، المقارنة بين رجلين فقط وحتى أن تحكم عليهما، فالعزلة التي حكمت على نفسها بها حتى الآن لم تسمح لها بالاختلاط بالمجتمع، والوضع الذي وجدت فيه لا يسمح بأي منفذ للأشخاص الذين يمكن أن يفكروا بطلب الزواج منها بإجراء ذلك. ففي عصر أحد الأيام الجميلة من شهر نيسان، حضر إيمانويل بعد الغداء، في اللحظة التي خرج فيها السيد كلايس الذي تضايق من مسحة الحزن المخيّمة على بيته وأراد التنزّه لفترة من الوقت حول الأسوار؛ وتردّد إيمانويل في اللحاق ببلتزار، مستمداً بعض قواه الذاتية، ونظر إلى مرغريت وبقي جالساً؛ وخمّنت مرغريت أن الأستاذ يريد محادثتها واقترحت عليه المجيء إلى الحديقة وأرسلت أختها فليسيا لتساعد مرتا التي تعمل في

البهو الواقع في الطابق الأوّل؛ وذهبت لتجلس مع الشاب على مقعد على مرأى من أختها والمربية العجوز. قال الشاب وهو يرى بلتزار يمشي متمهّلاً في الفناء: «إنّ السيد كلايس يبدو غارقاً في الحزن كما كان غارقاً في أبحاثه العلمية. إن جميع الناس يرثون له في المدينة، إنّه شارد كرجل أضاع أفكاره، فهو يتوقّف دون سبب، ويتطلّع دون أن يرى».

إنّ لكل ألم تعبيره الخاص، قالت مرغريت وهي تحبس دموعها، ثم استأنفت بعد فترة توقّف، ماذا كنت تريد أن تقول لي؟.

أجاب إيمانويل بصوت غلب عليه التأثر: هل لي الحق يا آنسة، أن أخاطبك كما فعلت الآن، أرجو أن تتيقّني بأن رغبتي هي في أن أكون مفيداً لكم، ودعيني اعتقد بأن يمكن للاستاذ أن يهتمّ بمصير تلاميذه إلى درجة القلق على مستقبلهم إنّ أخاك غابرييل قد أتمّ الخامسة عشر من عمره، وهو في الصف الثاني، وبالتأكيد يجب توجيه دراسته وفق ما يتطلع إليه من عمل في حياته، ووالدك هو من يجب أن يقرّر هذا الأمر، لكن إن غاب ذلك عن ذهنه، ألا يعود هذا بالضرر على غابرييل؟ ألا يعتبر أيضاً معذباً للسيد والدك إن أبديت له ملاحظة عدم اهتمامه بولده؟ وفي هذه الظروف ألا يمكن أن تستشيري أخاك حول ميوله، وأن تجعليه يختار السبيل الذي عليه أن يسلكه بحيث إن أراد والده في المستقبل أن يجعل منه قاضياً أو إدارياً أو ضابطاً وجد لديه المعارف الخاصة لذلك.

إنني اعتقد أنكم لا ترضون لا أنت ولا السيد كلايس ببقاء غابرييل عاطلاً...

- أواه! أبداً، إنني أشكرك يا سيد إيمانويل، فأنت على حق، فوالدتي عندما جعلتنا نشتغل بالمخرّمات، وعلّمتنا بمزيد من العناية كيف نرسم، ونخيّط، ونطرّز، ونعزف على البيانو، كانت تقول غالباً إنها لا تعرف ماذا يمكن أن يحدث في الحياة، وعلى غابرييل أن يكون له اعتباره الشخصي وثقافته الكاملة، لكن أيّ المهن الأكثر تلاؤماً للرجل؟

ـ قال إيمانويل وقد ارتعش سعادة: «إن غابرييل، يا آنسة، هو في صفه، الأكثر ميلا للرياضيات، فإن أراد أن ينتسب إلى معهد البوليتكنيك، فإنني أعتقد أنه سيكتسب معارف مفيدة في جميع المهن؛ وسيكون عند تخرجه قادراً على اختيار المهنة التي يميل إليها؛ وبدون اعطاء حكم مسبق عن مستقبله تكونون قد كسبتم الوقت، فخريجو ذلك المعهد بامتياز يستقبلون في كل مكان بالترحاب[1]؛ لقد خرّج إداريين، ودبلوماسيين، وعلماء، ومهندسين، وقادة، وقباطنة، وقضاة، وصناعيين وأصحاب مصارف، فليس من المستغرب إذاً أن يتطلع شاب غني أو من أسرة نبيلة في دراسته إلى قبوله في ذلك المعهد، فإذا قرّر غابرييل ذلك، فإنني أطلب منك، أن تعهدي به إليّ! قولي أجَل!

ـ ماذا تعني بذلك؟

ـ «أريد أن أكون مشرفاً على دروسه» قال وهو يرتعش.

نظرت مرغريت ملياً إلى السيد دي سوليس، وأخذت يده وقالت له «نعمّ ثم أضافت بعد لحظة توقّف، كم أقدّر لك هذا الشعور الذي جعلك تختار بدقّة ما يمكن أن أقبله منك. إن في ما قلته لي دليلاً على مدى تفكيرك بنا إنني اشكرك» بالرغم من أن هذه العبارات قد قيلت ببساطة، فقد حوّل إيمانويل رأسه جانباً لكي لا تلاحظ الدموع التي ترقرقت في عينيه لغبطته عن فعلته السارّة بالنسبة لمرغريت.

«سآتي إليك غداً بأخويك فهو يوم عطلة» قال بعد أن استعاد بعض هدوئه؛ ونهض وحيّا مرغريت التي تبعته، وعندما أصبح في فناء الدار لاحظ أنها ما تزال في غرفة الطعام حيث أشارت إليه إشارة ودّ.

بعد العشاء حضر موثّق العقود لزيارة كلايس، جلس في الحديقة بين ابن عمه ومرغريت وعلى المقعد الذي كان يجلس عليه ايمانويل؛ وقال مخاطباً كلايس: «لقد جئتك يا ابن العم هذا المساء في موضوع عمل، لقد انقضى ثلاثة واربعون يوماً على وفاة زوجتك».

---

(١) هذه النظرةالمتفائلة حول خريجي ذلك المعهدتتناقض مع ما جاء في رواية «كاهن القرية»على لسان غريغوا رجيرار من أن هذا المعهد وغيره من المعاهد الكبرى هي مصانع لتخريج موظفين عاجزين.

- «إنّني لم أحصها»، قال بلتزار وهو يمسح دمعة انتزعتها كلمة «وفاة» المقالة شرعاً.

- «أوه، أيها السيّد كيف يمكن أن تثير...» قالت مرغريت وهي ترمق الموثّق بنظرة..

- لكننا، يا ابنة العم، ملزمون، نحن الآخرين، بأن نحصي المهل المحدّدة بموجب القوانين، وهذا ما يتعلّق بك وبشركائك الوارثين. إن أولاد السيد كلايس جميعهم قُصَّر، وعليه أن يقوم بجرد خلال الخمسة وأربعين يوماً التي تلي وفاة زوجته، بهدف تحديد قيَم التركة المشتركة، ألا يجب معرفة وضعها، وهل هي جيّدة أو رديئة لقبولها أو تركها كحقوق اسمية فقط للقاصرين».

نهضت مرغريت عند ذلك لكن بييركين قال: «ابقي يا ابنة العم فهذا الموضوع يتعلّق بك وبوالدك، إنكم تعرفون مدى مشاركتي لكم في حزنكم، ولكن يجب الاهتمام في هذا اليوم بهذه التفاصيل التي إن تأجّلت سببت لكم جميعاً الضرر. إنني في هذا الوقت أقوم بمهمتي كموثّق عقود للعائلة.

- «إنّه على حق» قال كلايس.

- ستنتهي المهلة خلال يومين، وعليّ إذاً أن أبدأ منذ نهار الغد بفتح محضر للجرد حتى ولو لم يكن الأمر متعلّقاً إلا بتأخير ضريبة التركة التي ستطالبكم بها مصلحة الضرائب. إن هذه المصلحة لا قلب لها ولا تهمّها العواطف، وهي تنهشنا بأنيابها في أيّ وقت. إذاً سآتي كل يوم، من الساعة العاشرة وحتى الرابعة، سآتي مع كاتبي والمحضّر المثمّن السيّد رابارليه، وعندما ننهي من المدينة سنذهب إلى الريف. أما ما يتعلّق بغابة وينيي فسنتحدث عنها فيما بعد. بعد توضيح هذا الامر لننتقل إلى نقطة أخرى، علينا أن نستدعي مجلس عائلة لتسمية مشرف على الوصي. إنّ السيّد كونينكس من بروج هو أقرب أقاربكم، لكنه قد غدا بلجيكياً! ويجب يا ابن العم أن تكتب إليه حول الموضوع لتعرف إن كان هذا النبيل سيستقر في فرنسة حيث أنّ له ملكية جميلة، ويمكنك أن تقنعه بالمجيء مع ابنته للسكن في الفلاندر الفرنسية، فإن رفض فإنّ علي أن أؤلف المجلس وفق درجات القرابة.

- «ماهو الغرض من الجرد؟» سألت مرغريت.

- لتسجيل الحقوق، والقيم، وما لكم وما عليكم، وعند ترتيب كلّ شيء يتخذ مجلس العائلة مراعاة لحقوق القاصرين الإجراءات التي يراها...

- قال كلايس وهو ينهض عن المقعد: «بييركين، قم بالإجراءات التي تراها ضرورية لحفظ حقوق الأولاد، لكن جنّبنا الأسى الذي سيعترينا إن رأينا ما يعود إلى عزيزتنا مطروحاً للبيع.. ولم ينه كلامه، إنما قال كلماته بمظهر فيه من النبل والتأثير بحيث أن مرغريت تناولت يد والدها وقبّلتها.

- «تعالوا إلى الغداء». قال بلتزار ثم بدا وكأنه يستعيد ذكرياته وهتف: «ولكن وفق عقد زواجي الذي أجريته وفق تقاليد مقاطعة هينو[1] لأعفي زوجتي في حال وفاتي مما يسببه الجرد من آلام، لا نحتاج بدورنا على الأرجح في حالتنا هذه إلى الجرد...

- «آه! ياللسعادة، هذا الجرد يسبب لنا مزيداً من الألم!» قالت مرغريت.

- حسن، سنفحص عقدكم غداً، قال الموثق مرتبكاً.

- «ألا تعرفه إذاً» سألته مرغريت.

قطعت هذه الملاحظة المداولة ووجد موثق العقود نفسه مشوّشاً بعد ملاحظة ابنة العم بحيث لا يمكنه الاستمرار، وقال في نفسه بعد أن غادر وأصبح في فناء الدار: «إن الشيطان يتدّخل، فهذا الرجل، على شروده يستعيد صفاء ذاكرته في اللحظة التي ستتخذ فيها إجراءات ضده، إنّ أولاده سيجرّدون من كل مالهم.

إنّ هذا مؤكدّ كالقول أن أربعة هي حصيلة اثنين زائد اثنين، ماذا يجدي حديث المصلحة مع فتيات في عمر التاسعة عشر لا يفهمن إلا بالعواطف. لقد أفرغت كلّ ما في جعبتي لأنقذ أملاك هؤلاء الأولاد باتخاذ وسائل نظامية وبالتفاهم مع الرجل النبيل كونينكس، والنتيجة! لقد صغرت في رأي مرغريت

(١) هينو: مقاطعة بلجيكية مركزها هامونس.

التي ستسأل والدها عن السبب الذي يدفعني إلى المطالبة بجرد تعتقد أن لا حاجة له؛ وسيجيبها السيد كلايس أن موثقي العقود لديهم هوس الإجراءات، وأنهم موثقون قبل أن يكونوا أقرباء، أو أولاد عم، أو أصدقاءً، أخيراً سيعتبرني من الحمقى...» أغلق الباب بعنف، وهو يرغي ضد الزبائن الذين يدمرون أنفسهم برقّة حساسيتهم.

كان بلتزار على حقّ؛ فلا حاجة لإجراء جرد. ولم يتحدّد شيء في وضع الأب تجاه أبنائه؛ ومرت عدّة أشهر دون أن يتبدّل الوضع في بيت كلايس؛ فغابرييل يسير بجدّ في دروسه موجّهاً من قبل السيد دي سوليس، وهو يعمل بانتظام، ويتعلّم اللغات الأجنبية، ويتهيّأ لإجراء الامتحان الضروري لدخول معهد البوليتكنيك؛ وفليسيا ومرغريت تعيشان في عزلة مطلقة، باستثناء ذهابهن خلال فصل الصيف إلى منزل والدهما الريفي اقتصاداً للنفقات؛ وقد اهتم السيد كلايس بأعماله وقام بوفاء ديونه مقترضاً مبلغاً كبيراً على رهن أملاكه، دون أن يتعرّض لغابة وينيي إلاّ بالزيارة؛ وفي منتصف العام ١٨١٧، خفّت أحزانه تدريجياً وتركته وحيداً أعزل أمام رتابة الحياة التي تثقل عليه بفراغها، لقد قاوم أولاً بشجاعة العلم الذي أخذ يستيقظ في نفسه شيئاً فشيئاً، ومنع نفسه من التفكير بالكيمياء، ثم عاوده التفكير بها لكنه لم يرد الانشغال بذلك بفاعلية، واهتم فقط بالدراسات النظرية، لكن هذه الدراسات المستمرّة أيقظت هواه المجادل. لقد تساءل عما إذا كان قد تعهد بعدم مواصلة أبحاثه، وتذكرّ أن زوجته لم ترد منه أن يُقسم على ذلك؛ وبالرغم من أنّه قطع على نفسه وعداً ألا يتابع حلّ مسألته، ألا يمكن أن يبدّل قراره في اللحظة التي يتوقع فيها نجاحاً. إنّه الآن في التاسعة والخمسين، وفي هذا العمر فإن الفكرة التي تسيطر عليه، أكسبته ثباتاً عنيفاً يبدأ عنده الهوس الأحادي، وقد ساعدت الظروف أيضاً على مخالفة تلك الأمانة المتأرجحة، فالسلام الذي نعمت فيه أوروبة قد أتاح سريان الاكتشافات والأفكار العلمية المكتسبة خلال الحرب وتبادلها بين العلماء في البلدان المختلفة التي لم تقم بينها علاقات منذ أكثر من عشرين عاماً؛ فالعلم إذاً

قد أخذ طريقه، وقد رأى كلايس أن تقدم الكيمياء قد توجّه، دون علم الكيميائيين، نحو الهدف الذي وضعه لأبحاثه؛ والأشخاص العاكفون على العلوم المتعمّقة يفكرون، كتفكيره، بأنّ الضوء، والحرارة، والكهرباء، والغلفانية، والمغناطيسية ما هي إلا نتائج مختلفة لسبب واحد، وأن الفروق التي توجد بين الأجسام التي اشتهر عنها أنّها بسيطة ناتجة عن اختلاف المقدار الذي تحويه من خلاصة مجهولة. زاد الخوف من أن يشاهد غيره يكتشف اختزال المعادن والمبدأ المشكلّ للكهربائية، وهما اكتشافان يقودان إلى حلّ المطلق الكيميائي، في ما سماه أهل دوي جنوناً، وحمل رغباته إلى ذروة لا يعرفها إلا الأشخاص الذين استهوتهم العلوم أو الذين عرفوا استعباد الأفكار؛ وهكذا فقد تملّك بلتزار هوى اشتد عنفه بمقدار طيلة زمن رقاده، وكانت مرغريت ترقب الحالات الروحية التي يمرّ بها والدها، ففتحت عند ذلك غرفة الجلوس، وأيقظت ببقائها فيها الذكريات الأليمة التي سبّبها موت أمّها، ونجحت، في الواقع، بإيقاظها تأسّفات والدها، في تأخير سقوطه في الهوة التي كان لا بدّ مع ذلك أن يسقط فيها. لقد أرادت أن تنطلق في المجتمع وألزمت بلتزار على أن يبحث عن وسائل للتسلية، وقد تقدّم إليها عدة طالبي زواج معتبرين شغلوا كلايس، بالرغم من أن مرغريت قد صرّحت أنها لن تتزوج قبل بلوغها سن الخامسة والعشرين.

رغم جهود ابنته، ورغم الصراعات العنيفة في بدء الشتاء عاد بلتزار سرّاً لمزوالة أبحاثه؛ ولما كان من الصعب إخفاء مثل هذه المشاغل عن النسوة الفضوليات، فإن مرتا قالت يوماً لمرغريت وهي تساعدها في ارتداء ثيابها «لقد ضعنا يا آنسة، فهذا الغول مولكينيه، الذي أحسبه شيطاناً مقنّعاً، إذ أنني لم أره يوماً يرسم إشارة الصليب، قد صعد من جديد إلى السقيفة، والسيّد والدك قد استقل السفينة التي تبخر إلى الجحيم ، أتضرّع إلى السماء ألاّ يقتلك كما قتل سيدتي العزيزة المسكينة.

- «هذا غير ممكن»، قالت مرغريت.

- تعالي لتشاهدي البرهان على عمله غير المشروع.

أسرعت الآنسة كلايس إلى النافذة، ولاحظت فعلاً دخاناً خفيفاً ينطلق من مدخنة المخبر.

فكّرت مرغريت في نفسها: «سأكون في الحادية والعشرين من العمر بعد عدة أشهر وسأعرف كيف أحول دون تبديد ثروتنا».

بانقياد بلتزار لهواه، أصبح بالضرورة أقل احتراماً لمصالح أولاده عما كان بالنسبة لمصلحة زوجته، فالحواجز هنا أقلّ ارتفاعاً، وضميره أكثر تساهلاً، وهواه أكثر عنفاً. وهكذا فقد مشى على طريق المجد، والعمل، والرجاء، والشقاء، باندفاع رجل ملؤه اليقين؛ وقد أخذ بالعمل، وهو متأكدٌ من النتائج، ليلاً ونهاراً، باندفاع رمى الذعر في قلب ابنتيه اللتين تجهلان قلة ما يحدثه الجهد المتواصل من أذى، إن كان الإنسان راغباً في عمله.

ما أن عاد الأب إلى تجاربه، حتى استغنت مرغريت عن كل ما هو غير ضروري على المائدة، والتزمت بتقتير البخلاء، وقد ساعدتها على ذلك بشكل باهر مرتا وجوزيت؛ ولم يلاحظ كلايس هذا التغيّر الذي يجعل الحياة مقتصرة على الضروريات فقط، فهو أوّلاً لا يتغدّى، ثم إنّه لا يغادر مخبره إلا في موعد العشاء، ومن ثم يذهب إلى النوم بعد بضع ساعات يقضيها بين ابنتيه في غرفة الجلوس دون أن يوجّه إليهما كلمة؛ وعندما ينسحب، يتقدم منهما بشكل آلي لتقبلاه على خديه متمنيتين له ليلة سعيدة. إن مثل هذا السلوك كان سيسبّب أكبر البلايا المنزليّة لو لم تتهيّأ مرغريت لممارسة سلطة الأم، وتتقي مساوىء هذا التصرّف غير المسؤول بهوى خفي.

كان بييركين قد انقطع عن زيارة ابنتي عمه مستنتجاً إحاقة الدمار الكامل بهما؛ فملكيات بلتزار الريفية التي كانت تؤمن دخلاً سنوياً مقداره ستة عشر ألف فرنك وتساوي نحو مئتي ألف إكو، غدت مرهونة على ثلاثمئة ألف فرنك. كان كلايس قد استدان مبالغ معتبرة قبل أن يرتد إلى الكيمياء، وكان دخله يكاد يكفي تسديد الفوائد فقط. لكن مع عدم التبصّر لدى الأشخاص المنصرفين كلياً إلى فكرة، فإنّه قد تخلّى عن إيجار الأرض لمرغريت تأميناً

لنفقات البيت، وفي حساب موثق العقود أن ثلاث سنوات ستكفي لحرق مداخيلهم وأن رجال العدالة سيأتون على ما أبقاه بلتزار. لقد قاد برود مرغريت بييركين إلى حالة من اللامبالاة شبه عدوانية، ومن أجل أن يعطي لنفسه حق رفض يد ابنة عمه إن ألمّ بها الفقر، كان يقول عن آل كلايس وبمسحة من الشفقة: «إنّ هؤلاء الأشخاص المساكين قد أفلسوا، وقد فعلت كلّ ما أستطيع لانقاذهم، ولكن ما العمل؟ إن الآنسة كلايس قد رفضت جميع الترتيبات القانونية التي تقيهم من الشقاء».

أمّا إيمانويل الذي سمي مديراً لثانوية دِوي بفضل توسط عمه وبمقدرته الفائقة التي أهلته لهذا المنصب، فكان يأتي كل يوم مساءً لزيارة الفتاتين اللتين. تستدعيان المربية العجوز للبقاء معهما عندما يذهب والدهما إلى النوم. كانت قرعة الباب الهادئة المميزة للشاب دي سوليس لا تتأخرّ أبداً، وقد اكتسب ثقته بنفسه منذ ثلاثة أشهر، بعد أن لقي العرفان الرقيق الصامت الذي استقبلت به مرغريت رعايته، فشعّ إشراق روحه النقية كالماسة دون شائبة، وأمكن لمرغريت أن تقدر مدى ما تتمتع به من قوة واستمرارية ترد من نبع لا ينضب، وراق لها أن ترى أزهارها تتفتح واحدة بعد الأخرى بعد أن استنشقت مسبقاً عطرها. في كلّ يوم، كان ايمانويل يحقّق أملاً من آمال مرغريت، ويسكب في المناطق المتهّللة للحبّ أشعة جديدة تطرد الغيوم، وتعيد إلى سمائهما صحوها، وتلوّن المواهب المرعة الدفينة حتى الآن في الظلُ. لقد أمكنه، وقد لاقى التشجيع أن يفصح عما في قلبه من مغريات كانت حتى الآن خبيئة برصانة: هذه البهجة المتفتحة في زهوة الشباب، وهذه البساطة التي تمنحها حياة مليئة بالدراسة، وكنوز ذهن مرهف لم يفسده المجتمع، ودعابات بريئة تتلاءم مع شباب مغرم. كانت روحه وروح مرغريت تزدادان تفاهماً، فهما يغوصان سويّة إلى أعماق قلبيهما فيجدان فيهما الأفكار ذاتها: لآلىء ذات بريق واحد، إيقاعات حلوة ونضرة مماثلة لتلك التي تزخر بها أعماق البحار، والتي يقال أنها تفتن الغواصين. لقد ازداد كل منهما معرفة بالآخر بهذه الملاحظات المتبادلة، وهذا

الفضول المتناوب الذي يأخذ لدى كليهما أشكال العاطفة الأكثر عذوبة. كل شيء يتمّ بدون خجل مزّيف ولكن ليس بدون ملاحظات متبادلة. لقد جعلت الساعتان اللتان يقضيهما إيمانويل، كل أمسية، بين هاتين الشابتين ومرتا، مرغريت ترتضي حياة المرارة والاعتزال التي التزمت بها، فهذا الحبّ المتدرّج ببراءة كان سنداً لها. كانت بيّنات المودّة تقترن لدى ايمانويل بتلك الرقة الطبيعية التي تفتن، وذلك الذهن الدقيق الصافي الذي ينوّع انتظام العاطفة كما تزيل الوجيهات رتابة الجوهرة الثمينة وتجعل كل وهجها بتألّق. إنّها طرق مدهشة لا تعرف سرّها إلا القلوب العاشقة وتجعل النساء طيّعة أمام اليد الصنّاع التي تجدّد فيهن دائماً الشكل، ومصغية إلى الصوت الذي لا يكرّر جملة واحدة دون أن يطرحها بترنّمات جديدة. إنّ الحبّ ليس فقط عاطفة، إنّما هو فنّ أيضاً. كلمة بسيطة، احتراس، تفاهة تكشف للمرأة الفنان الكبير السامي الذي يمكن أن يلامس قلبها دون أن ينويه؛ ذلك كان إيمانويل كلّما استرسل، كلّما زادت تعابير حبّه جاذبية.

قال لها ذات مساء: لقد سبقت بييركين، فهو آت لينقل إليك نبأ سيّئاً. ففضّلت أن أعلمك به بنفسي. لقد باع والدك غابتكم إلى مضاربين جزؤوها وباعوها مجدداً، وقد قطعت أشجارها، ورفعت روافدها؛ وتلقى كلايس ثلاثمئة ألف فرنك نقداً دفعها تسديداً لديونه في باريس بل واضطر إلى استلاف مئة ألف فرنك لاتمام السداد كلياً، على المئة ألف إكو التي تتوجب له على المشترين مستقبلاً، دخل بييركين وهو يقول: «إيه، يا ابنة العم العزيزة، ها قد أفلستم لقد توقعت لك ذلك، لكنكم رفضتم الإصغاء لي. إن شهية والدك مفتوحة، وقد ابتلع غابتكم من اللقمة الأولى. إن المشرف على وصيتكم السيد كونينكس في امستردام، حيث يقوم بتصفية ثروته وقد استغل كلايس الفرصة ليقوم بضربته، والأمر غير جيّد وقد كتبت عن ذلك للرجل الطيب كونينكس، ولكن عندما يصل يكون كلّ شيء قد استهلك، وستكونون ملزمين بملاحقة والدكم قضائياً؛ ولن تطول الدعوى إنّما ستكون شائنة، فالسيد كونينكس لن يستطيع اعفاء نفسه من

إقامتها لأن القانون يلزمه بذلك. هذه هي ثمرة عنادك، اتعترفين الآن بمدى حرصي واخلاصي لمصالحكم.

ـ قال دي سوليس الشاب بصوت عذب: «إنني أحمل إليك نبأ طيّباً يا آنسة، فغابرييل قد قبل في معهد البوليتكنيك، وقد ذللت العقبات التي تعترض ذلك».

شكرت مرغريت صديقها بابتسامة وقالت: «لقد أصبح لمدخراتي مقصداً! إننا ستهتم يا مرتا، منذ نهار غد، بجهاز غابرييل، وأنت يا عزيزتي فليسيا ينتظرك عمل كثير لمعاونتي. قالت وهي تقبل أختها على جبينها.

ـ سيقضي اعتباراً من نهار غد عشرة أيام بينكم، إذ يجب أن يكون في باريس في ١٥ تشرين الثاني.

قال موثّق العقود وهو يرمق مدير الثانوية شذراً: «لقد اتخذ ابن العم غابرييل قرارٌ جيّداً وسيكون بحاجة إلى تكوين ثروة. لكن يا ابنة ابعم العزيزة، إن الأمر يتعلّق بانقاذ شرف العائلة. أتريدين هذه المرّة الاستماع لي؟

ـ كلاّ، إن كان الأمر ما يزال متعلقاً بالزواج.

ـ لكن، ماذا تفعلين؟

ـ أنا، يا ابن العم؟ لا شيء.

ـ مع أنّك قد بلغت سن الرشد.

ـخلال بضعة أيام، هل لديك اقتراح تعرضه عليّ يمكن أن يوفّق بين مصالحنا وما يتوجّب علينا نحو والدنا، ونحو شرف العائلة؟

ـ يا ابنة العم، إنّنا لن نتمكن من أي تصرّف بدون خالك. أما والأمر هكذا فسآتيكم عند عودته.

ـ وداعاً، يا سيّدي. قالت مرغريت.

«كلّما ازدادت فقراً، ازدادت تزمّتاً، قال موثّق العقود في نفسه ثم هتف

بصوت عال» وداعاً يا آنسة، وأنت يا سيدي المدير لك تحيّتي الخالصة، وغادر المكان دون أن ينتبه إلى فليسيا أو مرتا.

«منذ يومين، وأنا أدرس ما يتعلق بهذه القضية قانونياً، وقد استشرت محامياً عريقاً هو صديق لعمي، وإذا أذنت لي فسأسافر إلى امستردام غداً، أصغي إليّ يا عزيزتي مرغريت...» نطق بكلمة «عزيزتي» للمرة الأولى، وشكرته مرغريت بنظرة مغرورقة بالدمع، وابتسامة وإحناءة رأس. لكنه توقّف واتجه بنظرة إلى فليسيا ومرتا.

قالت مرغريت: «تكلّم بصراحة أمام أختي، فهي ليست بحاجة إلى المجادلة لتقتنع بما في حياتنا من حرمان وجهد. إنّها غاية في الشجاعة واللطف، لكن يجب أن تعرف كم تلزمنا الشجاعة الآن.

شدت كلّ أخت بحرارة على يد أختها، ثم تعانقاً وكأنهما يثبتان عهداً جديداً على موقفهما الموحّد أمام النكبات.

«اتركينا، يامرتا».

استأنف ايمانويل وقد أتاح لتغيّر نبرة صوته أن يعبّر عن السعادة التي غمرته بفوزه بأدنى حقوق المودّة: يا عزيزتي مرغريت، لقد حصلت على أسماء وعناوين الشارين المتوجّب عليهم مبلغ مئتي ألف فرنك متبقية من ثمن الأشجار المقطوعة. فإذا طلبت من أحد المحامين أن يتصرّف باسم السيد كونينكس الذي لن يتنصلّ من ذلك، ويبلّغ المحامي الشارين معترضاً على التسديد، خلال ستة أيام، يكون خال والدتك قد عاد، فيدعو مجلس عائلة ويطلب لغابرييل البالغ من العمر ثمانية عشر عاماً حق التصرّف، وينيلك مع أخيك هذا الحقّ تطلبان نصيبكما من ثمن أشجار الغابة، ولن يتمكّن السيد كلايس من رفض تسليمكما المئتي ألف فرنك التي جمّدها الاعتراض. أما المئة ألف فرنك الأخرى المستحقة لكما فيمكنكما أن تضعا رهنا على البيت الذي تسكنونه تأميناً لها. كما أن السيّد كونينكس سيطلب ضمانات لقاء مبلغ ثلاثمئة ألف فرنك الذي هو نصيب

فليسيا وجان. في هذه الحالة سيكون والدك ملزماً بالسماح برهن أملاكه في سهل أورشي المثقل سابقاً بدين مئة ألف إكو، لكن القانون يعطي أفضلية ذات مفعول رجعي للإجراءات المتخذة لمصلحة القاصرين كل شيء سينقذ بذلك، وسيكون السيد كلايس مقيّد اليدين، فأراضيكم غير قابلة للتصرف، ولن يتمكن من الاستدانة على أملاكه المثقلة بديون أكبر من قيمتها، كما تتم جميع هذه الإجراءات عائلياً، دون فضائح أو قضايا، وسيضطر والدك للتروي في أبحاثه، هذا إذا لم يتوقف عنها نهائياً.

- نعم، لكن أين المداخيل، إن المئة ألف فرنك المسجّلة لقاء رهن هذا البيت لن تدرّ علينا لأننا ساكنون فيه، وما تغلّه أملاك والدي في سهل أورشي يسدّد فوائد ثلاثمئة ألف فرنك المتوجّبة للغرباء، فمن أين ننفق على معيشتنا.

- أولاً بوضع مبلغ خمسين ألف فرنك الباقية من حصة غابرييل في الاستثمار العام وسيكون لكم بمعدل الفائدة الحالية دخلاً يقدر بنحو أربعة آلاف ليرة تكفي لمعيشة غابرييل ومصاريفه في باريس، وهو لن يتمكّن من التصرّف بالمبلغ المترتب على رهن منزل والده ولا من المبلغ الموضوع في الاستثمار، وبذلك لن تخشوا أن يبدّد دانقاً عدا عن تأمينكم لنفقاته؛ ومن ثم ألا يتبقى لكم مئة وخمسون ألف فرنك؟!

- «سيطلبها والدي ولن استطيع أن أرفض له طلبه». قالت بذعر.

- حسن ياعزيزتي مرغريت، يمكنك إنقاذها أيضاً بتجرّدك منها. ضعيها في الاستثمار الطويل الأجل باسم أخيك، وسيعطيكم هذا المبلغ فائدة اثنتي عشرة أو ثلاث عشرة ألف ليرة سنوياً تؤمّن نفقات عيشكم؛ والقاصرون المفوّض بإدارة أملاكهم لا يمكن التنازل عن شيء منها دون العودة إلى مجلس العائلة، وهكذا فستربحون ثلاث سنوات من الطمأنينة، قد يجد خلالها والدك ما يبحث عنه أو سيتخلّى عنه على الأرجح ويمكن لغابرييل الراشد أن يسترد المبالغ الموضوعة في الاستثمار لتتقاسموها فيما بينكم أنتم الأربعة.

استفهمت مرغريت من جديد عن إجراءات قانونية أُغلق عليها فهمها سريعاً، وكان مشهداً جديداً رؤية الحبيبين منكّبين على دراسة المرجع القانوني الذي أحضره إيمانويل لشرح الأسس الناظمة لإدارة أملاك القاصرين، وقد أدركت سريعاً مضمونها بفضل ما قطرت عليه النساء من فطنة يزيد الحب من نباهتها.

في اليوم التالي عاد غابرييل إلى البيت الأبوي وقد رافقه السيد دي سوليس معلنا لوالده قبوله في معهد البوليتكنيك، فأجاب الوالد شاكراً المدير بإشارة من يده وهو يقول: إنني جدّ مرتاح لهذا النبأ، سيصبح غابرييل عالماً إذاً.

- «آه! يا أخي، قالت مرغريت وهي تشاهد والدها يصعد إلى مخبره. «اعمل جيّداً، لا تبذّر في الانفاق! قم بواجباتك، وكن مقتصداً، في الايام التي تخرج بها إلى باريس، اذهب إلى أصدقائنا أو أقربائنا كي لا تتعرّض إلى الإغراءات التي تفسد الشباب. ستصل مخصصاتك إلى نحو ألف إكو، سيتبقى لك منها نحو ألف فرنك لقضايا لهوك، ويجب أن تكفيك.

«إنني أضمنه» قال ايمانويل دي سوليس، وهو يربّت على كتف تلميذه.

بعد شهر، تمكّن السيد كونينكس، بالاتفاق مع مرغريت، أن يحصل من السيد كلايس على الضمانات المرغوبة. وتمّت الموافقة على جميع الترتيبات التي هيّأها بحكمة ايمانويل دي سوليس ووضعت موضع التنفيذ، فبموجب القانون، وأمام استقامة قريبه الخالصة التي لا تتساهل أبداً في قضايا الشرف، كان يلتزار خجلاً من البيع الذي وافق عليه في فترة ضايقه فيها دائنوه فاضطر إلى الإذعان إلى جميع مطالبهم. كان مغتبطاً لأن بالإمكان استدراك الخطأ الذي سببه بشكل لا إرادي تقريباً لابنائه، فوقّع على جميع الصكوك بانشغال العالم، لقد أصبح عديم التبصر تماماً، على طريقة ذلك العبد الذي يبيع امرأته صباحاً في سبيل كأس من خمر، ثم يبكيها مساءً، لم يكن يلتفت حتى لمستقبله الأكثر قرباً، ولا يفكرّ بموارده التالية وهو ينفق آخر إكو معه. لقد تابع أبحاثه، واستمر

في مشترياته، دون أن يدرك بأنه لم يعد إلا المالك ظاهرياً لمنزله ولأملاكه، وأن ضوابط القوانين القاسية تجعل من المستحيل عليه أن يحصل على فلس واحد من الأملاك التي هو حارسها القضائي.

- انقضت سنة ١٨١٨ دون أي حادث مكرّر، إذ تمكنت الفتاتان من تسديد نفقات دراسة جان وتأمين مصاريف المنزل من ريع المبلغ الذي وضع في الاستثمار باسم جان، وقد بلغ هذا الريع ثمانية عشر ألف فرنك سنوياً يرسل نصفها كل ستة أشهر بانتظام من قبل الأخ.

توفي الكاهن عم دي سوليس في شهر كانون أول من ذلك العام؛ وفي ذات صباح، أنبأت مرتا مرغريت أن والدها قد باع مجموعته من أزهار الخزامى الفريدة، وأثاث المنزل الأمامي، وجميع الفضيات؛ فاضطرت أن تشتري أطباقاً وأدوات مائدة ووسمتها بأحرف اسمها الأولى.

لقد التزمت حتى الآن بالصمت، تجاه جميع التبديدات التي قام بها والدها، لكنها في ذلك المساء، وبعد العشاء، طلبت من فليسيا أن تتركها منفردة معه، وعندما جلس وفق عادته في زاوية قريبة من مدفأة غرفة الجلوس، قالت له مرغريت: «يا والدي العزيز، أنت حرٌ في أن تبيع كلّ شيء هنا، حتى أولادك، ونحن هنا سنطيعك دون تذمرٌ، ولكنني ملزمة بأن ألفت نظرك إلى أننا بدون أي مبلغ من المال، وما لدينا لا يكفي لاستمرار معيشتنا هذه السنة، وسأضطر أنا وفليسيا للعمل ليلاً ونهاراً في ثوب من الدانتيل لنتمكن بواسطة ثمنه من تسديد أقساط المدرسة الداخلية لجان. إنني أتوسّل إليك، يا أبي الطيب، أن توقف تجاربك.

- إنّك على حقّ يا ابنتي، خلال ستة أسابيع سينتهي كلّ شيء، فإمّا أن أجد المطلق، وإما أن يكون هذا المطلق غير قابل للوجود. ستصبحون كلّكم أغنياء، من أصحاب الملايين.

- «اترك لنا الآن قطعة الخبز فقط» أجابت مرغريت.

- «ألا يوجد خبز هنا، قال كلايس مذعوراً»، ألا يوجد خبز في منزل آل كلايس، أين أملاكنا وريعها؟

لقد قطعت أشجار غابة وينيي من الجذور، وماتزال الأرض مشغولة بهذه الأعمال، وبالتالي لا يمكن الاستفادة منها بشيء، أما أجور أراضيك في أورشي فهي لا تكفي لدفع فواتير المبالغ التي تديّنتها.

- «مم نعيش إذاً؟» سأل.

أشارت مرغريت إلى أبرتها وأضافت: «من هذه مع مساعدة ريع المبلغ الموضوع باسم غابرييل، لكنها غير كافية ويمكنني بشقّ النَفَس أن أضم طرفي السنة بواسطتها لو لم تثقل علينا بهذه الفواتير غير المتوقعة. إنّك لا تقول لي شيئاً عن مشترياتك من المدينة؛ وعندما أعتقد أن لدي ما يكفيني للفصل الواحد واتخذ ترتيباتي على هذا الأساس، تردني أشعار عن مشتريات صودا وبوتاس وزنك، وكبريت، وغيرها مما لا أعرفه!

- يا ابنتي العزيزة، اصبري ستة اسابيع فقط، وبعدها سأتصرّف بكل تعقّل، وستشاهدين العجائب، يا صغيرتي مرغريت.

- لقد حان الوقت لتفكر بوضعك. لقد بعت كل شيء: اللوحات، والخزامى، والفضيّات، ولم يبق لدينا شيء. على الاقل لا تركّب علينا ديوناً جديدة.

- «سأتوقّف عن ذلك» قال الرجل الكهل.

- ستتوقّف! هذا يعني أنك استدنت من جديد؟ صاحت الفتاة.

- «لاشيء يثير المخاوف» أجاب وقد خفض بصره واحمرّ وجهه.

وجدت مرغريت نفسها لأوّل مرة مهانة بذّل والدها، وبلغ بها الالم حداً لم تجروء عنده على سؤاله عن الدين الجديد؛ وبعد شهر من هذه الواقعة، تلقى مصرفي من المدينة كمبيالة موقّعة من كلايس بمبلغ عشرة آلاف فرنك. رجت

مرغريت المصرفي أن ينتظر خلال ذلك اليوم معبّرة عن أسفها لأنها لم تُعلم بهذه الدفعة، فنبهها المصرفي بأن محل بروتز وشيفرفيل له تسع كمبيالات أخرى كل منها بالقيمة نفسها وهي تستحق شهراً بعد شهر.

«لم يعد السكوت ممكناً، ولا بدّ من مجابهة هذا الواقع» صاحت مرغريت بحرقة، وأرسلت تستدعي والدها وهي تذرع غرفة الجلوس جيئة وذهاباً بخطوات سريعة وهي تحدث نفسها «يجب إيجاد مئة ألف فرنك، أو أن السجن ينتظر والدنا! ما العمل؟ لم ينزل بلتزار، وحلّت مرغريت من الانتظار فصعدت إلى المخبر، حيث وجدت عند دخولها أباها وسط قاعة فسيحة، شديدة الإضاءة، مليئة بالماكنات والزجاجيات المغبّرة، وقد تناثرت هنا وهناك الكتب، والمناضد المليئة بمنتجات موسومة ومرقمة، في كلّ مكان تشهد الفوضى على انشغال العالم الذي تخلّى عما تميّزت به العادات الفلمندية من اهتمام بالترتيب. كانت هذه المجموعات من المَطَرات، والمعوّجات، والمعادن والمتبلورات الملوّنة بشكل عجيب، والعيّنات المعلّقة على الجدران أو المحشوّة في الأفران تبدو وكأن صورة بلتزار كلايس تهيمن على كلّ واحدة منها وهو في وسطها وقد تجرد من معظم ثيابه، وبدت ذراعاه العاريتان كذراعي أحد العمال وصدره المكشوف وقد غطاه الشعر الأبيض كشعر رأسه. عيناه تحدّقان بشكل ثابت رهيب في ماكنة لتفريغ الهواء وقد تغطي حوضها بعدسة تتألف من قطعتي بلور محدبتين وهي تلمّ أشعة الشمس الداخلة عندئذ من إحدى حجيرات نجميّة السقيفة، كان الحوض المعزول الصفيحة متصلاً بواسطة أسلاك مع بيل فولطا ضخم، وقد انشغل لولكينيه بتحريك صفيحة تلك الماكنة القائمة على محور متحرك بحيث تبقى عدستها في اتجاه عمودي على أشعة الشمس، وصاح الوصيف، الذي بدا وجهه أسود مغبّراً: «آه! لا تقتربي يا آنسة!».

رأت والدها شبه راكع أمام ماكنته وقد تسلّطت عليه أشعة الشمس عمودية وانتثر شعر رأسه فبدا كأسلاك من فضة، وقد تحدّب قحف رأسه وتغضّن وجهه بتأثير انتظار رهيب، وتفرّد الأشياء التي تحيط به، والظلال التي

تحتجب خلفها أقسام السقيفة الواسعة التي تبرز منها ماكنات غريبة قد ساهمت جميعاً في التأثير على مرغريت التي قالت في نفسها برعب «لقد جُنَّ والدي» واقتربت منه وهمست في أذنه: «اصرف لمولكينيه».

- كلا، كلاّ، يا ابنتي، إنني بحاجة إليه، إنني انتظر نتائج تجربة فريدة لم يفكر بها الآخرون. لقد مرّت ثلاثة أيام ونحن نترقّب أشعة الشمس، بعد أن توصلّت إلى وسائل أخضع فيها المعادن إلى فراغ تام بتأثير الحرارة الشمسية المركّزة والتيّارات الكهربائية، سترين خلال لحظات تأثير أكبر قدرة استطاع أن يتحكّم بها كيميائي، وأنا وحدي....

- إيه! يا والدي، بدلاً من أن تبخّر المعادن كان يجب أن تحتفظ بها لتسديد كمبيالاتك...

- انتظري، انتظري!.

- لقد حضر السيد مرسكتس وهو يطالب بعشرة آلاف فرنك في الساعة الرابعة.

- نعم، نعم، حالاً. لقد وقّعت هذه الأشياء الصغيرة المستحقة هذا الشهر، هذا صحيح، كنت أعتقد أنني سأصل إلى الكشف عن المطلق. يا إلهي! لو كان لدي أشعة شمس شهر تموز لتمّت تجربتي بنجاح!

شدَّ بلتزار شعره بيديه، وجلس على مقعد قديم مخلوع من القصب، وتدحرجت بضع عبرات من عينيه.

«إن سيدي على حقّ، فكلّ ما أصابنا نتيجة شحّ هذه الشمس الضعيفة جداً، يا لخسّتها وكسلها.

لم يبد على المعلم والخادم أنهما يعيران انتباها لمرغريت، فقالت: «اتركنا يا مولكنيه».

- «آه! إنني أجري تجربة جديدة»، هتف كلايس.

قالت مرغريت بعد أن أصبحت ووالدها منفردين: «انس تجاربك، يا

والدي» انّ عليك تسديد مئة ألف فرنك، ونحن لا نملك فلساً منها. اترك مخبرك فالأمر الآن متعلّق بكرامتك، ما مصيرك عندما تغدو في السجن؟ أتلطخ شيبتك واسم آل كلايس بعار تفليسة؟ إنّني أعارض ذلك، وسيكون لدي القوّة لمصارعة جنونك، إنه لأمر مرعب أن أراك جائعاً في أيامك الأخيرة. افتح عينيك وتطلع إلى وضعنا، ألا تتمالك رشدك أخيراً؟

- جنون! صاح بلتزار وقد هبّ واقفاً، ووجّه نظرات ملتهبة إلى ابنته، وصالب يديه على صدره، وردّد كلمة «جنون» بمهابة دبّت الرعشة في نفس مرغريت، ثم قال: «آه! إن أمّك لم تتفوّه بهذه الكلمة، ولم تكن تجهل أهمية أبحاثي، لقد انكبّت على دراسة العلم لتفهمني، وكانت تعرف انني أعمل من أجل الانسانية وأنني منزّه عن كل أنانية أو عيب. إن عاطفة المرأة المحبّة، كما أرى، هي فوق مودّة الأبناء. نعم إن الحب أجمل العواطف! «أمتلك رشدي؟» تابع وهو يدق على صدره، «هل ينقصني الرشد؟ ألست أنا ذاتي؟ إننا فقراء، يا ابنتي، الواقع إنني أريد ذلك، إنني والدك ولي عليك حق الطاعة. سأجعلكم أغنياء عندما يروق لي ذلك. إن ثروتكم لم تك إلاّ شيئاً زهيداً، وعندما أتمكن من إيجاد مذيب للكربون فسأملأ غرفة جلوسكم الماساً، وهذه ترّهة بالمقارنة مع ما أبحث عنه. يمكنكم أن تنتظروا إفناء ذاتي في هذه الجهود الجبّارة.

- يا أبي، ليس من حقي أن أسألك عن أربعة ملايين بدّدتها في هذه السقيفة بدون نتيجة ، لن أحدثك عن أمي التي قتلتها، لو أن لي زوجاً لأحببته دون شك بمقدار ما أحببت أمّي، وسأكون مستعدة لأن أضحّي له بكل شيء كما ضَحّت أمّي لك بكلّ شيء. إنني أتّبع تعليماتها بانصرافي إليكم كليّة، وقد برهنت لك عن ذلك بعزوفي عن الزواج حتى لا ألزمك بأن تعيد لي ما أفقدتنيه وصايتك. لنترك الماضي ولنفكر بالحاضر، لقد أتيت إلى هنا أعرض ضرورة ملحّة خلقتها بنفسك. يلزم مال لتسديد كمبيالاتك، أتسمعني؟ وليس هنا ما يمكن وضع اليد عليه إلا صورة جدّ عائلتنا فون كلايس. إنني هنا إذاً باسم أمّي التي وصلت إلى حالة من الضعف لم تستطع فيها أن تحمي أولادها من تهوّر والدهم

وطلبت مني أن أصمد أمامك، إنني هنا باسم أخويّ وأختي، إنني هنا، يا والدي، باسم جميع آل كلايس أطلب منك أن تتخلّى عن تجاربك وأن تلتفت إلى البلاء الذي أنت فيه قبل متابعتها، وإن كنت تتسلّح بحق أبّوتك التي لا نحسّ إلاّ أنها سائرة بنا إلى الموت فإنّ إلى جانبي جميع أسلافك والشرف الذين تعلو أصواتهم على صوت الكيمياء. إنّ الالتزام بالعائلات له الأفضليّة على العلم. إنّني في هذا ابنة أبي.

- «وتريدين أن تكوني جلاّدي» قال بصوت ضعيف.

انسحبت مرغريت عند ذلك كي لا تتراجع عن الموقف الذي اتخذته وخيّل إليها أنها تسمع صوت أمّها عندما كانت تقول لها: «**لا تخالفي والدك كثيراً، وأحبّيه جيداً!**»

«إن الآنسة تقوم في الأعلى بنشاط متميّز»! قال لمولكينيه وهو ينزل إلى المطبخ لتناول فطوره.» سنضع يدنا على السرّ، ولن يلزمنا إلا قليل من شمس تموز، لأن السيّد، آه! ياللرجل! إنّه تقريباً على خطا خالق الكون، لن يلزمه إلا بقدر هذا الأمر التافه لنتوصل إلى مبدأ كلّ شيء، قال هذا لجوزيت وهو يطقّ ظفر إبهامه على السنَ المسمى شعبياً المضرب. «لكن باتاترا! لقد أتت الآنسة وهي تصيح من أجل هذه الكمبيالات التافهة».

- «حسن، لم لا تدفعها من أجورك إذاً؟» قالت مرتا.

- «ألا يوجد قليل من الزبدة لوضعها على شطيرتي من الخبز»؟ طلب لمولكينيه من جوزيت.

- وأين الدراهم لشرائها؟ أجابت الطباخة بحدّة، إذا كنتما أيها الغول العجوز تصنعان الذهب في مطبخكما الشيطاني، فلماذا لا تصنعان قليلا من الزبدة؟ لن يكون الأمر صعباً جداً وستبيعان في السوق ما يتحرك في القدر. إننا نتناول الخبز الجاف نحن الذين هنا، وهاتان الآنستان تكتفيان بالخبز والجوز، إذاً ستكون عندئذ وجبتك أفضل من وجبات سيدتي المنزل! إن الآنسة لا تريد أن تنفق أكثر من مئة فرنك شهرياً على المنزل بكامله، ونحن لا نحضر إلاّ

وجبة العشاء، فإذا أردتما الطيّبات، فلديكما أفرانكما في الأعلى حيث تقلون اللآلىء التي هي حديث الناس في السوق، يمكنكما إذاً أن تحمّرا الدجاج».

تناول لمولكينيه قطعته من الخبز وخرج فعقّبت مرتا على ذلك بالقول: «سيشتري شيئاً ما من ماله الخاص، هذا أفضل، فهذا يوفر على المنزل. كم هو بخيل! هذا الصيني! قالت جوزيت:» يجب تجويعه لتطويعه، لقد مرّت ثمانية أيام لم يجلُ فيها شيئاً، وأنا أقوم بهذا العمل عنه، فهو دائماً في الأعلى. كان بإمكانه أن يعوضني عن ذلك بإمتاعنا ببعض رنكات يحملها إلينا، لقد كنت أتقبل منه ذلك بسرور.

ـ قالت مرتا: »آه! إنني أسمع صوت نجيب مرغريت. إن أباها المشعوذ العتيق سيبتلع المنزل دون كلمة لله، ياللساحر الخبيث. لو أنه في بلادي لأحرق حيّاً، لكن الناس هنا أقل إيماناً من.مور أفريقية.

لم تستطع الآنسة كلايس أن تخنق عبراتها وهي تجتاز الرواق لتصل إلى غرفتها حيث فضت رسالة والدتها الأخيرة وقرأت فيها ما يلي:

«يا ابنتي، ستكون روحي بمشيئة الله معك وأنت تقرئين هذه الأسطر، وهي الأخيرة التي أخطّها! إنّها مليئة بحبّ صغاري الأعزاء الذين تركتهم بين يدي شيطان لم أعرف كيف أقاومه، لقد امتص إذاً خبزكم كما قضى على حياتي وحتى على حبّي.

تعلمين، يا حبيبتي، انني إن كنت قد أحببت والدكم، فقد عملت على ألاّ يتلاشى العاشق من نفسي كلياً. لذلك اتخذت حياله احتياطات لم أجروء أن أصرح بها في حياتي، نعم لقد احتفظت في قرارة جدثي على مورد أخير ادّخرته ليوم تصلون فيه إلى منتهى التعاسة، فإن أودى بكم إلى الفاقة، أو وجب أن تنقذوا شرفكم، فإنّك ستجدين يا ابنتي، لدى الأب دي سوليس إن كان لا يزال حيّاً، وإلاّ لدى ابن أخيه إيمانويلنا الطبيب، مبلغ مئة وسبعين ألف فرنك، يعينكم على الحياة. إن تعذّر ما يكبح جموحه، وإن لم يشكلّ أولاده حاجزاً أقوى لديه مما كانت سعادتي، وإن لم يتوقّف عن سيره الإجرامي، فاتركوا والدكم،

واحيوا على الأقل! إنني لم أتمكن من تركه لأنني ملتزمة به. وأنت يا مرغريت، أنقذي العائلة! إنني أغفر لك كل ما تفعلينه للدفاع عن غابرييل وجان وفليسيا. امتلكي الشجاعة، وكوني ملاكاً حارساً لآل كلايس، كوني حازمة ولا أجرؤ أن أقول بدون شفقة؛ لكن لإمكان رأب الصدع الحاصل يجب الاحتفاظ بقدر من المال ويجب أن تحسبي نفسك أنك في غداة يوم المصيبة وما من شيء يكبح ثوران الهوى الذي سلبني كل شيء، وهكذا يا ابنتي ستكون كل الطيبة في أن تنسي طيبة قلبك، وسيكون كتمانك، إن احتجت لإخفاء أمر عن والدك ممجّداً، وأفعالك، مهما بدت ملومة، ستكون سامية ما دام هدفها حماية العائلة. هكذا أفتى لي الأب الفاضل دي سوليس، وما من ضمير في صفائه وبعد نظره مثل ضميره.

لم أملك الجرأة على قول هذه الكلمات لك حتى وأنا على سرير الموت، ومع ذلك أبقى دائماً موقرّة وطيّبة في هذا الصراع الرهيب! قاومي مع محافظتك على الحب، وارفضي مع المحافظة على الرقّة. ستبقى إذاً لديّ دموع مجهولة، وآلام لن تتفجّر إلا بعد موتي.

قبّلي عني أولادي الأعزاء في اللحظة التي ستصبحين فيها ملاذاً لهم.

ليكن الله وجميع القديسين معك.

جوزفين.

اقترنت هذه الرسالة بتصريح من الأب دي سوليس وابن أخيه يتعهدان فيه بتسليم ما أودعته السيدة كلايس لديهما إلى من يقدم لهما هذا التصريح من أبنائها.

نادت مرغريت العجوز التي صعدت بسرعة إليها: «مرتا، اذهبي إلى السيد ايمانويل واطلبي منه أن يأتي لزيارتي»؛ وعادت إلى نفسها مفكّرة قائلة:» يا للانسان النبيل الكتوم، إنّه لم يقل لي شيئاً، لي أنا التي أصبحت همومي ومتاعبي جزءاً من متاعبه مهمومه.».

وصل ايمانويل سريعاً بعد أن سبق مرتا في طريق العودة، فقالت له وقد عرضت عليه التصريح «لقد كان لديك شيئاً سرياً يتعلّق بي».

أحنى إيمانويل رأسه وهو يقول: «إذاً لقد وصلت إلى منتهى التعاسة، يا مرغريت» وترقرقت الدموع في عينيه.

- «أواه! نعم، فكن سَنَدي أنت الذي أطلقت عليك أمّي اسم إيمانويلنا الطيّب». قالت ذلك وهي تريه الرسالة دون أن تستطيع إخفاء حركة تعبر عن فرحها لأن اختيارها قد حاز على قبول والدتها.

- «إن دمي وحياتي أصبحا ملكا لك غداة اليوم الذي لقيتك فيه في الصالة» قال وهو يبكي فرحاً وألماً. «لكنني لم أكن أعلم، ولا أجروء على أن آمل قبولك لِدَمي في يوم ما. اذا كنت قد فهمتني تماماً، تدركين أنّ كلمتي مقدّسة. اغفري لي هذا الالتزام المطلق لإرادة أمّك، فليس لي أن أحكم على نواياها.»

- «لقد أنقذتنا» قالت مقاطعة له، وقد أخذت بذراعه لتنزل إلى غرفة الجلوس. بعد أن عرفت أصل المبلغ الذي يحتفظ به إيمانويل، وأسرّت له بالضائقة المؤسفة التي ألّمت بالمنزل.

- «يجب السعي لدفع الكمبيالات» قال ايمانويل «وإذا كانت جميعها لدى مرسكتوس، فستريحين الفوائد. سأسلّمك مبلغ السبعين ألف فرنك المتبقية بعد ذلك؛ ولقد ترك لي عمي المسكين مبلغاً مماثلاً بالدوقيات من السهل نقله خفية.»

- «نعم، احمله ليلا، عندما يكون «الدي نائماً، وسنخفيه نحن سويّة، فقد يستخدم معي العنف ، إن عرف أنّ لدي مالاً. أوه، يا إيمانويل، يالصعوبة أن يحترس المرء من والده!» قالت ذلك وقد انهمرت دموعها وأسندتْ جبينها إلى صدر الشاب.

هذه الحركة الرقيقة الحزينة التي سعت فيها مرغريت لتلقي الحماية كانت أوّل تعبير عن هذا الحبّ المغلّف دائماً بالكآبة والمحاط دائماً بجوّ من الألم لكن هذا القلب المترع وجب أن يفيض، وكان ذلك تحت تأثير البليّة.

ماذا يفعل؟ وماذا سيلّم به؟ إنه لا يرى شيئاً، ولا يهتم لا بنفسه ولا بنا ولا أعلم كيف يتمكّن من العيش في هذه السقيفة حيث الجوّ خانق.

- ماذا تنتظرين من رجل يصرخ في كل لحظة كريشار الثالث: «أقدم

مملكتي لقاء حصان!(١)». سيكون دائماً قاسي القلب، ويجب أن تكوني مثله. ادفعي كمبيالاته، اعطه إن شئت نصيبك من المال، أما نصيب أختك ونصيب أخويك فهي ليست لك وليست له.

«أعطه نصيبي؟» قالت وهي تشدّ على يد إيمانويل وترميه بنظرة من نار: «أتنصحني بذلك أنت، بينما خلق لي بييركين ألف كذبة للمحافظة عليه.

ـ للأسف! ربّما كنت أنانياً على طريقتي، فأنا أحياناً أريدك بدون ثروة، إذ يبدو لي عندئذ أنّك أكثر قرباً مني، وأحياناً أريدك غنيّة وسعيدة وأعتقد أن من الصغَر أن نعتقد بإن الوجاهات التافهة للثروة ستفرّق بيننا .

ـ يا عزيزي لا تتحدّث عنّا...

ـ «عنّا» ردّد بنشوة، ثم أضاف بعد توقف:» إن البليّة كبيرة ولكن ليس المتعذر إصلاحها.

ـ إنّها ستصلح من قبلنا وحدنا؛ فعائلة كلايس قد خسرت سيّدها الذي لم يعد أباً أو رجلاً، وفقد كلّ مفهوم عن العدل والظلم؛ إذ أنه على كبره وشهامته واستقامته، قد بدّد رغم القانون أملاك أولاد كان يجب أن يصونها! فإلى أيّة هوّة قد وصل؟ يا إلهي! عمّ يفتش إذا؟!.

ـ للأسف يا عزيزتي مرغريت، إن كان على خطأ كربّ عائلة، فهو على صواب علمياً، وفي أوروبة نحو عشرين رجلاً يتطلعون إليه باعجاب بسبب الأعمال ذاتها التي يرميه عنها جميع الآخرين بالجنون. لكن يمكنك دون أي تردّد أن تحولي بينه وبين رزق أولاده، وللاكتشافات دائماً صدفتها السعيدة، فإذا قدّر لوالدك أن يحظى بحلّ لمعضلته فسيهتدي إليه دون كلّ هذه النفقات، وربّما في اللحظة التي سيفقد بها الأمل بذلك!

ـ إنّ والدتي قد نعمت بالسعادة، إذ أنّها قضت مع مواجهتها الأولى للعلم ولو أنها صمدت لعانت آلام الموت ألف مرّة قبل أن تموت حقيقة. لكن أليس لهذا الصراع نهاية؟.

---

(١) كلمة تاريخية مأخوذة من مسرحية «ريشار الثالث» لشكسبير.

ـ إنّ له نهاية، ونهايته عندما تفقدون كل شيء، ولا يجد السيد كلايس أي اعتماد فيضطر للتوقف.

ـ «فليتوقّف إذاً منذ اليوم، فقد أصبحنا بدون أي مورد»، هتفت مرغريت ذهب السيد دي سوليس فسدّد قيمة الكمبيالات واستردها وأتى بها إلى مرغريت؛ ونزل بلتزار خلافاً لعادته قبل العشاء بفترة من الوقت؛ ولأوّل مرّة، منذ سنتين تلاحظ ابنته على ملامحه علائم حزن رهيب: لقد عاد أباً، فالرشد قد أزاح العلم. تطلّع إلى الفناء، وإلى الحديقة، وعندما تأكّد أنّه وحيد مع ابنته، أقبل إليها بحركة تملؤها الكآبة والطيبة، فتناول يدها وشدّ عليها بحنان فائق قائلاً: «يا ابنتي، اغفري لوالدك الكهل؛ نعم يا مرغريت، لقد كنت على خطأ، وأنت وحدك على حق، وما دمت لم أكتشف ما سعيت إليه، فأنا انسان بائس. سأذهب من هنا؛ لا أريد أن أرى ڤون كلايس يباع، قال هذا وهو يشير إلى صورة الشهيد، وتابع: «لقد مات من أجل الحرية، وأنا سأموت من أجل العلم، إنّه مبجّل وأنا محتقر».

إيه! ما دهاك ياأبي؟ كلاّ، قالت ذلك وارتمت على صدره، «إننا نعبدك جميعاً، أليس كذلك يا فليسيا؟ منادية أختها التي دخلت في تلك اللحظة.

ـ مابك يا أبي العزيز؟ قالت الابنة الصغرى.

ـ لقد سببت خرابكم.

ـ «ايه! إنّ أخوتي سيجمعون ثروة لنا فجان هو الأوّل دائماً في صفّه» قالت فليسيا.

قادت مرغريت والدها بحركة مليئة بالرقّة والملاطفة البنيوية إلى قرب المدفأة حيث تناولت عن حافتها بعض أوراق كانت تحت الساعة الجدارية وقالت: «خذ، هوذا كمبيالاتك، لكن لا تسجّل غيرها، فلم يبق لدينا ما نسدّد به...

ـ «هذا يعني أنّك تمتلكين مالاً» همس بلتزار في أذن مرغريت بعد أن تغلّب على دهشته.

خنقت الغصة المُرّة من هذه الكلمة حلْق الابنة الشجاعة، سيّما وقد

لاحظت الحبور والأمل وشيئاً من الهذيان على وجه والدها الذي أخذ يتلفّت حوله، كأنه يحاول اكتشاف الذهب.

«يا أبي، إن ما معي هو لي» قالت بلهجة تخالطها المرارة.

ـ «أعطني إيّاه، وسأردّه لك مئة ضعف» قال وقد أفلتت منه حركة جشعة.

ـ «نعم، سأعطيك إياه» أجابت مرغريت وهي تتأمّل بلتزار الذي لم يدرك المعنى المبطّن في كلمة ابنته.

ـ آه! يا ابنتي العزيزة، إنّك تنقذين حياتي! لقد تصوّرت التجربة الأخيرة، التي يغدو بعدها أيّ شيء غير ممكن؛ فإن لم أجد المطلق هذه المرة، فيجب العدول عن البحث عنه نهائياً؛ فساعديني يا ابنتي العزيزة وخذي بيدي، إنني أريد أن أجعل منك أسعد امرأة على وجه الأرض، إنّك تعيدين لي السعادة، والمجد، إنّك تؤمّنين لي القدرة لأغمرك بالكنوز، سأملأ دنياك مجوهرات وثروات.»

هرع إلى ابنته يقبل جبينها، ويشدّ على يديها، ويعبّر لها عن غبطته بملاحظات بدت لمرغريت أشبه بالمذلّة، ولم يحوّل عنها عينيه خلال العشاء، كان يتطلّع إليها بمبادرة واهتمام وحيوية العاشق الذي يعبر لحبيبته عن عاطفته: فإن بدرت منها حركة، هبّ ليعرف مدلولها ويدرك رغبتها ويسرع لخدمتها بحيث أحسّت بالخجل يغمرها، لقد تبدّت في عنايته روح الشباب التي تتناقض مع شيخوخته المبكّرة. لكن مرغريت كانت تناقض هذه التملّقات مع لوحة الضيق السائد حالياً، سواء بكلمة تشكيك، أو بنظرة تلقيها على واجهات الخزائن الفارغة في غرفة الطعام.

قال الأب: «هيّا، خلال ستة أشهر سنملأ كل هذا بالذَهَب وبالعجائب، ستكونين كملكة، ياه! إن الطبيعة بكاملها ستكون تحت تصرفنا، وسنكون فوق الجميع... وبفضلك انت... يا مرغريتي، يا مرغريتا! قال وهو يبتسم «إن اسمك هو نبوءة، فمرغريتا تعني لؤلؤة. لقد ذكر سترن[1] ذلك في مكان ما، هل قرأت سترن؟ هل تريدين أحد كتبه؟ إنه يسرّك.

---

(١) سترن (١٧١٣ ـ ١٧٦٨) كاتب انكليزي هو مؤلف «تريسترام شاندى» و «رحلة عاطفية» وبلزاك من المعجبين به ويذكره مراراً في مؤلفاته. لكن اسم مرغريت المذكّر بالزهرة الشبيهة باللؤلؤة هو من أصل فلمندي.

ـإنّ اللؤلؤة، على ما يقال، هي ثمرة عِلّة مرضية في الصدفة، ونحن قد عانينا كثيراً من الآلام.

ـ لا تحزني ستحققين السعادة لكل من تحبين، ستصبحين قادرة جداً، وثرّية جداً.

ـ «إنّ للآنسة قلباً طيّباً» قال لمولكينيه وهو يكشّر بوجهه المجدّر بصعوبة عن ابتسامة باهتة.

بسط بلتزار خلال تتمة السهرة على ابنتيه كل ما تميّز به طبعه من ظرف ومن سحر في الحديث. كان مُضلاً كحيّة تسعى، ينساب من كلماته ونظراته وميض سيّالة مغناطيسية، وقد استغل كلّ الاستغلال هذه القدرة المبدعة لديه، وهذه الروح العذبة التي فتنت سابقاً جوزفين. لقد وضع، إن صحّ القول، ابنتيه في قلبه. وعندما حضر إيمانويل دي سوليس، وجد لأوّل مرة، ومنذ مدّة طويلة، الأب وابنتيه مجتمعين؛ وقد استسلم مدير الكلية الشاب، رغم تحفظه، لفتنة هذا المشهد فحديث بلتزار وأساليبه كانت ذات جاذبية أخّاذة لا تقاوم.

إن رجال العلم بالرغم من أنهم غارقون دائماً في لجج الفكر وينشغلون دون انقطاع في ملاحظة العالم المعنوي، فهم مع ذلك يلاحظون أدقّ تفاصيل المحيط الذي يعيشون فيه، إنّهم في غير زمنهم أكثر منهم شاردون، وهم ليسوا أبداً في انسجام مع ما يحيط بهم، يعرفون وينسون كل شيء؛ يحكمون مسبقاً على المستقبل، يتنبؤون من أجل أنفسهم فقط، يعيشون الحدث قبل وقوعه لكن دون أن يتحدّثوا عنه بشيء؛ وإن استخدموا، في صمت التأمّلات، قدرتهم للتعرّف على ما يدور حولهم فإنهم يكتفون بالتيّقن من تخمينهم له. يستغرقون في العمل ويطبقون بشكل خاطىء تقريباً، وفي معظم الأحيان، المعارف التي اكتسبوها من شؤون الحياة. أحياناً، عندما يستيقظون من لامبالاتهم الاجتماعية، أو عندما يهبطون من أبراجهم العاجية إلى عالم الواقع، فإنّهم يعودون إليه بذاكرة غنيّة دون أن يفوتهم شيء.

هكذا كان بلتزار، الذي يجمع نفاذ الفكر الذهني إلى دقّة الملاحظة العاطفية،

يعرف كلّ ماضي ابنته، فهو قد ادرك أو خمّن أدقّ أحداث هذا الحب الخفيّ الذي يربط بينها وبين إيمانويل؛ ودلّل على ذلك بمهارة موافقاً على رابطتهم العاطفية بإشعارهم بمباركته لها، فكان ذلك أعذب إطراء يمكن لأب القيام به، وقد تلقاه العاشقان دون ممانعة، فعمّ الحبور تلك السهرة بالتضاد الذي شكّلته مع الكآبات التي كانت ترهق حياة هؤلاء الأولاد التعساء؛ وأخيراً انسحب بلتزار، بعد أن سكب عليهم أنواره وأفعمهم بحنانه، إن صحّ القول؛ فأسرع إيمانويل دي سوليس، الذي كان يبدو متضايقاً، إلى التخلّص من ثلاثة آلاف دوقيّة من الذهب موزّعة في جيوبه وقد خشي أن يلحظ الأب وجودها، ووضعها على طاولة شغل مرغريت التي غطتها بقطعة قماش كانت ترفوها بينما ذهب إيمانويل ليأتي ببقيّة المبلغ، عندما عاد كانت فليسيا قد ذهبت للنوم، ومرتا مشغولة معها ساهرة تنتظر لتساعد سيّدتها في خلع ملابسها.

دقّت الساعة الحادية عشر، وتساءلت مرغريت «أين نخبىء هذا المبلغ؟» دون أن تستطيع مقاومة غبطة اللعب بتحريك بعض الدوقيات في عَبَث فقدته زمناً.

ـ قال ايمانويل: «سأزيح هذا العمود من المرمر ذي القاعدة المفرّغة حيث تضعين هذه الصرر ولن يهتدي حتى الشيطان إليها هنا.».

في اللحظة التي كانت مرغريت تقوم بنقلتها ما قبل الأخيرة بين منضدة الشغل وعمود المرمر، أطلقت صرخة ثاقبة وتركت الصرَر تسقط منها فتثقب القطع الذهبية الورق وتتناثر على أرضية الغرفة: فقد كان أبوها واقفاً على باب غرفة الجلوس ويطلّ برأسه وعلى ملامح وجهه تعبير جشع أرعبها.

«ماذا تفعلان إذا هنا؟» قال وهو ينقل نظرة بين ابنته التي سمّرها الفزع في مكانها والشاب الذي انتصب فجأة، لكن وقفته إلى جانب العمود كانت معبّرة تقريباً. كانت قرقعة الذهب على أرضية الغرفة رهيبة، وبدا تناثره تنبوئياً، وقال بلتزار بعد أن دخل وجلس: «لم أكن منخدعاً، لقد سمعت رنين الذهب».

لم يكن أقلّ تأثراً من الشابين اللذين كان قلباهما يخفقان متجاوبين حتى أن

وجيبهما كان يسمع كضربات نواس وسط الصمت العميق الذي ران فجأة على غرفة الجلوس.

«إنني أكرر شكري لك يا سيد دي سوليس» قالت مرغريت لأيمانويل وهي ترميه بنظرة، وكأنها تقول: «أعنّي لانقاذ هذا المبلغ».

«ماذا، هذا الذهب...» قال بلتزار وهو ينظر بجلاء مرعب إلى ابنته وإلى ايمانويل.

- «هذا الذهب للسيد الذي تكرّم بإعارته لي لتسديد ديوننا» أجابت.

- احمرّ السيد دي سوليس خجلاً وأراد الخروج؛ فأمسك بلتزار بذراعه قائلاً: «لا تتهرّب أيّها السيد من إبداء شكري لك».

- «سيدي، أنت لست مديناً لي بشيء. إنّ هذا المال للآنسة مرغريت التي استدانته مني برهن أملاكها» قال وهو ينظر إلى حبيبته التي شكرته برفّة جفنين غير ملحوظة.

- «لن أشكو من ذلك» قال كلايس وتناول قلماً وورقة عن الطاولة التي تكتب عليها فليسيا والتفت إلى الشابين اللذين عرتهما الدهشة قائلاً: «ما هو المبلغ؟» لقد جعل الهوى بلتزار أكثر مكراً من أمهر أمناء الصناديق في الخبث؛ إن هذا المبلغ سيكون له. وتردّد سوليس ومرغريت فقال كلايس: «لنعدّ» وأجاب دي سوليس: «هنا ستة آلاف دوقيّة».

- «سبعون ألف فرنك» تابع كلايس.

شجّعت النظرة التي وجّهتها مرغريت حبيبها فقال وهو يرتجف: «سيدي، إن تعهدك دون قيمة، اغفر لي هذا التعبير التقني الخالص، لقد أقرضت الآنسة هذا الصباح مئة ألف فرنك لتسترد الكمبيالات التي لم تكن قادراً على تسديدها، فلا يمكنك إذاً أن تقدّم لي أيّة ضمانة. إن هذه المئة وسبعين ألف فرنك هي للآنسة ابنتك التي يمكن أن تتصرّف بها كما يحلو لها، لكنني لم أقرضها إياها إلا بعد وعد منها بتنظيم عقد برهن حصتها في أرض وينيي الجرداء ضماناً لمالي.

أزاحت مرغريت رأسها كي لا تُلحَظ الدموع التي ترقرقت في عينيها إنّها تعرف نقاء قلب إيمانويل الذي أنشأه عمه متقيّداً بأشدّ الفضائل الدينية قسوة؛ فهذا الشاب يروعه بصورة خاصة اللجوء إلى الكذب، وهكذا فبعد أن قدم حياته وقلبه لمرغريت، ها هو الآن يضحي براحة ضميره.

قال بلتزار: «وداعاً أيّها السيد، لقد ظننت أنك أكثر ثقة برجل كان يعتبرك بمثابة ابن له».

خرج إيمانويل بعد أن تبادل مع مرغريت نظرة ملؤها الأسف، ورافقته مرتا حتى الباب الخارجي وأغلقته بعد خروجه.

ما أن أصبح الأب والابنة منفردين، حتى التفت كلايس إلى ابنته قائلاً: «أتحبينني أليس كذلك؟» .

- «لا تلجأ إلى المواربة، يا أبي، إنّك تريد هذا المبلغ، ولن تحصل عليه أبداً».

أخذت تجمع الدوقيات، ووالدها يساعدها بصمت وهو يتحقق من المبلغ المتجمّع، ومرغريت تتركه يفعل دون أن تخالجها أيّة ريبة. وبعد جمع الستة آلاف دوقية ولفّها في صدرها، قال بلتزار بلهجة القانط: «مرغريت، إنني بحاجة إلى هذا الذهب!».

- «ستكون سرقة إن أخذته» أجابت ببرود، ثم تابعت: «اسمع يا أبي، من الأفضل أن تقتلنا جميعاً دفعة واحدة، بدلاً من أن تذيقنا الموت كل يوم ألف مرّة. فانظر من منا الذي يجب أن يستسلم.

- إذن ستقتلين والدك.

- «سيكون في ذلك انتقام لأمي» قالت وهي تشير إلى المكان الذي توفيت عليه السيدة كلايس.

- يا ابنتي، لو تعرفين ما الأمر، لما رميتني بهذه الكلمات. اسمعي، سأشرح لك المسألة... لكنك لن تفهميني؟ صاح بيأس. أخيراً، هات! ثقي بأبيك مرّة. نعم إنني أعلم أنني أسأت إلى أمك، وإنني بددت ثروتي كما يقول

الجاهلون، وأنني اختلست أموالكم، وإنكم تعملون جميعاً من أجل تجنيبي ما تسمونه جنوناً؛ ولكن يا ملاكي، يا حبيبتي، يا حبّي، يا مرغريتي. ألا تستمعين إليّ؟ إذا لم أنجح، سأضحي بنفسي من أجلك، سأطيعك كما يجب أن تطيعيني أنت، سأمتثل لإرادتك، سأترك لك حرية التصرف بثروتي، سأتخلى عن وصاية أولادي، سأتنازل عن كل سلطة لي، أقسم بذكري والدتك» قال ذلك وهو يذرف الدموع. فأزاحت مرغريت رأسها كي لا ترى هذا الوجه الباكي. وألقى كلايس بنفسه على ركبتي ابنته معتقداً بأنها قد امتثلت لرغبته.

- مرغريت، مرغريت! أعطني، أعطني، اعطني! ما قيمة ستين ألف فرنك تتجنبين معها تبكيت ضمير أزلي؟ أترين، سأموت، رفضك يقتلني، ألا تسمعينني؟ ستكون كلمتي مقدسة، إن فشلت، سأتخلى عن تجاربي، سأترك الفلاندر بل فرنسة بكاملها إن طلبت ذلك، وأذهب لأعمل عاملاً يدوياً وأجمع الفِلس بعد الفلس لأحمل يوماً إلى أولادي ما أخذ العلم منهم».

أرادت مرغريت أن تنهض أباها، لكنه أصرّ على البقاء جاثياً عند ركبتيها، وأضاف وهو يبكي: «ألا تكونين لآخر مرّة رحيمة ومضحيّة؟ إذا لم أنجح، فإنني أعطيك أنا بالذات الحق في قسوتك. ناديني عجوزاً مجنوناً! سميني أباً سيئاً؛ أخيراً قولي إنني انسان جاهل! وأنا عندما أسمع كلماتك فإنني أقبل يديك، يمكنك ضربي إذا شئت، وعندما تضربين سأباركك كأحسن البنات متذكراً أنك قد أعطيتني دمك.

- «لو أن الأمر يتعلّق بدمي فقط لأعطيته لك، لكن هل يمكنني أن أترك أخي وأختي يذبحان بالعلم؟ كلا، توقّف، توقّف» قالت وهي تمسح دموعها وتدفع عنها يدي والدها المداعبتين.

- قال وهو ينهض غاضباً: «ستون ألف فرنك وشهران، هذا ما يلزمني، لكن ابنتي تقف حائلاً بيني وبين المجد والغنى. عليك اللعنة، فلست ابنة، ولا امرأة، وليس لك قلب، ولن تكوني أمّاً أو زوجة.

ارتد بعد ذلك قائلاً: «ألا تتركيني آخذها؟ قولي يا صغيرتي العزيزة، يا ابنتي العزيزة، سأعبدك» أضاف وهو يمدّ يده إلى الذهب بحركة قويّة شرسه.

- إنني عزلاء ضد القوّة، لكن الله وكلايس الكبير يريانـنا! قالت مرغريت وهي تشير بيدها إلى صورة الجدّ.

- «حسن، جرّبي أن تعيشي مضرّجة بدم أبيك» صاح بلتزار وهو يرميها بنظرة مرعبة؛ ثم نهض وتأمّل غرفة الجلوس وخرج بهدوء؛ وعند وصوله إلى الباب؛ التفت كما يفعل الشحاذ ماداً يده بحركة استجداء، ردّت عليها مرغريت بإشارة نفي من رأسها فقال بعذوبة: «وداعاً يا ابنتي، جرّبي أن تعيشي سعيدة».

عندما ابتعد، بقيت مرغريت في خدر أحست فيه انها انعزلت عن الأرض، فهي لم تعد في غرفة الجلوس، ولم تعد تشعر بجسمها، فكأن لها أجنحة تحلّق بها في أجواء عالم الروح حيث كلّ شيء واسع وحيث الفكر يقرّب المسافات والأزمان، وحيث توجد يد إلهية ترفع الحجب التي تغطي المستقبل. لقد بدا لها أن أياماً كاملة تنقضي بين كل خطوة وأخرى يجريها والدها وهو يصعد السلّم، وأحسّت بقشعريرة مرعبة في اللحظة التي سمعته فيها يدخل إلى غرفته. قادها حدس سكب في روحها جلاء البرق الحاد، فهرعت تجتاز السلالم، دون نور، ودون ضجة، وبسرعة السهم إلى حيث وجدت أباها يسدّد إلى صدغه مسدساً، فصاحت وهي ترتمي عليه «خذ كلّ شيء». ثم تهالكت على مقعد.

نظر إليها بلتزار وهي شاحبة فأخذ يبكي كما يبكي الشيوخ، لقد عاد كطفل، وقبّل جبينها، وقال لها عبارات لا انسجام بينها، لقد كان مستعداً لأن يقفز طرباً، وبدا وكأنه يريد أن يداعب ابنته كما يداعب العاشق حبيبته بعد أن ملأت نفسه سعادة.

«كفى، كفى، يا والدي، فكّر بوعدك، وبوجوب اطاعتي عندما يخيب مسعاك»

- نعم.

- «آه! يا أمي، كنت ستعطين كل شيء أليس كذلك؟» قالت وهي تلتفت نحو غرفة أمها.

- «نامي بسلام، إنّك ابنة طيّبة» قال بلتزار.

- أنام، لقد فقدت ليالي الشباب، لقد أهرمتني يا والدي، كما أذبلت ببطء قلب أمي.

- يا ابنتي المسكينة، أريد أن أطمئنك بأن أشرح لك نتائج التجربة الفريدة التي تصوّرتها، أتدركين.

«إنني لا أدرك إلا خرابنا» قالت وهي تغادر الغرفة.

في صباح اليوم التالي، كان يوم عطلة أحضر إيمانويل دي سوليس جان معه.

«ماذا حدث؟ قال بحزن وهو يلقى مرغريت.

«لقد استسلمت» أجابت.

قال بحركة ممزوجة بغبطة كئيبة: «يا حياتي العزيزة، لو أنّك قاومت لأعجبت بك. أما وأنّك ضعفت فأنا أعبدك.»

- مسكين، مسكين يا إيمانويل، ماذا سيتبقى لنا؟.

- «اتركيني اتصرّف، يكفي أننا متحابان، وسيتمّ كل شيء على ما يرام» هتف الشاب وعلى سيمائه ملامح الإشراق..

مرّت بضعة أشهر في هدوء تام، وأفهم دي سوليس مرغريت أن توفيراتها الشحيحة لن تشكّل أبداً ثروة، ونصحها بأن تعيش في يسر فتأخذ من أجل رفاه المنزل بعض ما تبقى من المبلغ الذي أؤتمن عليه.

خلال تلك الفترة استسلمت مرغريت للقلق ذاته الذي أثّر على والدتها في ظرف مماثل، فأيّا كانت درجة جحودها، لا بد من أن يعتريها شيء من الأمل المعقود على عبقرية والدها. هذا الأمل الذي يخامر كثيراً من الناس دون أن تعتمر نفوسهم بالايمان، وتلك ظاهرة لا تفسّر، فالأمل هو زهرة الرغبة المتفتحة، أما الإيمان فهو ثمرة اليقين. كانت مرغريت تقول في نفسها: «إن نجح

أبي سنعيش، سعداء، وكلايس ولمولكينيه وحدهما يقولان سننجح. للأسف يوماً بعد يوم، أخذ وجه هذا الرجل يكتئب، وعندما يحضر العشاء، لا يجروء أحياناً أن ينظر إلى ابنته، وأحياناً يتطلع إليها أيضاً بنظرات الظفر. كانت مرغريت تقضي أمسياتها مستفهمة من دي سوليس الشاب عن بعض الصعوبات القانونية. وكانت ترهق والدها بالأسئلة عن صلاتهم العائلية. أخيراً فإنها أنهت ثقافتها الرجولية(١). كانت تحضّر دون شك لتنفيذ خطة فكّرت بها في حال فشل والدها مرة أخرى في صراعه مع المجهول «س».

في مطلع شهر تموز (٢) قضى بلتزار نهاراً كاملاً وهو جالس على مقعد في حديقته في تأمّل كئيب. نظر عدة مرات إلى تلّة الخزامى العارية، وإلى نوافذ غرفة زوجته، كان يرتعش دون شك وهو يفكر إلى كلّ ما بذله في هذا الصراع: وكانت حركاته تنمّ عن أفكار لا علاقة لها بالعلم. جاءت مرغريت وجلست قربه تطرّز بغض الوقت قبل موعد العشاء.

«حسن، يا أبي، يبدو أن النجاح لم يحالفك».

ـ كلا يا ابنتي.

ـ آه، قالت مرغريت بصوت ناعم، لن أوجّه إليك أدنى لوم، فنحن جمعياً مدانون. لكنني أطلب فقط تنفيذ كلمتك التي وجب أن تكون مقدّسه، فأنت سليل كلايس وأولادك يغمرونك حباً واحتراماً، لكنك منذ الآن تعود لي وتتوجب عليك طاعتي. لا تقلق، فملكيتي لن تكون جائرة وسأعمل على إنهاء عهدها بسرعة. سأترككم لمدة شهر تقريباً وسترافقني مرتا، ولأمر يتعلّق بك إذ أنك ولدي المحبّ؛ قالت ذلك وقبّلت جبينه. غداً ستدير فليسيا المنزل والفتاة المسكينة ما تزال في ربيعها السابع عشر ولن تعرف التصدي لك، فكن شهماً، ولا تطلب منها فلساً لأن ليس لديها إلا ما يكفي لتأمين نفقات المنزل. تجرّاً وتخلّ لمدة سنتين أو ثلاث سنوات عن تجاربك وأفكارك، وستنضج الفكرة خلالها، وأكون قد أمّنت لك المال اللازم لحلها وسيحلّها. حسنٌ، أليست ملكتك متسامحه.

---

(١) المقصود بذلك الثقافة التي تتطلبها إدارة المنزل وشؤون العائلة بعد أن أصبحت مرغريت هي المدبّرة لها عوضاً عن والدها.

(٢) يبدو هذا مستغرباً بعد أن عبر بلتزار سابقاً عن أمله بحرارة شهر تموز لنجاح تجاربه.

- «لم يضع إذا كلّ شيء» قال العجوز.
- كلا إذا كنت أميناً على وعدك.
- «سأطيعك يا ابنتي» أجاب كلايس بانفعال عميق.

في اليوم التالي حضر السيد كونينكس دي كامبري ليقلّ قريبته الصغيرة، وكان في عربة سفر، ولم يُرد أن يبقى لدى قريبه إلا الوقت اللازم لمرغريت ومرتا لتهيئة متاعهما. استقبل السيد كلايس ابن عمه ببشاشة وكان الحزن والذلّ ظاهران عليه. خمّن كونينكس العجوز ما يدور في خاطر بلتزار من أفكار، فقال له على مائدة الغداء بصراحة متناهية: «إنّ لدي بعض لوحاتك يا ابن العم، فأنا من هواة اللوحات الجميلة، إنه هوى مدّمر، ولكن هذا الجنون يتملكنا جمعياً.

- أيّها الخال العزيز! قالت مرغريت.
- إنّك تعتبر نفسك مفلساً، يا ابن العم، لكن سليل آل كلايس يمتلك دائماً كنوزاً هنا، وأشار إلى جبينه، وهنا، أليس كذلك؟ وأشار إلى قلبه، وهكذا فأنا أعتمد عليك! لقد وجدت في كيس نقودي بعض إكو أضعها تحت تصرفك.
- آه! هتف بلتزار سأردّها لك كنوزاً.
- «إن الكنوز الوحيدة التي نمتلكها في الفلاندر، يا ابن العم، هي الصبر والعمل، أجاب كونينكس بقسوة. فسلفنا الكبير نقشت على جبينه هاتين الكلمتين» قال ذلك وأشار إلى صورة الرئيس ڤون كلايس.

قبلّت مرغريت والدها مودّعة، وأعطت تعليماتها لجوزيت ولفيليسيا واستقلّت العربة إلى باريس. كان العم الكبير أرملاً، وليس له إلا ابنة في الثانية عشر، ويمتلك ثروة واسعة، لذلك لم يكن مستحيلاً تفكيره بالزواج، وهكذا ظنّ سكان دوي أن الآنسة كلايس ستتزوج قريبها العجوز، وقد أحدثت شائعة هذا الزواج الغني ضجة دفعت بييركين موثق العقود إلى المجيء إلى منزل آل كلايس، بعد أن طرأت على أفكار هذا الحسّاب الممتاز تغيّرات كبيرة؛ فمنذ سنتين انقسم مجتمع المدينة إلى معسكرين متعادين يتألّف الأوّل من النبلاء

والثاني من البورجوازيين المعادين بشدّة للفريق الأوّل. هذا الفصل المفاجىء الذي حدث في كلّ فرنسة فقسمها إلى أمّتين متعاديتين تصاعدت حساسيات التحاسد بينهما متزايدة فكانت إحدى أهم الأسباب التي دفعت إلى تبّني ثورة تموز ١٨٣٠ في الأقاليم. بين هذين المجتمعين المتطرفين أحدهما في ملكيته والآخر في مطالبته بالحريّات توزّع الموظفون وفق درجة أهميتهم، في هذا المجتمع أو ذاك. أمّا في حال سقوط السلطة الشرعية فإنهم يقفون على الحياد. في بدء الصراع بين النبلاء والبورجوازيين عرفت المقاهي الملكية فخامة خارقة، وتنافست بامتياز مع مقاهي الأحرار، حتى أن هذه التظاهرات الذوّاقة قد أودت، على ما يقال، بحياة عدة أشخاص بدوا مماثلين لملاط سيّء السبك فلم يستطيعوا الصمود أمام هذه التجارب؛ وبالطبع فإن المجتمعين تصفيا بانحصارهما.

استبعد بييركين، بالرغم من غناه الفاحش كرجل إقليم، من حلقات الارستقراطيين ودفع إلى تلك العائدة للبورجوازيين، وقد أحسّ بطعنة في كبريائه من الإخفاقات المتتابعة التي تلقاها وهو يرى نفسه يستبعد تدريجياً من قبل أشخاص كانوا يرحبون بمعاشرته منذ عهد قريب. لقد بلغ الأربعين من العمر، وهي المرحلة الأخيرة من الحياة التي يبقى فيها للرجال المرشحين للزواج الأمل بقبول احدى الشابات الاقتران بأحدهم؛ والمرشّحات اللواتي يمكن أن يرتضين به ينتمين إلى البورجوازيه، بينما يمتد به الطموح إلى البقاء بين علية القوم حيث يمكن لمصاهرة نبيلة أن تدخله وتثبته.

كانت العزلة التي تعيش فيها عائلة كلايس قد جعلتها غريبة عن هذه الحركة الاجتماعية، وبالرغم من أن كلايس ينتمي إلى الارستقراطية العريقة في المقاطعة يبدو أن مشاغله قد حالت بينه وبين الامتثال إلى هذه التنافرات التي خلقها التصنيف الجديد للأشخاص؛ ومهما بلغ الفقر بفتاة من آل كلايس فإنها تحمل إلى زوجها هذه الثروة من الزهو التي يتمناها جميع محدثي النعمة. عاد بييركين إذا إلى آل كلايس وقد أضمر رغبة خفية بالقيام بكلّ التضحيات

الضرورية للتوصل إلى عقد زواج يحقّق جميع طموحاته، فلازم بلتزار وفليسيا خلال غياب مرغريت، لكنه أحسّ متأخراً بوجود منافس خطر له في شخص إيمانويل دي سوليس، إذ بدت تركة عمّه المتوفي معتبرة، وفي عيني رجل يقيم كل أمور الحياة بسذاجة من خلال الأرقام، بدا له الوريث الشاب أكثر قدرة بماله منه بإغواءات القلب التي لم تكن تقلق أبداً بييركين. هذه الثروة ردّت إلى اسم دي سوليس كل قيمته. فالذهب والنبل هما كثريّتين تستضيء إحداهما بالأخرى فيتضاعف بريقها. كان الودّ الصادق الذي يبديه مدير الكلّية الشاب لفيليسيا ومعاملته لها كأخت يثير روح المنافسة لدى موثق العقود، فيجرب أن يكسف ألق أيمانويل بمزجه اللغة الدارجة مع الموضة وتعابير الملاحظة السطحية ذات المظاهر الحالمة مع المراثي القلقة التي تتماشى جيّداً مع شكله. كان يعبّر عن خيبة أمله من كلّ شيء من العالم ويتوجّه بعينيه إلى فليسيا بطريقة يريد فيها أن يجعلها تعتقد أنّها الوحيدة القادرة على مصالحته مع الحياة؛ وكانت فليسيا التي يوجّه إليها رجل لأوّل مرّة الإطراء، تستمع إلى هذه التعابير الحلوة دائماً حتى عندما تكون كاذبة، وقد اعتبرت الخواء عمقاً، وهي في إحساسها بالحاجة التي تدفعها إلى تحديد العواطف المبهمة التي يزخر بها قلبها، اهتمت بابن العم ربّما عن غيره، دون أن تدري، سبّبتها الاهتمامات المتدلهة التي كان يبديها ايمانويل لأختها. لقد أرادت دون شك أن ترى نفسها، كأختها، هدفاً للنظرات والأفكار والاهتمامات التي يوجهها إليها رجل.

أحسّ بييركين بسهولة بالتفضيل الذي منحته إياه فليسيا على إيمانويل، واعتبره سبّباً لمواصلة جهوده بحيث أنه ارتبط أكثر مما أراد؛ وكان إيمانويل يرقب بدايات هذا الهوى الكاذب على الأرجح، لدى موثق العقود، والبريء لدى فليسيا رغم أن الأمر يتعلّق بمستقبلها. قامت بين أبناء العم بعض محادثات لطيفة، وبعض كلمات يُهمس بها بعيداً عن سمع إيمانويل، أخيراً، هذه الخُدَع الصغيرة التي تعطي للنظرة والكلمة تعبيراً قد تسبّب حلاوته الماكرة أخطاءً ساذجة. جرّب بواسطة العلاقة التي ينشئها بييركين مع فليسيا أن يصل سرّ

الرحلة التي تقوم بها مرغريت ليعرف إن كان الأمر يتعلّق بزواج، وإن كان يجب أن يتخلّى عن آماله، لكن بالرغم من نباهته الكبيرة لم يتمكن بلتزار أو فليسيا من إعطائه أي قبس عن هذا الأمر، لأنهما لا يعلمان شيئاً عن مشاريع مرغريت التي بدا أنها منذ تسلّمت السلطة تتبّع حكمة التكتّم على هذه المشاريع. كانت الأمسيات تمرّ ثقيلة عبر حزن بلتزار القاتم وشعوره بالاحباط بالرغم من أن ايمانويل قد نجح في جذبه إلى اللعب بطاولة الزهر لكن الكيميائي كان شارداً معظم الوقت حتى يكاد، وهو الرجل الفائق الذكاء، يبدو بليداً. إنّه الخائب في آماله، المذلول لتبديده ثلاث ثروات، المقامر بدون مال، ينحني تحت ثقل ما حلّ به من خراب، وتحت وطأة آماله المخدوعة أكثر منها متبددة؛ هذا الرجل، وقد كمّمه العوز وشعر بفداحة الذنب كان يمثّل صورة مأساوية تؤثّر على أشد الرجال صلابة؛ فحتى بييركين لم يكن ينظر إلا بعاطفة الاحترام إلى هذا الأسد الحبيس، بعينيه وقد كبحت قدرتهما فبدتا هادئتين تحت وطأة الحزن، قاتمتين وقد أتعبهما الضوء، في نظراتهما استجداء لا يجسر اللسان على النطق به. تمرّ أحياناً على هذا الوجه اليابس بارقة تصوّر تجربة جديدة فتدبّ فيه الحياة، ثم إن استقرت عينا بلتزار، بتأمل غرفة الجلوس، على المكان الذي قضت فيه زوجته، ترقرقت دمعات خفاف كحبّات الرمل المتوهجة في صحراء هاتين الحدقتين اللتين جعلهما الفكر أكثر اتساعاً، الرأس الرأس متثاقلاً على الصدر. لقد العالم كتيتان، لكن العالم ارتد إلى صدره أكثر ثقلاً. هذا الألم العملاق، المتحمّل برجولة كان يوثر على بييركين وإيمانويل حتى ليكاد يدفعهما أحياناً إلى أن يعرضا على هذا الرجل تقديم بعض المال الذي يعينه على القيام ببعض تجاربه؛ فتحت سريان قناعات العبقرية اليقينية، أدرك الاثنان كيف أمكن للسيد كلايس ومرغريت أن ترميا الملايين في هذه الهوّة، لكن التعقّل أوقف بسرعة نوازع القلب، وتجلّت انفعالاتهما بمظاهر مواساة زادت من متاعب هذا التيتان المنهار.

كان كلايس لا يتطرّق أبداً إلى ذكر ابنته البكر، ولم يبد أي قلق لغيابها أو لملازمتها الصمت وعدم مكاتبتها له أو لفليسيا، وعندما يسأل دي سوليس أو بييركين عن أخبارها تظهر عليه علائم الانزعاج؛ أهو الشعور بأن مرغريت

تتصرّف معاكسة له؟ أم هو الخزي لتنازله عن حقوق الأبوّة الموقّرة لابنته؟ هل خفّ حبّه لها لأنّها تكاد تصبح هي الأب وهو الولد؟ ربّما وُجِدَت كثير من هذه الأسباب، وكثير من هذه العواطف المبهمة العابرة كالغيوم في سماء الروح لتنسج زوال الحظوة الصامت الذي يرنّق على مرغريت.

مهما بلغ كبر الرجال العظام المعروفين أو غير المعروفين، المحظوظين أو التعساء في مساعيهم، فإنّ لهم بعض التفاهات التي هي من مظاهر الضعف الإنساني، وهم في بلائهم المضاعف، لا يتألّمون من مزاياهم بأقل مما يتألمون من عيوبهم. ربّما كان على بلتزار أن يأتلف مع آلام كبريائه الجريحة، فالحياة التي يمارسها، والأمسيات التي يجتمع فيها هؤلاء الأشخاص الأربعة في غياب مرغريت، كانت حياة وأمسيات يخيّم عليها الحزن، وتملؤها تخوّفات مبهمة. إنّها أيام جدباء كأرض بور جافة لا تفترّ تربتها إلاّ عن بعض زهيرات تندر مواساتها؛ فالجو يبدو لهم عاتماً بغياب الإبنة البكر التي غدت روح ورجاء وقوة هذه العائلة.

مرّ شهران هكذا، كان خلالهما بلتزار ينتظر بأناه ابنته التي عادت بعدها إلى دوي يرافقها خال العائلة، وقد بقي في المنزل بدلاً من أن يعود إلى كامبري، ليدعم دون شك بسلطته انقلاباً أعدّته قريبته الصغرى؛ وكانت عودة مرغريت بمثابة عيد صغير احتفلت به العائلة، فدعت فليسيا وبلتزار موثق العقود والسيد دي سوليس إلى العشاء، وعندما وصلت عربة الرحلة وتوقّفت أمام باب المنزل هرع الأشخاص الأربعة يستقبلون القادمين بمظاهر غبطة كبيرة، وبدت مرغريت سعيدة لرؤيتها البيت العائلي مجدّداً، واغرورقت عيناها بالدموع وهي تعبر الفناء لتصل إلى غرفة الجلوس، وبدت في ملاطفاتها كشابة وهي تقبّل أباها لا تخلو من قصد خفيّ، فقد احمرّت كزوجة مذنبة لا تعرف الاختلاق؛ لكن نظراتها عادت إلى صفائها عندما رأت السيد دي سوليس، فكأنّها تستمدّ منه القوة لتنهي المشروع الذي أعدّته خفية؛ وخلال العشاء، ورغم الحبور الذي ساد الملامح والأحاديث، كان الأب والابنة يعاين كل منهما الآخر باحتراس وفضول. لم يوجّه بلتزار إلى مرغريت أيّ سؤال حول إقامتها في باريس، حفاظاً على الوقار الأبوي على الأرجح، وسار إيمانويل دي سوليس على منواله في هذا

التحفظ؛ لكن بييركين الذي تعوّد أن يتدخل في شؤون العائلة وأسرارها سأل مرغريت مغطياً بمسحة طيبة زائفة: «حسن يا ابنة العم العزيزة، ماذا أعجبك في باريس، العروض المسرحية...

أجابت مقاطعة: «لم أر شيئاً في باريس، فأنا لم أذهب للتسلية، وقد مرت الأيام فيها حزينة بالنسبة لي، وكنت أنتظر بفارغ الصبر العودة إلى دوي.

ـ «لو لم أظهر تكدّري، لما أتت معنا إلى الأوبرا، حيث بدا عليها رغم ذلك الضيق» قال كونينكس.

كانت السهرة مملّة، فكلّ واحد متضايق، يتكلّف الابتسام أو يجهد نفسه للتعبير عن غبطة مفترضة بها قلق حقيقي. كانت مرغريت وبلتزار فريسة تخوّفات قاسية ومبهمة تتفاعل في نفسيهما؛ ،كلّما طالت السهرة كلّما بدا الأب والابنة يفقدان رباطة جأشهما. كانت مرغريت تجرّب أن تبتسم أحياناً، لكن حركاتها ونظراتها ورنة صوتها ملؤها القلق الظاهر؛ وبدا أن كونينكس ودي سوليس يعرفان سبب هذه الانفعالات الغامضة المؤثرة في نفس تلك الفتاة النبيلة، وبدا أنهما يشجعانها بنظرات معبّرة. أما بلتزار، وقد آلمه الاحساس بأنه وضع في معزل عن ترتيب وإجراءات تمت بشأنه، فقد انفصل تدريجياً عن ابنتيه وأصدقائه بالتزامه الصمت. إنّ مرغريت ستكشف له دون شك ماذا قرّرت من أجله؛ إنه وضع لا يحتمل بالنسبة لرجل كبير ولأبٍ، وصل إلى عمر لا يكتم فيه شيء وسط أولاده حيث سعة الأفكار تمنح القوّة للعواطف، ولاحظ اقتراب موعد إدانته باعتزال يماثل الموت الاجتماعي فازداد رصانة وتفكيراً وكآبة. انطوت تلك السهرة على إحدى أزمات الحياة العائلية التي لا يمكن أن تتوضح إلا بالصور، فالسحب القاتمة، ودلائل الصاعقة تتراكم في السماء، بينما الطبيعة باسمة، لكن كل واحد أحسّ بالحرّ وتوقّع العاصفة، فرفع رأسه وتابع طريقه. كان السيّد كونينكس أوّل المنصرفين إلى النوم، وقد أوصله بلتزار إلى الغرفة المخصصة له، وفي أثناء ذلك انصرف بييركين ودي سوليس؛ وودّعت مرغريت موثق العقود بملء المودّة؛ ولم تقل شيئاً لايمانويل، لكنها ضغطت على

يده وهي ترمقه بنظرة مخضلّة بالدمع؛ ثم صرفت فليسيا؛ وعندما عاد كلايس إلى غرفة الجلوس وجد ابنته وحيدة فيها.

قالت مرغريت بصوت مرتعش: أبي الطيّب، لقد أوجبت الظروف الخطيرة التي نحن فيها أن أغادر المنزل، ولكن بعد فترات قلق عديدة، وبعد التغلّب على صعوبات خارقة، أعود إلى المنزل مع بعض حظوظ بالانقاذ لنا جميعاً؛ فبفضل شهرة اسمك، ونفوذ خال العائلة، وحماية السيد دي سوليس، تمكّنا من الحصول لك على وظيفة محصّل مالية في مقاطعة بريتانية، وراتبها، على ما يتوقع، من ثمانية عشر الف إلى عشرين ألف فرنك سنوياً، وقد قام خالنا بتقديم الكفالة، ـ وهو ذا قرار تعيينك ـ قالت ذلك وأخرجت من حقيبة يدها ورقة مخطوطة. إن إقامتك هنا خلال سنوات الحرمان والتضحيات لن تتحمل؛ فوالدنا يجب أن يبقى في وضع مماثل على الأقلّ للوضع الذي عاش فيه دائماً. لن أطلب شيئاً من دخلك، ويمكنك أن تتصرّف به كما يحلو لك. إنّما أرجوك أن تفكّر فقط بأن ليس لدينا أي دخل، وأننا نعيش جميعاً مما يرسله إلينا غوستاف[1] من دخل ماله المودع. لن تعرف المدينة شيئاً عن حياتنا المتقشفة كأننا في دير، فإذا بقيت هنا فستكون عائقاً فيما سنستخدمه من وسائل أنا وأختي لنستعيد الوضع الطبيعي السابق. هل أسأت استعمال السلطة التي منحتني إياها، عندما أمنت لك وضعاً لتستعيد أنت بالذات تكوين ثروتك؟ فخلال عدة سنوات، إن أردت، يمكنك أن تصل إلى رتبة مدير جباية عام.

ـ «أهكذا، يا مرغريت، تطردينني من المنزل؟!» قال بلتزار بهدوء.

ـ أجابت الفتاة وهي تحصر ما يجيش في صدرها من انفعالات عاصفة: «إنني لا استحق مثل هذه الملامة العنيفة، فستعود إلينا عندما يمكنك أن تسكن مدينة مسقط رأسك بالمظهر اللائق بك. عدا عن ذلك، يا أبي ألم تعدني وعداً قاطعاً؟ ثم تابعت ببرود: «يجب أن تطيعني، فخالنا قد بقي هنا ليرافقك إلى بريتانية كي لا تقوم بهذه الرحلة منفرداً.

---

(١) سها عن بال المؤلف ان اسم الأخ غابرييل وليس غوستاف؛ فردّد الاسم الأخير مرتين في موضعين مختلفين.

صاح بلتزار وهو ينهض: «لن أذهب، ولست بحاجة لأيّ كان لتجديد ثروتي، ودفع ما يترتّب عليّ لأبنائي».

«سيكون من الأفضل ذلك؛ لكن أرجو أن تفكّر بوضعنا المتبادل الذي سأشرحه لك بكلمات قليلة. إذا بقيت في هذا المنزل فإن أولادك سيخرجون منه لتبقى فيه السيّد المدبّر» قالت مرغريت دون أي انفعال،

«مرغريت!» هتف بلتزار.

تابعت دون أن يبدو عليها الانتباه إلى انفعال والدها:» ثم يجب إعلام الوزير، عن رفضك، إذا كنت لا تقبل هذا المنصب المربح والمشرّف الذي لم نتمكن من الحصول عليه - رغم مساعينا ووسائطنا - إلا بعد أن وضع الخال بمهارة عدة أوراق مالية من ذات الألف فرنكٍ في قفّاز إحدى السيدات...

- أتتركينني؟

- إما أن تتركنا، أو أن نهرب، لو كنت ابنتك الوحيدة، لسرت على منوال أمي دون أن أتذمّر من الوضع الذي توصلني إليه. لكن أختي وأخويّ لن يهلكا جوعاً أو خيبة رجاء إلى جانبك، فقد قطعت وعداً لتلك التي ماتت هناك - وأشارت إلى موقع سرير أمّها - لقد أخفينا عنك آلامنا، وتعذّبنا بصمت؛ أما الآن فقد استنفذت قوانا، إننا لسنا على حافّة الهاوية، إنّما نحن في قعرها يا والدي! وسحبنا منها لا يتطلب فقط الشجاعة وإنما بذل جهود يجب ألا تتعرّض للاحباط دون انقطاع بتأثير نزوات هوى جامح...

- صاح بلتزار وهو يمسك بيد ابنته «يا أولادي الأعزاء، سأعينكم، سأشتغل»...

- «هو ذا الوسيلة» أجابت وهي تمدّ له الرسالة الوزارية.

- لكن، يا ملاكي، هذه الوسيلة التي تقدمينها لي لإعادة تكوين ثروتي، بطيئة جداً وتجعلينني أضيّع ثمرة عشر سنوات من التجارب، والمبالغ الهائلة التي يمثّلها مخبري، هناك في الأعلى - وأشار إلى السقيفة - تكمن كل ثرواتنا.

سارت مرغريت نحو الباب قائلة: «يا والدي، عليك أن تختار!».

ـ«آه! يا ابنتي كم أنت قاسية!» أجاب وهو يجلس على مقعد مفسحاً لها المجال للانصراف.

في صباح اليوم التالي أنبأ لموكلينيه مرغريت أن السيّد كلايس خرج مبكّراً، فدبّ الشحوب في وجهها عند سماع هذا النبأ البسيط، إذ أن في مغزاه دلالة قاسية، لكن الخادم العجوز أضاف:» كوني مطمئنة، يا آنسة، فسيدي قد قال أنه سيعود في الساعة الحادية عشر لتناول طعام الغداء. إنّه لم ينم، فحتى الساعة الثانية صباحاً، كان ما يزال واقفاً في غرفة الجلوس، ينظر من النوافذ إلى سقوف المخابر، وكنت أنتظره في المطبخ، ورأيته يبكي، إنّه حزين وها هو شهر تموز الشهير الذي يمكن لشمسه أن تغنينا جميعاً، إن أردت...

ـ «كفى!» قالت مرغريت وهي تخمّن جميع الأفكار التي تلاحق والدها.

«لواقع لقد اكتملت لدى بلتزار تلك الظاهرة التي تستحوذ على جميع الأشخاص المقيمين في مكان ثابت، فإن حياتهم تتعلّق، إن صح القول بالأماكن التي تحققت فيها شخصيتهم، ففكر كلايس المقترن بمخبره وبيته يجعلهما ضروريين له كضرورة البورصة للمقامر الذي يعتبر أيام الأعياد أياماً ضائعة. هناك آماله، هناك تنزل من السماء الأجواء الوحيدة التي يمكن فيها لرئتيه أن تستنشق الهواء المحيي. هذا التحالف القائم بين الأمكنة والأشياء وبين البشر يزداد وثوقاً لدى أصحاب الطبائع الضعيفة لكنه أشدّ عنفاً لدى رجال العلم والفكر. ترك البيت بالنسبة لبلتزار يعني التخلّي عن العلم، وعن قضيته، يعني موته.

كانت مرغريت فريسة انفعال عنيف حتى موعد الغداء، فقد عاد إلى ذاكرتها المشهد الذي أراد فيه والدها الانتحار، وخشيت أن ينتهي الوضع القانط الذي يوجد فيه والدها بشكل مأساوي. كانت تسير جيئة وذهاباً في غرفة الجلوس، وهي ترتعد في كل مرّة تسمع فيها رنين جرس الباب، أخيراً عاد بلتزار، وبينما كان يجتاز الفناء، لم تجد مرغريت، التي كانت تدرس ملامحه بقلق، إلا التعبير عن ألم عاصف وعندما دخل إلى غرفة الجلوس، تقدّمت منه

محيّة، فأحاط خصرها بحنان، وضمّها إلى صدره، وقبل جبينها، وهمس في أذنها: «لقد ذهبت أطلب جواز سفري[1]».

رنّة الصوت، والنظرة المستسلمة، وحركة الأب المتثاقلة كل ذلك سحق قلب الفتاة المسكينة التي حوّلت رأسها كي لا تشاهد عبراتها، لكنها لم تستطع حبسها. فذهبت إلى الحديقة حيث ذرفت الدمع مدراراً وعادت لتشهد والدها خلال الغداء وقد بدا مطمئناً كرجل اتخذ قراره، وقد التفت إلى السيد كونينكس قائلاً: «سنذهب إذا إلى بريتانية، أيّها الخال، لقد كنت راغباً دائماً في أن أرى تلك البلاد».

أجاب الخال العجوز: «يمكن العيش هناك بنفقات قليلة فالأسعار معتدلة».

هتفت فليسيا: «هل سيتركنا والدي؟».

حضر السيد دي سوليس مرافقاً لجان.

ـ قال بلتزار: «ستتركه لنا هذا اليوم، إنني مسافر غداً وأريد أن أودعه» قال ذلك وأجلس ابنه قربه.

نظر إيمانويل إلى مرغريت التي غضّت ببصرها، وكان نهاراً قاتماً، بدا كل فرد فيه حزيناً، يحبس أفكاره أو دموعه؛ فهذه السفرة ليست غياباً وإنما هي نفيٌ؛ ثم كان الجميع يشعرون غريزياً بما في تصريح الأب علناً بنكبته من خزي تبدّى في قبوله، وهو في هذا العمر، وظيفة، واضطراره لترك عائلته. وحده كان كبيراً بمقدار ما كانت مرغريت حازمة، وبدا يتقبّل بنبل هذه العقوبة تكفيراً عن الأخطاء التي دفعه نزق العبقرية إلى ارتكابها.

عند انقضاء السهرة، بقي الأب وابنته وحيدين، بعد أن ظهر بلتزار طيلة ذلك النهار حنوناً وودوداً كعهده في الأيام السعيدة من حياته الأبوية، فمدّ يده إلى مرغريت وقال لها بحنان ممزوج بالقنوط: «هل أنت مسرورة من والدك؟».

---

(١) كان جواز السفر ضرورياً للتنقل في فرنسة وخارجها منذ العام ١٧٩٢ واستمر ذلك الوضع حتى العام ١٨٧١.

«إنك جدير بحمل هذا الاسم!» أجابت مرغريت وهي تشير إلى صورة فون كلايس.

في صبيحة اليوم التالي، صعد بلتزار يتبعه لمولكينيه إلى مخبره كأنه يريد أن يودّع الآمال التي داعبها، وكأن التجارب التي بدأها ما تزال ماثلة أمامه حيّة. ألقى المعلم والخادم نظرة مليئة بالكآبة وهما يدخلان السقيفة التي سيتخليان عنها، ربّما إلى الأبد. تأمّل بلتزار هذه الماكنات التي حلّقت أفكاره حولها طويلاً وكلّ منها ترتبط لديه بذكرى بحث أو تجربة؛ ثم طلب من لمولكينيه بمظهر حزين أن يبخر الغازات أو الحموض الخطرة، وأن يبعد المواد التي يمكن أن تحدث تفجيرات. وكان وهو يتخذ هذه الاحتياطات ينطق بكلمات أسف مريرة كتلك التي ينطق بها محكوم بالإعدام قبل ذهابه إلى المقصلة.

قال وهو يتوقّف أمام كبسولة غُمس فيها طرفا سلك بيل فولطا: «هوذا تجربة يجب انتظار نتيجتها، فإن نجحت؛ يا للفكرة المرعبة! إن أولادي لن يطردوا أباً من بيته وهو يلقي الألاميس على أقدامهم. هوذا اتحاد كربون مع كبريت، حيث الكربون يلعب جسم كهربائي موجب ـ قال وهو يحدّث نفسه ـ والتبلور يجب أن يبدأ على القطب السالب، وفي حال التفكك فإن الكربون سيرد إليه متبلوراً.

ـ آه! هكذا سيتمّ ذلك، قال لمولكينيه وهو يتأمّل معلمه بإعجاب.

ـ والحال، تابع بلتزار بعد توقف، فإن الاتحاد خاضع لتأثير هذا البيل الذي يمكن أن يعمل عمله.

ـ إذا أراد سيدي فيمكنني أن أزيد تأثيره...

ـ كلا، كلا، يجب تركه كما هو، فالراحة والزمن شرطان رئيسان للتبلور...

ـ «قسماً، يجب أن تأخذ الزمن اللازم لها، هذه العملية من التبلّور» صاح الخادم.

ـ «إذاً انخفضت الحرارة سيتبلور كبريت الفحم» قال بلتزار، وهو مستمر

في التعبير بنُتف عن أفكار غير متميّزة لتأمّل كامل في مفهومه؛ ولكن إذا تمكن تأثير البيل من تشغيل التفاعل في بعض شروط أجهلها... يجب مراقبة ذلك... إذ من الممكن... ولكن بماذا أفكر؟ إنّ الأمر لم يعد يتعلّق بالكيمياء، يا صديقي، إذ يجب أن نذهب لإدارة تحصيل ضرائب في بريتانية.».

خرج كلايس بسرعة ونزل ليشترك في آخر غداء عائلي يحضره بييركين ودي سوليس. كان بلتزار مستعجلاً لينهي احتضاره العلمي، ثم صعد إلى العربة مع الخال، بعد أن ودّع أولاده، وقد رافقته كل العائلة حتى عتبة المنزل، وهناك، وعندما عانقت مرغريت والدها في عناق طويل يائس، ردّ عليه بأن همس في أذنها: «إنّك فتاة طيّبة، ولن أحقد عليك أبداً». اجتازت الفناء وهربت مسرعة إلى غرفة الجلوس حيث ركعت في المكان الذي توفيت فيه أمها وصلت لله صلاة حارّة لتطلب منه القوة اللازمة لها لإتمام الأعمال الشاقة التي تنتظرها في حياتها الجديدة، وقد تقوّت بصوت داخلي أحسّت أنه يحضن في قلبها تصفيق الملائكة استحساناً وشكر أمّها، وعندها رأت أختها، وأخاها، وإيمانوييل، وبييركين يدخلون بعد أن تأمّلوا العربة حتى غابت عن أبصارهم.

سأل بييركين: «والآن يا آنسة ماذا تنوين أن تفعلي».

- أجابت ببساطة: «أن أنقذ المنزل، إننا نمتلك ألف وثلاثمئة أربنت في وينيي وأنا أهدف إلى إصلاحها وتقسيمها إلى ثلاث مزارع، وإنشاء الأبنية الضرورية لاستثمارها، وتأجيرها، وأنا أعتقد أننا خلال بعض سنوات وبكثير من الصبر والتوفير، فإن كل واحد منا، وأشارت بيدها إلى أخيها وأختها، سيكون له مزرعة من أربعمئة أربنت ونيّف، يمكن أن تعطي في يوم ما، دخلاً يقدّر بنحو خمسة عشر ألف فرنك في العام، أما أخي غوستاف فسيكون نصيبه هذا المنزل وما يملكه في صندوق الاستثمار؛ ومن ثم فسنعيد إلى والدي أملاكه وقد تحرّرت من كل التزام وذلك بأن نخصص مداخيلنا لتسديد ديونه.

قال موثق العقود وهو مندهش من هذه الخبرة في إدارة الاملاك والمحاكمة الهادئة التي عبّرت عنها مرغريت: «ولكن يا ابنة العم العزيزة، يلزمك

ما يزيد عن مئتي ألف فرنك لإصلاح أراضيك، وبناء مزارعك وشراء الماشية، فمن أين تستمدين هذا المبلغ؟.

- «هنا تبدأ متاعبي، فأنا لا أجرؤ على طلبها من خالي الذي قام بكفالة والدي» ثم تطلّعت بالتناوب إلى موثق العقود وإلى السيد دي سوليس.

- «إن لك أصدقاء» هتف بييركين وهو يلحظ فجأة أن آنستي آل كلايس ما تزال كل منها تمتلك أكثر من خمسمئة ألف فرنك.

كان ايمانويل دي سوليس ينظر إلى مرغريت بحنان، لكن لسوء حظّه، بقي بييركين وسط حماسه يتصرف بعقلية موثق العقود الذي أعلن: «أنا أقدّم لك هذه المئتي ألف فرنك!».

تشاور إيمانويل ومرغريت بالنظرات واعتبرها بييركين بارقة أمل، واحمرّت فليسيا بشدّة وقد اسعدها أن ترى ابن عمها شهماً كما تتمناه، وتطلّعت إلى أختها التي خمّنت فجأة، أن الفتاة المسكينة قد وقعت في غيابها تحت تأثير بعض مغازلات بييركين المبتذلة» وتابع بييركين:

«إنّك لن تدفعي لي فوائد إلا خمسة بالمئة، وستسددين لي ديوني متى شئت، وستؤمنين لي على ديوني بوضع إشارة رهن على أراضيك، ولكن كوني مطمئنة فلن تدفعي إلا نفقات عقودك، وسأجد لك مزارعين أكفاء وأدير أعمالكم مجاناً لمساعدتكم كما يتوجب علي كواحد من أهلكم».

كان إيمانويل يشير إلى مرغريت ليشجعها على الرفض، لكنها كانت مشغولة بملاحظة التغيّرات التي تبدو على ملامح أختها بحيث لم تنتبه إلى اشارته. بعد توقّف، نظرت إلى موثق العقود نظرة ساخرة وقالت له من نفسها، مما أثلج قلب دي سوليس: «إنّك فعلاً قريب طيّب، وأنا لا أنتظر أقل من ذلك منك، لكن فائدة الخمسة بالمئة ستؤخّر كثيراً إبراءنا من الديون؛ سأنتظر بلوغ أخي سن الرشد وسنبيع عائداته».

عضّ بييركين على شفتيه، وابتسم ايمانويل بهدوء.

قالت مرغريت وهي تشير إلى أخيها: «فليسيا، يا اختي العزيزة، أوصلي جان إلى كلّيته، وسترافقك مرتا».

والتفت إلى جان: «جان، يا ملاكي، كن عاقلاً، لا تمزّق ثيابك، فلسنا على درجة من الغنى تسمح لنا بتجديدها غالباً كما كنا نفعل سابقاً! هيّا، يا صغيري، ادرس جيّداً. وخرجت فليسيا مع أخيها.

قالت مرغريت لبييركين وللسيدة دي سوليس: «يا ابن العم، وأنت يا سيدي، لقد كنتما دون شك تأتيان لزيارة والدي خلال غيابي وأنا أشكركما على مشاعر الصداقة هذه، ولا شك أنكما لن تنقطعا عن فتاتين مسكينتين تحتاجان دون شك إلى النصائح. فلنتفاهم حول هذا الموضوع!... عندما أكون هنا في المدينة، فإنني استقبلكما دائماً بسرور كبير، ولكن عندما تكون فليسيا بمفردها هنا، مع جوزيت ومرتا، فلست بحاجة للقول لكما بأن يجب ألا تستقبل أحداً، حتى ولو كان صديقاً قديماً أو أكثر الأقارب إخلاصاً لنا؛ ففي الظروف التي نحن موجودون فيها، يجب أن نلتزم في سلوكنا بصرامة لا مأخذ عليها، وهكذا ننذر أنفسنا لمدة طويلة للعمل والعزلة».

ساد الصمت للحظات كان خلالها إيمانويل غارقاً في تأمل رأس مرغريت الذي يبدو صامتاً، ولم يعرف بييركين ماذا يقول، أخيراً استأذن من ابنة عمه وقد بدرت منه حركة غضب يلوم فيها نفسه: لقد خمّن فجأة أن مرغريت تحب إيمانويل وأنه قد تصرّف كأحمق كبير».

قال عندما أصبح في الشارع معنّفاً نفسه: «آه! ماذا فعلت؟ يا بييركين! يا صديقي! إن قال لك أحدهم» إنك حيوان كبير، فهو على حقّ». هل أنا بهيم؟ إنّ لدي اثنتي عشر ألف ليرة دخلاً سنويا، عدا نفقاتي، وبدون أن أحسب تركة عمي دي راكه، وأنا وريثه الوحيدة، وهي ستضاعف ثروتي بين يوم وآخر (أخيراً أنا لا أتمنى موته، فهو مقتصد جداً!)... وكنت من الدناءة بحيث طلبت فوائد من الآنسة كلايس! إنني متأكّد أن الاثنين يسخران مني الآن. يجب ألاّ أفكر مطلقاً بمرغريت، كلا، بعد كل حساب، إن فليسيا مخلوقة صغيرة ناعمة طيّبة، إنها أكثر ملائمة لي، فمرغريت ذات طبع حديدي، إنها تريد السيطرة علي، وستسيطر عليّ! هيّا، فلنظهر الشهامة، لندع جانباً موثق العقود، ألا يمكن إذا أن أتحرّر من هذه العدّة قليلاً؟ يا كيساً للورق!.

سأسعى إلى حبّ فليسيا، ولن أتزحزح عن هذه العاطفة! أيّها المذراة! سيكون لها مزرعة من أربعمئة وثلاثين أربنت ستعطي في فترة ما خمسة عشر إلى عشرين ألف ليرة دخلاً سنوياً، إذا أن أراضي ويني جيّدة، فليمت عمي دي راكه، الرجل الطيب المسكين! وسأبيع مكتبي فأنا رجل ذو دخل خمسين ألف ليرة سنوياً، وزوجتي من آل كلايس، فأنا صهر البيوتات الصغيرة، ياللشيطان! سنرى إن كان آل كورتفيل، وآل ماغالف، وآل سافارون دي سافروس يمتنعون عن زيارة عائلة بييركين - كلايس - مولينا - نورو، سأصبح عمدة دوي، وسأحصل على وسام جوقة الشرف، ويمكنني أن أصير نائباً، سأصل إلى شيء. آه! هذا! بييركين، يافتاي، اصمد جيّداً ولا ترتكب حماقات، خاصة وأنّ، وأقسم لك بشرفي، أن فليسيا... الآنسة فليسيا ڤون كلايس... تحبّك».

بعد أن أصبح العاشقان وحدهما، مدّ إيمانويل يده إلى مرغريت فلم تستطع أن تمتنع عن أن تشدّ عليها بيدها اليمنى، ونهضا سويّة وبحركة موحّدة متوجّهين نحو مقعدهما في الحديقة، لكن وفي وسط غرفة الجلوس لم يستطع العاشق أن يقاوم غبطته، فقال بصوت يرتعش من الانفعال إلى مرغريت: «إنّ لدي ثلاثمئة ألف فرنك لك!...».

هتفت: «كيف؛ هل أودعتك أمي المسكينة شيئاً آخر؟ كلا، ماذا.؟

- أوه يامرغريتي، أليس مالي هو مالنا، نحن الاثنان؟ ألست أنت أوّل من قال نحن

- «ياعزيزي إيمانويل» قالت وهي تشدّ على يده التي ما تزال ممسكة بها؛ وبدلاً من أن تذهب إلى الحديقة ألقت بنفسها على الأريكة.

- «إن عليّ أنا أن أشكرك، لأني لقيت لديك القبول» قال بصوت الحبّ.

- هذه اللحظة، أيّها الحبيب، تمسح كثيراً من الآلام، وتقرّب المستقبل السعيد! نعم، إنني أقبل ثروتك، قالت وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة ملاك، وسأعرف الوسيلة التي تجعل منها ثروة لي» وتطلّعت إلى صورة ڤون كلايس كأنها تريده شاهداً. لم ينتبه الشاب الذي كان يتابع نظرات مرغريت إلى أنها

قد انتزعت من إصبعها خاتم العزوبية، ولم يلاحظ هذه الحركة إلا في اللحظة التي سمع بها هذه الكلمات: «في وسط مآسينا العميقة، تنبجس السعادة، لقد ترك لي أبي، لامبالاة منه، حرية التصرف بذاتي، فخذ يا ايمانويل ميثاقي لك، إنّ أمي قد أحبتك واختارتك» وناولته الخاتم.

ترقرقت الدموع في عيني ايمانويل، وشحب لونه، وجثا على ركبتيه، وقال لمرغريت وهو يقدّم لها محبساً كان يحمله دائماً معه : «إليك محبس أمي يا مرغريتي، فليس لي غيره عربون وفاء لك» وقدّم الخاتم إليها بعد أن قبّله.

انحنت لتضع جبينها في متناول شفتي ايمانويل وقالت:

- للأسف! يا حبيبي المسكين، ألا نرتب شيئاً مؤلماً؟ إنّ علينا أن ننتظر طويلاً.

- كان عمي يقول إن العبادة هي الخبز اليومي للصبر وذلك في معرض حديثه عن المتديّن الذي يحبّ الله، ويمكنني أن أحبك هكذا، فأنا منذ مدة طويلة قد وحّدتك مع الخالق في جميع الأشياء: «وأنا لك، كما أنني له».

بقيا للحظة منصرفين لأحلى تمجيد، لقد كان بوحاً رصيناً هادئاً لعاطفة أشبه بينبوع أترع ففاضَ على دفقات لا تنقطع.

كانت الأحداث التي باعدت بين هذين الحبيبين موضوع كآبة جعلت سعادتهما أكثر حيوية إذ منحتهماشيئاً مبرّحاً كالألم.

لم يحسّا بمرور الوقت إلا عند عودة فليسيا، ورأى إيمانويل المستنير بالحساسية العذبة التي تخمّن كل شيء في الحبّ أن يترك الأختين منفردتين فغادر المنزل بعد أن تبادل مع مرغريت نظرة أمكنها أن ترى فيها كل ما عاناه من ذلك الكتمان، إذ أنّه عبّر فيها عن مدى تلهّفه لهذه السعادة المشتهاة منذ زمن، والتي تكرّست الآن بخطبة القلب.

قالت مرغريت وقد أمسكت فليسيا من عنقها «تعالي إلى هنا، أيتها الأخت الصغرى» وقادتها إلى الحديقة حيث ذهبتا تجلسان على المقعد الذي ركن إليه كلّ جيل وهو يعبّر عن كلمات حبّه، وتنهدات آلامه، وتأمّلاته ومشاريعه.

وبالرغم من اللهجة الفرحة والنعومة المحبّبة المتجليّة في ابتسامة أختها، فقد أحسّت فليسيا بانفعال يشبه حركة الخوف بدت على يدها التي شعرت بها مرغريت ترتعش وهي تتناولها.

«يا آنسة فليسيا، قالت الأخت البكر وهي تقترب من أذن أختها، إنني أقرأ نفسك، لقد جاء بييركين غالباً إلى هنا خلال غيابي، لقد حضر كلّ مساء، وقال لك كلمات حلوة، واستمعت له». احمرّت فليسيا، وتابعت مرغريت:

لا تدافعي عن نفسك، يا ملاكي، فطبيعي أن تشعري بالحبّ! وربما تمكنت روحك الغالية أن تغيّر قليلاً من طبيعة ابن العم، إنّه أناني، نفعي، لكنه رجل شريف، وبدون شك يمكن الاستفادة من عيوبه لسعادتك، إنه يحبك كأجمل قطعة في أملاكه، وسيجعل منك جزءاً من مشاريعه. ألا تغفري لي هذا التعبير، يا صديقتي العزيزة؟ عليك أن تصحّحي العادات السيئة التي تعود من خلالها ألاّ ينظر في كلّ مكان إلا إلى المصالح، وذلك بتعليمه الاهتمام بقضايا القلب». لم تستطع عند ذلك فليسيا إلا أن تقبّل أختها التي استأنفت حديثها. «مع ذلك فهو صاحب ثروة، وعائلته من أعرق وأقدم العائلات البورجوازية، لكن أأكون أنا التي ستعارض سعادتك إن أردت أن تجديها في شروط هزيلة؟...»

لم تبدر عن فليسيا إلا عبارة: «أختي العزيزة!».

- أوه، نعم، يمكنك أن تكشفي عن قلبك لأختك، فكم هو طبيعي أن نتبادل البوح بأسرارنا».

هذه الكلمة المليئة بالاخلاص حدّدت إحدى هذه المحادثات العذبة التي تصارحت فيها الشابتان، وباحتا بكل شيئ؛ وعندما اعترفت مرغريت، التي جعلها الحبّ خبيرة، بحالة فليسيا العاطفية انتهت إلى القول: «حسن. يا أختي العزيزة، لنتأكد من أن ابن العم يحبك حقيقة، و... عندئذ...

- اتركيني أتصرّف، أجابت فليسيا وهي تبتسم فإن لدّي نماذجي.

- «مجنونة!» قالت مرغريت وهي تقبلها على جبينها.

بالرغم من أن بييركين ينتمي إلى ذلك الصنف من الرجال، الذين يرون

في الزواج التزامات، وتنفيذاً للقوانين الاجتماعية، وطريقة لنقل الملكيات، بحيث أن لا فرق لديه في أن يتزوّج فلسيا أو مرغريت، ما دام للاثنتين الاسم العائلي ذاته والدوطة ذاتها؛ غير أنه لاحظ مع ذلك، وفقاً لأحد تعابيره. أنّ الاثنتين من الفتيات الحالمات العاطفيات؛ صفتان يستخدمهما من لا قلب لهم للهزء من الهبات التي تبذرها الطبيعة بيد شحيحة، عبر آثام الانسانية؛ إن موثق العقود قد قال بدون شك بأن يجب العواء مع الذئاب، إذ أنّه في اليوم التالي حضر لرؤية مرغريت واختلى معها في الحديقة الصغيرة، وأخذ يتحدّث حديث العاطفة، إذ أنه رأى فيه أحد شروط العقد البدائي الذي يجب أن يسبق في قوانين المجتمع العقد الموثّق. قال لها:

«يا ابنة العم، لم نكن دائماً على رأي واحد حول الوسائل التي يجب الأخذ بها للوصول إلى نتيجة موفّقة في مشاريعك، لكن يجب أن تتأكّدي هذا اليوم أن رغبة كبرى في أن أكون ذا فائدة لكم هي التي توجّهني دائماً. لكن الواقع أنني شوّهت البارحة عرضي بعادة مشؤومة تسيطر علينا نحن أصحاب الفكر التوثيقي الإجرائي. أتفهمينني؟... إنّ قلبي لم يكن متواطئاً مع حماقتي. لقد همت بك حبّاً، لكن لنا، نحن الآخرين، بعض نفوذ البصر، وقد لاحظت أنني لا أعجبك. هذه غلطتي! فقد كان شخص غيري أكثر براعة مني. الواقع أنني جئت الآن اعترف لك، بالشكل الساذج أنني أكنّ حبّاً حقيقياً لأختك فليسيا، فعامليني إذاً كأخ! إنّ ثروتي تحت تصرفك؛ خذي ما تشاءين مباشرة، هيّا، بقدر ما تأخذين، بقدر ما تبرهنين لي عن مودتكم، كل مالي لكم، دون فائدة، أتسمعينني؟ لا أريد أثني عشر، ولا ربع بالمئة. ما يهمني أن أكون جديراً بفليسيا. اغفري لي عيوبي، فهي ناتجة عن الممارسات المالية؛ أما القلب فطيّب. إنني سأرمي بنفسي في نهر السكارب إذا لم أكن قادراً على إسعاد زوجتي.

ـ هوذا التصرّف الطيّب، يا ابن العم! قالت مرغريت، لكن أمر أختي يتعلق بها، وبوالدنا...

ـ إنني أعرف هذا، يا ابنة العم العزيزة، لكنك أمّ لجميع العائلة، وما من شيء أقرب إلى القلب من أن تكوني أنتِ الحكم على قلبي.

هذه الطريقة في الكلام تمثّل جيّداً روح موثق العقود الشريف؛ وقد أصبح بييركين فيما بعد شهيراً بجوابه لقائد ثكنة سان - أومر الذي جاء يرجوه حضور أحد الاحتفالات العسكرية: **هل المناسبة والمستقبل على مستوى السيد بييركين - كلايس دي مولنا - نورو، عمدة مدينة دوي، الحائز على مدالية جوقة الشرف من رتبة فارس، الخ....**

ارتضت مرغريت بمعونة موثق العقود، إنّما فيما يتعلّق بمهنته فقط، بحيث لا تتعارض بشيء مع جدارتها كامرأة، أو مع مستقبل أختها، أو مع مقرّرات والدها؛ وقد عهدت في ذلك اليوم بالذات بتوجيه أختها في غيابها إلى جوزيت ومرتا اللتين نذرتا الروح والجسد لسيدتهما الشابة سيّما في مساعدتها على تنفيذ خططها في التوفير.

انطلقت مرغريت إلى وينيي حيث بدأت بسرعة عملياتها التي قادها بمهارة بييركين وقد تبدّى الوفاء في ذهن الموثق كأفضل المساهمات فكانت اهتماماته وجهوده التي لم يدخر وسعاً في بذلها وكأنّها رأس مال مستخدم، فقد عمل أولاً على تجنيب مرغريت نفقات إصلاح وحراسة الأراضي المخصّصة للمزارع، فأحضر ثلاثة من أبناء المزارعين الأغنياء الشبـ ب الذين يرغبون في تأسيس مشاريعهم المستقلة، وأغراهم بالإمكانية التي تقدّمها لهم تلك الأراضي الخصبة ونجح في تأجيرهم مسبقاً المزارع الثلاث التي ستبنى متنازلاً عن أجرة ثلاث سنوات لقاء نفقات التأسيس، وتعهد المزارعون الشباب بدفع أجرة عشرة آلاف فرنك في السنة الرابعة، واثني عشر ألفاً في السنة السادسة، وخمسة عشر ألفاً بعد ذلك وطيلة مدة العقد، وأن يجروا الحُفَر ويغرسوا الأشجار ويشتروا المواشي، وبينما كانت المزارع تبنى، جاء المزارعون لاصلاح الأرض.

لم تمض أربع سنوات على رحيل بلتزار، حتى تمكّنت مرغريت أن تستعيد تقريباً ثروة أخيها وأختها، وكان مبلغ مئتي ألف فرنك كافياً لإنشاء المزارع، إذ لم يبخل أحد بالمساعدات أو النصائح على هذه الفتاة الشجاعة التي حازت على إعجاب المدينة بسلوكها.

أشرفت مرغريت على أبنيتها وتنفيذ صفقاتها واتمام مكاراتها بذلك الوعي والنشاط والمثابرة التي تتميّز بها النساء عندما تحفزّهن العواطف السامية؛ وقد أمكنها منذ السنة الخامسة أن تخصّص ثلاثين ألف فرنك من كراء المزارع وريع استثمار إيداع أخيها ودخل أملاك والدها لتسديد الرهنيّات وإجراء الاصلاحات في المناطق التي تضرّرت في المنزل من جراء أهواء بلتزار، وهكذا سار استهلاك القروض سريعاً مع تناقص الفوائد، وقد قدّم لها إيمانويل دي سوليس مبلغ المئة ألف فرنك الباقية من تركة عمه والتي لم تلزمها، كما وأضاف إليها مبلغ عشرين ألف فرنك من مدّخراته بحيث أنّها تمكّنت منذ السنة الثالثة من إدارتها أن تسدّد قسماً كبيراً من الديون. هذه الحياة المفعمة شجاعة وحرماناً ووفاء لم تخب أبداً خلال خمس سنوات، بل كانت كلها نجاحاً وتقدّماً تحت إدارة ونفوذ مرغريت.

تخرّج غابرييل مهندساً مختصاً بالجسور والطرقات وتمكن بمساعدة خال الاسرة على جمع ثروة بسرعة نتيجة تعهد شق قناة وعرف كيف يستميل قلب قريبته الآنسة كونينكس التي يعبدها والدها والمعتبرة من إحدى الوريثات الأكثر غنى في مقاطعة الفلاندر؛ وفي العام ١٨٢٤ فكّت كامل الرهون عن أملاك كلايس، وأُصلحت شؤون البيت في شارع باريس، وطلب بييركين يد فليسيا رسمياً من والدها وكذلك فعل السيد دي سوليس بالنسبة لمرغريت.

في مطلع شهر كانون الثاني ١٨٢٥ ذهبت مرغريت والسيد كونينكس للمجيء بالأب المنفي الذي تمنّى الجميع بحرارة عودته، فقدّم استقالته ليتسنى له البقاء وسط عائلته حيث ستلقى السعادة تصديقاً لها؛ وخلال غياب مرغريت التي عبّرت مراراً عن أسفها لأنها لم تتمكن من إملاء الأطر الفارغة في الصالة الكبرى وقاعات الاستقبال من أجل اليوم الذي سيستعيد فيه والدها منزله؛ قام بييركين ودي سوليس بالاتفاق مع فليسيا بتحضير مفاجأة لمرغريت أرادت من خلالها أيضاً الأخت الصغرى أن تساهم في ترميم بيت كلايس. واشترى الشابان بعض اللوحات الجميلة التي قدماها لفيلسيا لتزين القاعة الكبرى. كما

أن السيد كونينكس خطرت لديه الفكرة نفسها إذ أراد أن يعبّر لمرغريت عن رضاه لسلوكها النبيل وتضحيتها من أجل إنجاز المهمة التي عهدت إليها بها أمّها فأوصى أن تنقل إلى بيت كلايس نحو خمسين لوحة من أجمل لوحاته وبعض اللوحات الأخرى التي كان كلايس قد باعها، وهكذا أعيد تأثيث الصالة الكبرى في المنزل.

كانت مرغريت قد زارت أبوها عدة مرات ترافقها أختها أو أخوها جان؛ وكانت تلاحظ في كل مرّة أنه يتغيّر تدريجياً، ولكن منذ زيارتها الأخيرة، بدت الشيخوخة لدى بلتزار تظهر بأعراض مفزعة زاد دون شك من حراجتها التقتير الذي كان يعيش فيه بلتزار ليوفر النصيب الأكبر من راتبه من أجل إجراء بعض التجارب التي كانت تخيب ظنّه دائماً، وبالرغم من أنه لم يكن قد تعدّى الخامسة والستين من العمر، فقد كان يبدو وكأنه في الثمانين. كانت عيناه قد غارتا بعمق في محجريهما، وقد ابيضّ حاجباه. ولم يبق في رأسه إلا شعرات قليلة تكاد لا تغطي قذاله، وقد أرسل لحيته، إنّما كان يقصّها من وقت إلى آخر بالمقص عندما تضايقه، وانحنى ظهره ككرّام عجوز، كما أتخذت الفوضى في هندامه مظهر البؤس الذي زاده الضعف بشاعة. بالرغم من أن فكرة قوّية تسكب الحياة في هذا الوجه الكبير الذي تختفي ملامحه تحت التجاعيد، فإن النظره الجامدة، والسحنة القانطة والقلق المستمر تحفر فيه كل تشخيصات العته أو بالأحرى الأعتاه كلّها سوّية، فمرّة يتجدّد فيه الأمل فيظهر بلتزار مثالاً معبّراً عن الهوس الأحادي، ومرة أخرى يخلع عليه نفاذ الصبر لعدم كشفه سرّاً، يبدو له وكأنه أمر تافه، كل علائم الغضب، ثم تكشف ضحكة مجلجلة عن مظهر جنوني فيه، أخيراً فإن الوهن الكامل في معظم الوقت يختصر تجليات هواه بكآبة الحمق الباردة. مهما كانت هذه التعابير عرضية وغير محسوس بها من قبل الغرباء، فإنّها للأسف كثيرة الحساسية لأولئك الذين يعرفون كلايس السامي في طيبته، الكبير القلب، الجميل الوجه جمالاً لم تبق منه إلا آثاره نادرة.

أما لمولكينيه فقد شاخ وتعب كمعلمه من الأعمال المتواصلة لكنه لم يتعرّض مثله لمتاعب الفكر لذلك فإن سحنته تبدي مزيجاً فريداً من القلق والإعجاب بمعلمه، الذي قد يسهل أن يخطىء فيه بالرغم من أنه يستمع لأقلّ كلمة يقولها باحترام، ويتبّع أقل حركاته بنوع من الحنان يبدو فيه وكأنه يرعى العالم كما ترعى الأم ولدها، وغالباً ما يبدو بهيئة من يحميه، لأنه يحميه فعلاً في ضرورات الحياة التافهة التي لا يفكر بلتزار فيها أبداً. هذا العجوزان المجتمعان على فكرة، الواثقان بحقيقة أملهما، المتأثران بنفحة واحدة، يمثل أحدهما القشرة والآخر لبّ وجودهما المشترك، ويشكلاّن مشهداً رهيباً ومؤثراً في آن معاً.

عندما وصلت مرغريت والسيد كونينكس وجدا كلايس يقيم في نَزْل إذ أن خلفه عجّل بالمجيء واستلام المكان.

إلى جانب اهتمامات العلم، كانت الرغبة برؤية الوطن، والبيت والعائلة تهزّ مشاعر بلتزار، فرسالة ابنته تنبئه بأحداث سعيدة، وكان يفكر بأن يتوّج سيرته بسلسلة من التجارب تقوده أخيراً إلى الكشف عن حلّ مسألته؛ لذا كان ينتظر مرغريت بفارغ صبر شديد، وقد ألقت الابنة عند وصولها بنفسها بين دراعي والدها وهي تبكي فرحاً، فقد جاءت هذه المرّة سعياً وراء جائزة حياة أليمة، وطلباً لغفران عن ظفر عائلي، كانت تشعر بالذنب على طريقة أولئك الرجال الأمجاد الذين يخالفون الحريات لينقذوا الوطن؛ لكن عند تأملها لوالدها ارتعشت لما رأت فيه من تغيرات عن زيارتها السابقة؛ وقد شاركها كونينكس في ذعرها الخفي وألحّ لانتقال قريبه بأسرع ما يمكن إلى دوي حيث يمكن لتأثير الوطن أن يردّ إليه الوعي والصحة بالارتداد إلى الحياة السعيدة في البيت العائلي، بعد تجليات مشاعر القلب الأولى التي بدت لدى بلتزار أكثر شدّة مما توقّعت مرغريت، أبدى الأب حيال ابنته اهتمامات فريدة، فأسف لأنه يستقبلها في غرفة حقيرة في نزل، واستفهم عمّا يعجبها، وسألها عمّا تريد تناوله من مآكل في وجبات طعامها وذلك بعناية أشبه بعناية العاشق المتيّم؛ تصرّف أخيراً كمذنب يريد رضى قاضيه.

كانت مرغريت تعرف جيّداً أباها بحيث خمنت بسرعة مبعث هذه الرّقة، مفترضة أن ما يزال عليه في المدينة بعض ديون يريد تسديدها قبل رحيله.

أمعنت التأمل خلال فترة من الوقت بأبيها، فتجلّى لها عند ذلك القلب البشري عارياً. لقد صغر بلتزار، والشعور بانحطاطه، والعزلة التي وضعه العلم فيها جعلاه خجولاً وطفلاً في جميع المسائل الغريبة عن اهتماماته المفضلة. لقد فرضت عليه ابنته ذكريات تضحيتها الماضية، بالقوة التي أبدتها، والإحساس بالسلطة الذي سمح لها به، والثروة التي تصرفت بها، والعواطف الغامضة التي تملكته منذ اليوم الذي تخلى فيه عن سلطته الأبوية، وقد كانت مهملة، والتي كبرت دون شك يوماً بعد يوم. بدا كونينكس وكأنه لا شيء في نظر بلتزار، فهو لا يرى إلا ابنته، ولا يفكر إلا بها، وبدا وكأنه يخشاها كبعض الأزواج الضعفاء الذين يخشون امرأتهم القوية التي تسيطر عليهم؛ فعندما يرفع عينيه نحوها فإن مرغريت تباغت فيهما، بألم، تعبير خوف يشابه خوف الطفل الذي يشعر بذنبه فلا تعرف الفتاة النبيلة كيف توفّق بين المتعبير المبجل والمروّع لهذا الرأس الذي تكتسحه التجارب والعلم والابتسامة السخيفة والمذلّة السانجّة التي ترتسم على شفتي بلتزار وهيئته. لقد تألمت لهذا التباين الظاهر بين ذاك الكبر وهذه الحقارة، وعزمت على أن تستخدم كلّ تأثيرها ليسترد والدها عزة نفسه في اليوم الاحتفالي الذي سيظهر به في وسط عائلته، فاغتنمت أولاً فرصة وجودهما منفردين لتهمس في أذنه: «هل يتوجّب عليك شيء هنا»؟ احمرّ بلتزار وأجاب بشكل مرتبك: «لا أعلم، ولكن لمولكينيه سيخبرك. فهذا الولد الطيب أكثر تتبعاً لأحوالي الماديّة مني أنا بالذات».

قرعت مرغريت الجرس للخادم، وعندما حضر درست بشكل لا إرادي هيئة العجوزين: «هل يريد سيّدي شيئاً؟» سأل لمولكينيه.

شعرت مرغريت، وهي الممتلئة اعتزازاً ونبلاً، بانقباض في القلب، لملاحظتها في لهجة الخادم وتصرفه شيئاً من الدالّة السيئة بين والدها ورفيق مشاغله،فقالت «ألا يمكن لأبي هنا أن يجري حساب ما عليه بدونك؟».

ـ يتوجب على السيد...

أشار بلتزار، عند هذه الكلمات، لخادمه، إشارة مبطّنة فاجأتها مرغريت وشعرت بإهانتها، فصاحت: «قل كل ما يترتب على والدي هنا».

ـ يترتب على سيدي هنا ألف إكو لعطّار يدير محل أفاويه بالجملة، وقد أحضر لنا بوتاساً كاوياً ورصاصاً وزنكاً ومواد فعّالة..

ـ «أهذا كلّ شيء؟» سألت مرغريت.

ـ كرّر بلتزار اشارته المؤكّدة للمولكينيه الذي أجاب وقد أربكه معلمه: «نعم يا آنسة».

ـ «حسن، سأسدّد لك إياها» تابعت.

قبل بلتزار ابنته بغبطة قائلاً لها: «إنّك ملاك بالنسبة لي يا ابنتي»! وبدا عليه الارتياح، وهو ينظر إليها بعين أقل كآبة، لكن رغم هذا الفرح لاحظت مرغريث بسهولة على وجهه علائم قلق عميق وحكمت أن هذه الألف إكو تشكّل فقط ديون المخبر المطالب بها.

قالت بعد أت تركته يجلسها على ركبتيه مدللاً: «كن صريحاً يا أبي، هل تترتب عليك أشياء أخرى؟ اعترف لي بكلّ شيء، عد إلى بيتك دون أن تحبس أي عامل خشية وسط البهجة العامة».

قال وهو يأخذ يديها ويقبلهما برقّة بدت وكأنّها من ذكريات شبابه

ـ يا عزيزتي مرغريت، ستوبخينني...

ـ كلا، أجابت.

«صحيح، هل يمكنني ذكر كل شيء، هل ستدفعين...» قال وقد بدرت منه حركة فرح طفولية.

ـ نعم، قالت وهي تحبس الدموع الوافدة إلى عينيها.

ـ الواقع يترتب... أوه! لا أجرؤ،...

ـ لكن، قل يا أبي!

ـ«إنّه مبلغ معتبر» وضمّ يديه بحركة قنوط وقال: «إنني مدين بثلاثين ألف فرنك إلى بروتز وشيفرڤيل.

- «إنّ مدّخراتي تبلغ ثلاثين ألف فرنك، ويسرّني أن أقدمها لك» قالت وهي تقبل جبينه باحترام.

- نهض، وأخذ ابنته بين ذراعيه ودار حول الغرفة وهو يرفعها ثم يضعها على الأرض كطفل صغير وأخيراً أجلسها على المقعد العريض حيث كانت وهو يهتف: «يا ابنتي العزيزة، أنت كنز حبّ. لم أكن أحيا أبداً، فقد كتب لي آل شيفرفيل ثلاث رسائل تهديد وأرادوا ملاحقتي، أنا الذي أخذوا منه ثروة.

- أبي، إنّك ما تزال تتابع أبحاثك؟ قالت بلهجة قنوط.

- ما أزال دائماً. قال مع ابتسامة جنون، سأجده! هيّا... لو تعلمين أين نحن أصبحنا.

- من نحن؟

- إنني أتحدث عن لمولكينيه، لقد توصل أخيراً إلى فهمي، وهو يساعدني جيّداً ياللولد المسكين، إنه يتفانى في سبيلي!

قطع كونينكس المحادثة بدخوله، فقد أشارت مرغريت لوالدها بأن يصمت خشية أن يفقد اعتباره في نظر خال الأسرة. لقد أرعبها التلف الذي أحدثه انشغال الفكر في هذا المخ المتميّز بالذكاء الوقّاد المستغرق في بحث مشكلة قد تكون غير قابلة للحلّ؛ فبلتزار الذي كان دون شك لا يرى إلى أبعد من أفرانه، لم يخمّن حتى تحرّر أملاكه من الديون.

في اليوم التالي سافر الجميع إلى الفلاندر، وكانت الرحلة طويلة تقريباً أتاحت لمرغريت أن تقتبس بعض المعلومات المشوّشة عن العلاقة القائمة بين لمولكينيه ووالدها. هل للخادم على السيد تلك الهيمنة التي يعرف كيف يكوّنها على رجال الفكر الكبار الأشخاص الذين لا ثقافة عندهم إلا الشعور بمدى الحاجة إليهم والذين من تنازل إلى تنازل يعرفون كيف يسيرون نحو السيطرة بالمثابرة التي تمنحها الفكرة الثابتة؟ أو أن المعلم قد أحسّ تجاه خادمه بنوع من

الودّ المتولّد عن الاعتياد، والمماثل لتعلّق العامل بأداته المبدعه، أو معاملة العربي لمطيّته المحرّرَة؟ ترصّدت مرغريت بعض الوقائع لتقرّر، وقد عزمت على أن تنقذ بلتزار من سلطة مذلّة في حال وجودها.

عند المرور بباريس، بقيت فيها عدّة أيام لوفاء ديون والدها والطلب من صانعي المواد الكيميائية عدم توجيه أيّة إرسالية إلى دوي دون إعلامها مسبقاً بطلبات والدها؛ وحصلت من والدها على وعد بأن يغيّر بزّته ويتقيّد بالهندام الملائم لرجل من مستواه. هذا الترميم الجسمي أعاد لبلتزار نوعاً من الهيبة الفيزيائية التي اعتبرت طابع يُمن من أجل تغيير الأفكار؛ وعمّا قليل تسافر الابنة، السعيدة مسبقاً بجميع المفاجآت التي تنتظر والدها في بيته الخاص، إلى دوي.

على بعد ثلاثة فراسخ من تلك المدينة وجد بلتزار ابنته فليسيا تمتطي حصاناً يواكبها أخواها وايمانويل وبييركين والأصدقاء الخلّص للعائلات الثلاث.

ألهت الرحلة بالضرورة الكيميائي عن أفكاره المعتادة وأثّر مظهر الفلاندر على عواطفه، وبان عليه الانفعال الشديد عندما أبصر الموكب الذي شكّلته عائلته وأصدقاؤه، فاغرورقت عيناه بالدموع، وارتعش صوته، واحمرّ جفناه، وقبّل بولع، أولاده دون أن يستطيع تركهم حتى أن مشاهدي ذلك المنظر غلب عليهم الدمع وعندما شاهد مجدّداً منزله، شحب لونه، وقفز خارج عربة السفر بخفة فتى في ريعان الشباب، واستنشق هواء الفناء بعذوبة، وأخذ يتأمّل أدق التفاصيل بسرور يطفح من حركاته وانتصب وقد بدت على هيئته ملامح الشباب؛ وعندما دخل إلى غرفة الجلوس، ترقرقت الدموع في عينيه وهو يرى الدقة التي اعتمدتها ابنته في إعادة صياغة شمعدانات فضّية مماثلة لتلك القديمة التي بيعت فيها، كما أن آثار النكبات السابقة قد رممت وأصلحت.

أجريت حفلة غداء رائعة في قاعة الطعام التي امتلأت خزانتها مجدداً بالطُّرَف والفضيّات المعادلة في قيمتها لتلك التي كانت فيها أولاً؛ وبالرغم من أن

هذه الوليمة العائلية قد استمرت طويلاً، فقد كاد الوقت لا يكفي للعرض الذي طلبه بلتزار من كل واحد من أولاده. إن الهزّة التي طبعت هذه العودة فيها روحه المعنوية جعلته ينسجم مع سعادة العائلة التي احتل فيها مكانته كأب، واستعادت تصرفاته مظهر نبلها القديم. لقد استسلم في الفترة الأولى لمتعة الحيازة دون أن يسأل عن الوسائل التي استعاد فيها كا ما فقده وهكذا كانت فرحته مترعة وتامّة.

بعد انتهاء حفل الغداء انتقل الأولاد الأربعة والأب وبييركين موثق العقود إلى غرفة الجلوس حيث وقع نظر بلتزار، ليس بدون قلق، على أوراق مدموغة حملها كاتب وقف قرب منضدة كأنه ينتظر مساعدة معلمه، وجلس الأولاد أمّا بلتزار فوقف مندهشاً أمام المدفأة. تقدّم بييركين قائلاً:

«هذا هو حساب الوصاية الذي يقدمه السيد كلايس لأولاده، وبالرغم من أنه ليس مسلياً جداً فيجب قطعاً الاستماع إليه» قال ذلك ضاحكاً على طريقة موثقي العقود الذين يظهرون بصورة عامة تقريباً روح الدعابة ليتحدثوا عن القضايا الأكثر جديّة.

بالرغم من أن الظروف تبرّر العبارة، فقد رأى فيها كلايس، الذي استيقظ في وجدانه ماضي حياته، لوماً له، وقطّب حاجبيه. بدأ الكاتب بالقراءة تحت دهشة بلتزار التي أخذت تتزايد كلّما ازداد الموضوع بسطاً.

ذكر أولاً أن ثروة الزوجة، عند وفاتها، وصلت إلى نحو مليون وستمئة ألف فرنك تقريباً. إن خلاصة تقديم هذا الحساب تعطي بشكل صريح لكلّ من الأولاد نصيباً كاملاً، كما ينتج عن إدارة اب عائلة طيب ومعتن. كما تبيّن أن البيت حرّ من كل رهن، وأن بلتزار صاحب ملكيته، كما أن أملاكه في الأرياف طليقة. بعد أن وقعت جميع الصكوك، عرض بييركين الوصولات المشعرة بتسديد الديون السابقة ورفع الرهن الذي كان مضروباً على الأملاك. في تلك اللحظة تهالك بلتزار، الذي استرد في آن واحد شرف الرجل، وحياة الأب، واعتبار المواطن، على مقعد عريض؛ وبدا أنه يفتش بعينيه عن مرغريت التي تغيبت،

التزاماً منها بإحدى لياقاتها السامية كامرأة، عن تلك القراءة؛ وتذرّعت بالإشراف على اكتمال جميع مستلزمات الاحتفال. أدرك كل واحد من أفراد العائلة فكرة العجوز في اللحظة التي كانت فيها عيناه المغرورقتان بالدمع على ضعفهما تبحثان عن ابنته، التي كانوا جميعهم في تلك اللحظة يرونها بأعين الروح كملاك من قوّة ونور.

وذهب لوسيان[1] يفتش عن مرغريت؛ وبسماع خطواتها هرع إليها بلتزار يضمّها إلى صدره.

قالت له وهما في أسفل الدرج حيث كان العجوز يضمّها إلى صدره شاكراً: أرجوك يا أبي ألا تنقص شيئاً من سلطتك المقدّسة، اشكرني أمام كل العائلة لأنني قد نفذت جميع رغباتك، وكن هكذا الفاعل الوحيد لهذا الإنجاز الخيّر الذي تمّ هنا».

رفع بلتزار عينيه إلى السماء، ونظر إلى ابنته، وصالب يداه وقال بعد توقّف ظهر فيه على وجهه تعبير لم يره فيه أولاده منذ عشر سنوات: «فلتكن روحك هنا يا بيبتا لتكبري عمل ابنتنا» وضمّ مرغريت بشدة دون أن يتمكن من النطق بكلمة ودخل؛ فخاطب الحاضرين بكل نُبل الهيئة التي جعلت منه سابقاً أحد الرجال الأكثر مهابة:

«يا أولادي، يتوجّب علينا جميعاً الشكر والعرفان بالجميل لابنتي مرغريت، للحكمة والشجاعة اللتين حقّقت بهما مقاصدي، ونفذت مخططاتي عندما عهدت، إليها لاستغراقي الكلّي في تجاربي، بمقاليد إدارتنا المنزلية.

ـ ثم قال بييركين وهو ينظر إلى ساعته: آه! الآن، سنقرأ عقود الزواج، لكن هذه الصكوك لا تعود إليّ باعتبار أن القانون يمنعني من تحرير صكوك تتعلّق بأهلي أو بي. لكن العم رابارليه سيأتي الآن».

في تلك اللحظة، أخذ يفد تباعاً أصدقاء العائلة المدعوون إلى العشاء

---

(١) اعتمد بلزاك اسم «جان» عوضاً عن اسم «لوسيان» للابن الأصغر في عائلة كلايس، عند إعداد هذه الرواية لطبعة شاربنتيه، ويبدو أنه قد سها عن تصحيحه في هذا الموقع.

احتفالاً بعودة السيد كلايس، وبمناسبة عقود القران، وبينما كان الخدم يحملون هدايا الأعراس كان الجمع يتزايد بسرعة ويغدو أكثر وقاراً لما تميّز به الحاضرون من مهابة وغنى في الأناقة، فالعائلات الثلاث التي جمعتها سعادة أبنائها أرادت أن تتنافس في الفخامة، وخلال لحظات امتلأت الصالة بالهدايا الرائعة المقدّمة للعرسان وتجلّى الذهب وتلألأ، وعرضت الحرائر. ونشرت شالات الكشمير والعقود والحلي فرحاً حقيقياً لدى من يقدّمها ولدى اللواتي يتلقينها، هذا الفرح شبه الطفولي كان يرتسم على جميع الوجوه حتى أن قيمة هذه الهدايا الرائعة قد نسيت من قبل خليّي البال، الذين غالباً ما ينشغلون بتقييمها وحسابها فضولاً منهم. بدأت عند ذلك المراسم المألوفة لهذه المناسبة ضمن عائلة كلايس، حيث يحقّ للأب والأمّ فقط الجلوس، أما الحضور فيبقون واقفين على مسافة منهم، وقف إلى يسار القاعة ومن جهة الحديقة غابرييل كلايس والآنسة كونينكس، وقربهما السيد دي سوليس ومرغريت، ثم فليسيا وبييركين وعلى بعد خطوات بلتزار وكونينكس وهما الوحيدان في هذا الجمع اللذان جلسا فجلس كل منهما على مقعد وثير قرب موثق العقود الذي حلّ محلّ بييركين. كان جان واقفاً خلف أبيه.

كانت حلقة ضمت نحو عشرين امرأة في غاية الأناقة، وبعض الرجال من أقارب بييركين وكونينكس وكلايس، وعمدة دوي الذي سيتم مراسم الزواج، والشهود الاثني عشر الذين اختيروا من أقرب أصدقاء العائلات الثلاث ومن بينهم الرئيس الأوّل في المحكمة الملكية، وكاهن كنيسة سان بيير، في دائرة مهيبة تعطي لهذا المشهد الذي يتجلى فيه التبجيل للأبوّة مظهراً فريداً، إنّها اللحظة الوحيدة منذ ستة عشر عاماً التي نسي فيها بلتزار بحثه عن المطلق.

سأل رابارليه موثق العقود إن كان جميع المدعوين إلى حضور مراسم التوقيع، وحفل العشاء الذي سيعقبها قد وصلوا؛ وعندما أجابت مرغريت واختها بالإيجاب أخذ عقد زواج مرغريت ودي سوليس لقراءته أوّلاً، عندما فتح الباب فجأة وظهر لمواكينيه وقد بدا وجهه متوهجاً من شدة الفرح وهو يصيح «سيدي،

سيدي!» تطلّع بلتزار إلى مرغريت بنظرة قنوط، وأشار إليها فتبعته إلى الحديقة، وساد الهرج في الجمع.

همس الأب لابنته: «لم أجرؤ أن أقول لك يا ابنتي كل شيء، لكن بعد كل ما فعلته لي، ستنقذينني من هذه البلوى الأخيرة؛ لقد أقرضني لولكينيه لتجربتي الأخيرة التي لم تنجح عشرين ألف فرنك، هي ثمرة مدخراته. وقد جاء التعس دون شك يطالب بها بعد أن عرف أنني أصبحت مجدّداً غنياً. أعطها له حالاً، فإن بقاء والدك حيّاً مدين له، فهو وحده الذي واساني في أيام البلوى، وهو وحده الذي آمن بي، من المؤكد أنني بدونه كنت ميتاً...

- «سيدي، سيدي!» هتف لولكينيه مجدّداً.

- ما الأمر؟ قال بلتزار وهو يلتفت نحوه.

- الماسة!...

قفز كلايس إلى الصالة، وقد لاحظ الماسةَ في يد خادمه الذي قال له بصوت منخفض: «لقد ذهبت إلى المخبر».

ألقى الكيميائي: الذي كان قد نسي كل شيء على الفلمندي العجوز نظرة متأمّلة لا يمكن إلا أن تفسّر بهذه العبارة: «كنت الأوّل الذي ذهب إلى المخبر!» تابع الخادم: «ووجدت هذه الألماسة في الكبسولة المتصلة بذلك البيل الذي تركناه يقوم بعمله كالمعتاد، وقد فعل يا سيدي!» ورفع في يده ألماسة بيضاء مثمنة الوجوه لفتت ببريقها انظار الجمع المندهشة.

التفت بلتزار إلى الحاضرين قائلاً:

«يا أولادي، يا أصدقائي، أغفروا لخادمي العجوز جلبته، واغفروا لي ما يكاد يفقدني الصواب. لقد انتجت صدفة سبع سنوات، بدوني، اكتشافاً أفتش عنه منذ ستة عشر عاماً. كيف؟ لا أدري. نعم لقد تركت كبريت الكربون تحت تأثير بيل فولطا يجب مراقبة تأثيراته كل يوم، والواقع أن قدرة الله قد انبثقت في غيابي، في مخبري دون أن أستطيع، بالطبع، تتبع نتائجها تدريجياً! أليس هذا مروعاً؟ يا للمنفى اللعين! يا للصدفة اللعينة! للأسف! لو أنني تتبّعت بدقة

هذا التبلور الطويل... البطيء... المفاجىء. لا أعلم ماذا أقول... هذا التحوّل... أخيراً هذه الأعجوبة...لغدا أولادي أكثر غنى الآن... وبالرغم من أنّ هذا ليس حلّ المسألة التي أبحث فيه، فهو على الأقل الاشعاعات الأولى لمجد أفخر به وسينعكس انتصاراً لوطني. إن هذه اللحظة التي تجعلها احتفالاتنا العاطفية متوهجة بالسعادة تزداد دفئاً وألقاً بشمس العلم.

لزم كل واحد الصمت أمام هذا الرجل، فالكلمات غير المنسجمة التي أقتلعتها منه الآلام كانت معبّرة عن حقائق جليّة إن لم تكن سامية.

فجأة كبح بلتزار القنوط المعتمل في نفسه وألقى على الحضور نظرة جليلة تألّقت لها النفوس، وتناول الألماسة وقدّمها إلى مرغريت هاتفاً:

«إنّها لك يا ملاكي!» ثم صرف لمولكنيه باشارة والتفت إلى موثق العقود قائلاً: «لنتابع».

أثارت هذه الكلمة في الجمع رعشة مماثلة لتلك التي كان يحدثها تالما(1) خلال بعض أدواره، في الجماهير المصغية إليه.

جلس بلتزار وهو يقول بصوت منخفض: «يجب ألاّ أكون إلا أباً هذا اليوم».

تقدمت مرغريت التي سمعت هذه الكلمة، فتناولت يد والدها وقبّلتها باحترام.

«ما من رجل كان بهذا الكبر» قال إيمانويل عندما عادت خطيبته إلى قربه. «ما من رجل بهذه القدرة، فأي واحد غيره يصاب بالجنون».

قرئت العقود الثلاثة ووقّعت، وأسرع كلّ واحد يسأل بلتزار عن الطريقة التي تشكّلت فيها هذه الألماسة؛ لكنه لم يستطع الاجابة عن حدث يبدو كثير الغرابة، وتطلّع إلى السقيفة، وأشار إليها بغضب.

«نعم، إنّ القدرة المروّعة الناتجة عن حركة المادة الملتهبة التي شكّلت دون شك المعادن، والألاميس، قد تجلّت هنا لفترة، صدفة.

---

(1) تالما: (١٧٦٣ ـ ١٨٢٦) ممثل تراجيدي فرنسي اهتم بالحقيقة التاريخية وأعاد اللهجة الطبيعية للمغالاة المأساوية. كان أثيراً لدى نابوليون

- «هذه الصدفة طبيعية جداً بدون شك، لقد ترك الرجل هنا ألماسة حقيقيه وقد أنقذت من بين الألاميس الكثيرة التي أحرقها» قال أحد مدّعي الفهم والفصاحة.

- التفت بلتزار إلى أصدقائه وقال: «لننس هذا الأمر، أرجو ألا تحدثوني عن ذلك هذا اليوم».

تأبّطت مرغريت ذراع والدها لتنتقل إلى الجناح الأمامي من المنزل حيث يقام احتفال فخم؛ وقد لاحظ عند دخوله الصالة الكبرى بعد ضيوفه جميعاً أنها مزدانة باللوحات وملأى بالأزهار النادرة فهتف: «لوحات، لوحات! وبينها بعض لوحاتنا القديمة!».

توقّف، وانعقد جبينه، ومرّت لحظة حزن، لقد شعر عند ذلك بثقل أخطائه وهو يقيس مدى مذلّته الخفيّة.

قالت مرغريت وقد خمّنت ما يعتمل في نفس بلتزار: «كل هذا لك يا أبي».

- أيّها الملاك الذي يجب أن تصفق له الأرواح السماوية، كم من مرّة أعدت الحياة إذاً إلى والدك؟.

- ابسط جبينك لا تعتوره أيّة قتامة، ولا تدع أيّة فكرة حزينة تخامر قلبك، لقد كافأتني إلى أبعد مما صبت إليه آمالي.

لقد فكّرت بلمولكنيه ياوالدي العزيز والكلمات القليلة التي حدثتني عنه فيها جعلتني أقدّره تمام التقدير. إني لاعترف أنني أسأت الحكم عليه أولاً، لا تفكّر بما يتوجّب له عليك، وسيبقى إلى جانبك كصديق محترم.

إن ايمانويل يمتلك نحو ستين ألف فرنك ادخرها، وسنعطها لمولكنيه جزاء خدماته المخلصة لك. يجب أن يحيا هذا الرجل مطمئناً بقية أيامه. ولا تقلق من أجلنا. فدي سوليس وأنا نتبع حياة هادئة عذبة، حياة دون بذخ، فيمكننا إذا أن نتخلّى عن هذا المبلغ إلى أن يتسنى لك اعادته إلينا.

- «آه! يا ابنتي، لا تتركيني أبداً! كوني دائماً العناية الإلهية لوالدك».

بدخوله إلى جناح الاستقبال، لاحظ بلتزار أنه قد رمّم وأسّس بشكل لا يقلّ عن روعته من قبل. دخل المدعوون بعد ذلك إلى قاعة الطعام الكبرى في الطابق الأرضي مروراً بالدرج الكبير حيث لاحظوا على كل واحدة من درجاته شجيرات مزهرة؛ وفضيات رائعة مبتكرة مقدمة من غابرييل لوالده أدهشت الأنظار، كذلك طقم مائدة بدا غريباً بالنسبة للسكان الرئيسين في مدينة يعتبر مثل هذا الطقم موضة تقليدية فيها. كان خدم كونينكس وبييركين وكلايس يقومون على خدمة المدعوين خلال تلك الوليمة الفخمة، برؤية نفسه في صدر تلك المائدة المتوّجة بالأهل والأصدقاء والوجوه المشعة فرحاً عارماً ومخلصاً، أحسّ بلتزار، ومن خلفه يقف لمولكنيه، بانفعال أخّاذ حسمت أمامه الجميع، كما بصمت عادة في الأفراح الكبرى أو الآلام الكبرى.

هتف بلتزار «أيّها الأولاد الأعزاء، لقد ذبحتم العجل المسمّن عند عودة الأب الضال.

هذه الكلمة التي أدان العالم فيها نفسه، وربما حال بواسطتها عن إصدار أحكام أكثر قسوة، قيلت بنبل بحيث رقّ لها كل واحد من الحضور، فمسح دمعه ،لكنها كانت آخر تعبير عن الكآبة؛ فالفرح اتخذ تدريجياً طابعاً صاخباً وناشطاً يذكرّ باحتفالات العائلة؛ وبعد العشاء وصل نخبة سكان المدينة لحفلة الرقص التي افتتحت والتي تتناسب مع الأبهة التقليدية لمنزل كلايس المجدّد. وقد تمت الأعراس الثلاثة بسرعة، وأجريت بمناسبتها احتفالات وولائم وحفلات رقص دفعت لعدة أشهر العجوز كلايس في دوّامة المجتمع؛ وقد ذهب ابنه البكر ليستقر في ملكية قرب كامبري تعود لكونينكس الذي لم يرد أبداً أن يفترق عن ابنته. كذلك غادرت السيدة بييركين البيت الأبوي لتقيم في القصر الذي بناه بييركين وأراد أن يحيا فيه حياة النبلاء بعد أن باع مكتبه عند وفاة عمه دي راكه الذي ترك له كنوزاً ادخرها بهدوء». أما جان فسافر إلى باريس لينهي دراسته.

بقي آل سوليس وحدهما إذا قرب والدهما الذي تخلّى لهما عن الجناح

الداخلي من المنزل، بعد أن سكن في الطابق الثاني من الشقّة الأمامية؛ واستمرت مرغريت بالسهر على الوضع المادي لبلتزار يساعدها في هذه المهمة اللطيفة إيمانويل. لقد تلقت هذه الفتاة النبيلة من أيدي الحبّ التاج الأكثر اشتهاء، ذلك الذي تضفره السعادة، ويحفظ بريقه الاستقرار، الواقع أنّ ما من زوجين يقدّمان بشكل أفضل صورة عن الغبطة الكاملة، المعلنة، النقية، التي تشتهيها جميع النساء في أحلامهن. إن اقتران هذين الكائنين الشجاعين أمام تجارب الحياة، الذين تحابا بقدسية أثار في المدينة إعجاباً محترماً. كان السيد دي سوليس قد سمّي منذ مدة طويلة مراقباً عاماً في الجامعة، وقد استقال من وظيفته ليستمتع بشكل أفضل بحياته السعيدة، ويبقى في دوي حيث كل فرد فيها يقدّر باحترام كبير مواهبه وطبعه، حتى أن اسمه مسجّل مسبقاً لدى الناخبين عندما يصل إلى العمر الذي يجيز له الترشيح للنيابة. أما مرغريت التي ظهرت قويّة في الشدّة، فقد أصبحت في أيام الرغد امرأة رقيقة طيّبة؛ وبقي كلايس خلال تلك السنة مشغولاً بشكل رصين دون شك، وإن كان قد قام ببعض تجارب قليلة الكلفة، يمكن لدخله أن يكفيها، فقد بدا أنه يهمل مخبره؛ واستعادت مرغريت من أجله عادات منزل كلايس القديمة فكانت تقيم كل شهر حفلة عائلية يحضرها آل بييركين وآل كونينكس، كما تستقبل نخبة مجتمع المدينة في أحد أيام الأسبوع حول فنجان قهوة اكتسب شهرة فائقة؛ وكان كلايس يحضر جميع هذه الاجتماعات رغم شروده غالباً، فيعود بكياسة رجل مجتمع إرضاء لابنته البكر حتى أن أولاده اعتقدوا أنه قد تخلى عن السعي إلى الكشف عن حل لمشكلته. وهكذا مرّت ثلاث سنوات على هذا المنوال.

في العام ١٨٢٨، اقتضى حدث ملائم من ايمانويل أن يسافر إلى اسبانية؛ فبالرغم من أن بينه وبين أملاك ال سوليس ثلاثة فروع متعدّدة الأفراد فإن الحمى الصفراء، والشيخوخة، والعقم، وجميع نزوات الثروة قد توافقت لتجعل من إيمانويل وريث اللقب والإنابات الثريّة، هو الأخير في العائلة؛وكان بيت دى سوليس بإحدى هذه الصدف، التي تبدو غير معقولة في الكتب فقط،قد

ضمّ كونتية نورو، ولم تشأ مرغريت أن تبتعد عن زوجها، وقد اقتضت أعماله أن يبقى مدة في اسبانية وزادها الفضول في أن ترى قصر كازار ريال حيث قضت أمها أيام طفولتها، ومدينة غرناطة المهد الأبوي لعائلة سوليس، فسافرت بعد أن عهدت بإدارة المنزل لإخلاص مرتا، وجوزيت، ولمولكنيه الذي تعوّد تسييره.

عرضت مرغريت السفر على والدها إلى اسبانية فاعتذر بكبر سنه، لكن أعمالا عديدة كان قد فكّر بها منذ مدة طويلة، ويؤمّل أن تحقق آماله، كانت هي السبب الحقيقي لرفضه.

بقي الكونت والكونتس دي سولي نورو في اسبانية مدّة أطول مما كان متوقعاً لهما، ورزقت مرغريت هناك طفلاً؛ وفي منتصف العام ١٨٣٠ كانوا في قادس حيث توقعوا الإبحار للعودة إلى فرنسة عن طريق ايطالية، لكنهم تلقوا رسالة من فليسيا تنبيء فيها أختها انباء حزينة، فوالدهم خلال ثمانية عشر شهراً قد أفلس بشكل كامل. واضطر غابرييل وبييركين إلى وضع مبلغ شهري تحت تصرف لمولكنيه ليؤمن نفقات المنزل، وقد ضحّى الخادم العجوز مرّة ثانية بثروته لمعلمه؛ ورفض بلتزار استقبال أي انسان لديه حتى أولاده؛ وتوفيت مرتا وجوزيت، وصرف الحوذي والطباخ وبقية خدم المنزل تباعاً، وبيعت الخيول والعربات. وبالرغم من أن لمولكنيه يلتزم الصمت العميق حول عادات معلمه، فمن المعتقد أن الألف فرنك التي يقدّمها غابرييل كلايس وبييركين شهريا تستعمل في التجارب، والمؤن القليلة التي يشتريها الخادم من السوق تدفع إلى الافتراض بأن هذين العجوزين يكتفيان بالضروري للعيش. أخيراً وحتى لا يتعرّض المنزل للبيع فإن غابرييل وبييركين يدفعان قيمة الفوائد عن المبالغ التي اقترضها العجوز دون علمهما على رهن ذلك البيت، ولم يتمكن أيّ من أولاد هذا العجوز البالغ من العمر سبعين عاماً من التأثير عليه فهو يتمتع بطاقة خارقة تدفعه إلى تحقيق كل ما يريد حتى المستحيلة منها؛ وربّما أمكن لمرغريت وحدها أن تستعيد السيطرة التي سبق أن مارستها على بلتزار، وقد رجت فليسيا أختها أن تحضر سريعاً، وهي تخشى أن يكون والدها قد وقع بعض الكمبيالات؛

وغابرييل وكو نينكس وبييركين مرتاعون كلهم من استمرار هذا الجنون الذي استهلك نحو سبعة ملايين دون نتيجة، وقرروا عدم دفع ديون السيد كلايس.

هذه الرسالة غيّرت ترتيبات سفر مرغريت، فاتخذت الطريق الأكثر قرباً للوصول إلى دوي، فمدخراتها وثروتها الجديدة تتيحان لها أن تسدّد مرّة أخرى ديون والدها؛ لكنها تريد أكثر من ذلك، تريد الامتثال لطلب أمّها في ألا تسمح بنزول بلتزار إلى القبر مسربلاً بالعار. من المؤكد أنها وحدها تستطيع أن تمارس على هذا العجوز نفوذاً لمنعه من الاستمرار في عمله المخرّب في عمر لم يعد بالإمكان فيه انتظار عمل مثمر من إمكاناته الراهنة. لكنها تريد أن تسوسه دون أن تغضبه كي لا تفعل كأبناء سوفوكليس(1). في الحالة التي يقترب منها والدها من الهدف العلمي الذي بذل الكثير من أجله.

وصل السيد والسيدة دي سوليس إلى الفلاندر في الأيام الأخيرة من شهر أيلول ١٨٣١ وكانا في دوي خلال النهار. توقفت مرغريت أمام بيتها في شارع باريس، فوجدته مغلقاً، قرعت الجرس بعنف فلم يرد أحداً. ترك تاجر عتبة متجره حيث استلفتت انتباهه قرقعة عربات السيد دي سوليس وحاشيته؛ كما أن كثيراً من الأشخاص أطلوا من النوافذ ليستمتعوا بمشهد عودة تلك العائلة المحبوبة في كل المدينة ومنجذبين أيضاً بذلك الفضول المبهم الذي يتعلق بالأحداث التي ستنتج في منزل آل كلايس بعد وصول مرغريت. أخبر التاجر وصيف الكونت دي سوليس أن العجوز كلايس قد خرج منذ نحو ساعة؛ ولا شك أن لمولكنيه ينزّه سيده نحو الأسوار. أرسلت مرغريت في طلب حدّاد ليفتح لها الباب لتتجنب المشهد الذي قد تسببه مقاومة والدها، إن رفض قبولها لديه كما كتبت لها فليسيا. خلال هذا الوقت ذهب إيمانويل يفتش عن العجوز لينبئه بمجيء ابنته، بينما ذهب خادمه ليعلم السيد والسيدة بييركين. فتح الباب في لحظة ودخلت مرغريت إلى قاعة الجلوس لتضع فيها متاعها فارتعشت هلعاً من

(١) سوفوكليس: (٤٩٤ ـ ٤٠٦ ق.م) شاعر مأساوي يوناني، يقال أن ابنه إيوفون طلب الحجر عليه لاختلال عقله وأن الشاعر أجاب بقراءة بعض أشعار أوديب إلى كولون، مما دعا إلى رفض طلب الابن.

منظر الجدران العارية كأن النار قد أتت عليها؛ فخشب التغطية الرائع المحفور من قبل فون هويزيوم وصورةالرئيس قد بيعت، على ما يقال، إلى لورد سينسر[1]. كانت قاعة الطعام فارغة، لا يوجد فيها إلا كرسيان من قش وطاولة عادية لاحظت مرغريت عليها بارتياع صحنين وكأسين وأدوات طعام فضية لشخصين وفي صحفة بقايا سمكة مملحة لا شكّ أن كلايس وخادمه قد تقاسماها، وفي لحظة تجوّلت في المنزل فراعها مشهد العري المماثل لما رأته في قاعة الجلوس وقاعة الطعام يسود جميع الغرف الأخرى. لقد مرّت فكرة المطلق في كلّ مكان كمرور الحريق. لم يبق من الأثاث إلا سرير وكرسي ومنضدة في غرفة والدها وشمعدان سيّء من نحاس بدت فوقه نهاية شمعة من النوع الرديء، كان العري كاملاً حتى أن النوافذ كانت بدون ستائر، وقد بيعت جميع الأشياء التي يمكن أن تكون ذات قيمة، جميعها حتى أدوات المطبخ. دفعها الفضول الذي لا يفارق الإنسان حتى في البليّة فدخلت إلى غرفة لماكينيه فرأتها عارية كغرفة سيّده، وفي درج الطاولة نصف المفتوح لاحظت وصلاً من مون - دي - بيته يفيد أن الخادم قد رهن ساعته منذ عدة أيام سابقة. هرعت إلى المخبر فوجدته مليئاً بالأجهزة العلمية كما في السابق. ثم انتقلت إلى جناحها فوجدته على حاله، لم يمسّ والدها منه شيئاً.

من النظرة الأولى التي ألقتها على متاعها الخاص نفرت الدموع من عينيها، وغفرت لأبيها كل شيء. ففي وسط هذا الهيجان المدّمر توقف الأب إذا أمام العاطفة الأبوية واعترافه بالجميل لابنته! هذا الشاهد على الحنان، المتلقى في لحظة وصل فيها قنوط مرغريت إلى الذروة حدّد إحدى هذه الارتكاسات المعنوية التي تقف أمامها القلوب الأشدّ قسوة دون قوّة.

نزلت إلى قاعة الجلوس وانتظرت فيها وصول والدها في قلق يزيد الشك هلعاً. كيف ستراه من جديد؟ مهدّماً، عاجزاً، متألماً، ضعيفاً من قلة التغذية التي

---

(١) لورد سنبسر (١٧٥٨ - ١٨٣٤) عضو مجلس أعيان ووزير داخلية اهتم بشراء الكتب النادرة والتحف.

تعرّض إليها أَنَفةً؟ لكن، أيكَون محافظاً على عقله؟ سالت الدموع من عينيها دون أن تلاحظ ذلك عند تمعّنها في هذا الحرم المدمّر. مرّت أمامها صور كل حياتها، وجهودها، واحتياطاتها التي ذهبت سدى، وطفولتها وأمّها في سعادتها وشقائها، كل شيء، حتى منظر طفلها جوزيف وهو يبسم أمام هذا المشهد من الخراب، فشكلت لديها قصيدة كآبات مؤلمة.

لكن مهما توقّعت من بلايا فإنها لا تنتظر حل العقدة التي يجب أن تتوّج حياة والدها: هذه الحياة العظيمة والبائسة في آن معاً. إن الوضع الذي يوجد فيه كلايس لم يعد سرّاً على أحد، فممّا يخجل ألاّ يصادف في دوي قلبان شهمان يكنّان الاحترام لمواظبة هذا الرجل العبقري. إن بلتزار بالنسبة للمجتمع بكامله رجل يجب تحاشيه، إنه أب سيّء بدّد ست ثروات تقدر بالملايين، وهو يفتش عن حجر الفلاسفة في القرن التاسع عشر، هذا القرن المستنير، هذا القرن الجامد، هذا القرن، الخ... لقد افتري على والدها بتعييره باسم السيميائي، بمجابهته بهزء «إنّه يريد صنع الذهب!» أي شيء لا يقال من مديح أو رثاء بالنسبة لهذا القرن، حيث كما في القرون الأخرى، تتلاشى الموهبة في جوّ لامبالاة بمثل الفظاظة التي كانت سائدة في الأزمنة التي مات فيها دانتي، وسرفانتس وتاسو[1]، الجميع دون استثناء. كلّ الشعوب تفهم بشكل أكثر تأخراً أيضاً ابتكارات العبقرية من فهم الملوك لها.

هذه الآراء قد تسرّبت تدريجياً من مجتمع النخبة في دوي إلى البورجوازية، ومن هذه إلى عامة الشعب، فالكيميائي السبعيني يثير إذا عاطفة عميقة من الشفقة لدى الأناس المهذّبين، وفضولاً ساخراً لدى الشعب؛ والتعبيران مليئان بالاحتقار و«بالويل للمغلوب» التي يرهق بها الرجال الكبار من قبل الجماهير عندما يرونهم بؤساء؛ فكثير من الأشخاص يأتون إلى أمام منزل كلايس ويشيرون إلى نجمية السقيفة حيث استهلك كثير من الذهب

(١) دانتي (١٢٦٥ ـ ١٣٢١) شاعر ايطالي مؤلّف الكوميديا الالهية.
سرفانتس (١٥٤٧ ـ ١٦١٦) كاتب اسباني مؤلّف دون كيشوت.
تاسو (١٥٤٤ ـ ١٥٩٥) شاعر ايطالي مؤلّف القدس المحرّره.

والفحم، وعندما يمرّ بلتزار يشار إليه بالإصبع، وغالباً ما تبدر لمظهره كلمة سخرية أو إشفاق تتفلّت عن شفتي رجل من الشعب أو أحد الأولاد، لكن لمولكينيه يأخذ احتياطه ليفسرها له وكأنها تقريظ وهكذا يتمكن من خداعه دون قصد الإساءة؛ ولئن كانت عينا بلتزار قد احتفظتا بهذا الصفاء السامي الذي تطبعه عادة الأفكار الكبيرة، فإن حاسة السمع قد ضعفت لديه. إنّه بالنسبة للفلاحين والأناس الفّظين والمتطيرين إنسان مشعوذ ساحر، وبيت كلايس النبيل، والكبير يسمى في الأرباض والأرياف بيت الشيطان، وكل شيء فيه، حتى وجه لمولكينيه يبعث على معتقدات مثيرة للسخرية انتشرت عن معلمه. وهكذا فعندما يذهب هذا المسكين المسترقّ إلى السوق يفتش عن المؤن الضرورية لاستمرار العيش، باحثاً عنها بين الأرخص سعراً، فإنه لا يحصل على شيء قبل أن يتلقى بعض الشتائم على سبيل التسلية وفي وجهه أحياناً؛ وإذا كانت بعض البائعات المتطيّرات لا يرفضن بيعه زاده اليومي الهزيل خشية العذاب من مجابهة أحد عملاء الجحيم، فإن عواطف كلّ تلك المدينة كانت بصورة عامة معادية لهذا العجوز الكبير ولرفيقه؛ والفوضى في لباس أحدهما أو الآخر تساعد على ذلك أيضاً فهم في أرديتهم يبدون كأولئك المعوزين المستترين الذي يحتفظون بمظهر خارجي محتشم ويترددون في طلب الإحسان؛ وعاجلاً أو آجلا يمكن أن يتعرّض هذان العجوزان إلى الشتيمة. لذلك فإن بييركين، بشعوره كم ستكون الشتيمة العامة محقّرة للعائلة، كان يرسل دائماً خلال نزهات حميّه اثنين أو ثلاثة من اتباعه يحيطون به عن بعد بمهمة حمايته، ذلك أن ثورة تموز لم تساهم في جعل الشعب أكثر لياقة.

في أحد هذه الأقدار التي لا تفسير لها خرج كلايس ولمولكينيه في ضحوة يوم، وفي غفلة عن المراقبة الخفية التي يحيطهما بها السيد والسيّدة بييركين، ووجدا وحدهما في المدينة، وفي عودتهما من نزهتهما، جلسا على مقعد في ساحة سان جاك يستمتعان بالشمس، مع مرور بعض الأولاد الذاهبين إلى المدرسة أو الكلية، وبرؤيتهم من بعيد لهذين العجوزين الأعزلين، وقد تألق

وجهاهما في الشمس، أخذ الأولاد يتحدثون، وغالباً ما تنتهي أحاديث الأولاد بالضحكات، ومن الضحك ينتقلون إلى المخاتلة الساحرة لكن دون لؤم. وقف سبعة أو ثمانية من أوائل الذين وصلوا على مسافة وأخذوا يتأملون هذين الوجهين المغضنين وهم يحبسون ضحكات مخنوقة لفتت انتباه لمولكينيه.

«انتبه، أترى هذا الذي يبدو رأسه كالركبة؟

- نعم.

- الواقع أنّه عالم منذ ولادته.

- إنّ أبي يقول إنه يصنع الذهب؛ قال آخر.

- «من أين؟ من هناك أو من هنا؟ » قال ثالث وهو يشير بحركة ساخرة إلى ذلك القسم الذي يشير إليه التلاميذ غالباً من أنفسهم كناية عن الاحتقار

تقدّم أصغر أفراد العصابة، وكان يحمل سلّة مليئة بالمؤن ويتلذّذ بتناول فطيرة مطلية بالزبدة، ببراءة نحو المقعد وقال لمولكينيه: «أصحيح يا سيدي أنكم تصنعون لآلىء وألاميس.

- نعم، يا ملاكي الصغير، وسنعطيك منها عندما تصبح عالماً أجاب لمولكينيه باسماً وهو يربّت على خدّ الصغير.

- «آه، يا سيدي، أعطني أنا أيضاً» بدرت صيحة هتاف عامة، وركض الأولاد كسرب عصافير وأحاطوا بالكيميائيين، وكان بلتزار غارقاً في إحدى التأملات التي أيقظته منها هذه الصرخات، فبدرت منه إشارة دهشة سببت ضحك الجميع، فقال لمولكينيه: «هيّا يا أولاد، مزيداً من الاحترام لرجل كبير!».

- إلى قناع المساخر(١) صاح الأولاد. انتم مشعوذون سحرة - نعم مشعوذون سحرة، سحرة...

نهض لمولكنيه على قدميه وهدّد بعكازه الأولاد الذين هربوا وهم يجمعون الطين والحصى؛ وكان عامل يتغدّى على بضع خطوات من هناك، فرأى لمولكينيه

---

(١) قناع المساخر Chienlit قناع تنكر يلبسه الأولاد في حفلات المرافع لكنهم يلفظون الكلمة في ضحكاتهم Chie _ en _ lit أيّ تبرّز في السرير».

وهو يرفع عكازه ليدفع الأولاد إلى الهرب فظنّ أنّه يضربهم ونهض لمساعدتهم وهو يطلق هذه الكلمة الرهيبة: «ليسقط السحرة!» شعر الأولاد بالمساندة فرموا مقذوفاتهم التي أصابت العجوزين في اللحظة التي ظهر فيها الكونت دي سوليس في طرف الساحة يرافقه خدم بييركين، لكنهم لم يصلوا بالسرعة الكافية ليمنعوا الأولاد من رمي الطين على الشيخ الكبير وخادمه. فالضربة قد حصلت، وبلتزار المحتفظ حتى الآن بإمكاناته، بفعل عفّة طبيعية لدى العلماء، الذين تلهيهم اهتمامات الكشف، عن الأهواء، خمّن بظاهرة انغلاف(1) سرٌ هذا المشهد، فلم يستطع جسمه المضنى احتمال الارتكاس المروّع الذي عانت منه المناطق الحسّاسة من عواطفه، فسقط بين ذراعي لمولكينيه وقد أصابه الشلل. تمّ حمل العجوز على نقالة محاطاً بصهريه وأتباعهما، ولم تحل أيّة قوة أهل دوي من مرافقة العجوز حتى باب منزله حيث كانت فليسيا وأولادها، وجان، ومرغريت، وغابرييل الذي وصل من كامبري مع زوجته بعد أن اتصلت به اخته.

كان مشهداً مروّعاً إدخال هذا العجوز إلى المنزل، وهو يتخبط في ذعر خشية أن يكشف أولاده سرّ بؤسه أكثر مما يتخبط من معاناة المرض القاتل.

نُصبَ بسرعة سرير في وسط قاعة الجلوس لبلتزار الذي بذلت له الإسعافات الفائقة وتبيّن في نهاية النهار أن حالته تبعث بعض الأمل باستبعاد الخطر واستمرار حياته، لكن الشلل، بالرغم من مكافحته بمهارة، سيتركه مع ذلك، لمدة طويلة تقريباً في حالة أقرب إلى الطفولة.

عندما أخذ الشلل يتراجع تدريجياً، بقي يحبس اللسان الذي استمر عاجزاً عن النطق لأن الغضب على الأرجح قد نقل إليه كل قوى العجوز في اللحظة التي أراد فيها توبيخ الأولاد.

أثار هذا الحادث في المدينة استنكاراً عاماً، إذ أنه بفعل قانون، ما يزال مجهولاً، يوجّه عواطف الجماهير، وجّه جميع الأفكار نحو السيد كلايس،

---

(1) الانغلاف: انزلاق بشكل إصبع قفاز منقلب لقسم من الأمعاء في القسم المجاور له لكن بلزاك يستخدم هذه الكلمة الطبيّة في المجال المعنوي بمعنى حَدْسٍ هو ارتداد الفكر على نفسه.

فأصبح في لحظة رجلاً كبيراً يثير الإعجاب وينال التقدير الذي حرم منه بالأمس. أصبح كل انسان يتغنّى بصبره، وإرادته، وشجاعته، وعبقريته؛ وأراد القضاة أن يعاقبوا بشدّة أولئك الذين اشتركوا في هذا الاعتداء، لكن البلوى حادثة قضاء وقدر، وعائلة كلايس أوّل من طلب طيّ هذه القضية.

أمرت مرغريت بتأثيث قاعة الجلوس فغلّفت جدرانها الداخلية العارية سريعاً بالحرير، وبعد عدة أيام من ذلك الحادث، وبعد أن استرد الأب العجوز وعيه، ووجد في إطار أنيق أمّنت فيه جميع ضرورات الحياة السعيدة، أنبىء أن ابنته مرغريت قد حضرت في اللحظة ذاتها التي دخلت فيها إلى قاعة الجلوس. احمرّ بلتزار وابتلّت عيناه دون أن تنهمر دموعه، وأمكنه أن يضغط بأصابعه الباردة على يد ابنته واضعاً بذلك كلّ العواطف وكل الأفكار التي لا يستطيع أبداً التعبير عنها. كان شيئاً قدسياً ومهيباً وَداعُ هذا المخّ الذي ما يزال حيّاً، وهذا القلب النابض بالعرفان بالجميل. هذا العملاق، الذي استهلكته المحاولات غير المثمرة، وأتعبه الصراع مع مشكلة ضخمة، وأقنطه على ما يبدو المجهول الذي ينتظر ذاكرته(١)، ستتوقف شرايين الحياة قريباً فيه، وأولاده من حوله جميعاً يحطيونه بعاطفة الاحترام، بحيث تستطيع عيناه أن تحيا ثانية بصور الرخاء والغنى، وباللوحة المؤثّرة التي تتجلّى أمامه في عائلته الجميلة. كان ودوداً باستمرار في نظراته التي أمكنه أن يعبّر فيها عن عواطفه، وقد اكتسبت عيناه فجأة تنوّعاً كبيراً في التعبير أصبح لديه وكأنّه لغة أشعة يسهل فهمها.

سدّدت مرغريت ديون والدها، وأعادت خلال أيام لبيت كلايس بهاءً حديثاً أبعد عنه كل فكرة انحطاط. كانت دائماً قرب سرير والدها تجهد أن تخمّن جميع أفكاره وتلبي كل رغباته.

مرت بضعة أشهر في تناوب التحسّن والتراجع التي تشير لدى الشيوخ إلى هذا الصراع بين الحياة والموت؛ ابناؤه يحضرون كل صباح إلى قربه،

(١) تطوّر جنون كلايس مماثل لرأي الأطباء الفلاسفة الذي عبّر عنه جورجه في كتابه الجنون (١٨٢٠) والذي قرأه بلزاك بتمعن.

يقضون نهارهم في غرفته يتناولون عشاءهم أمام سريره، ولا يتركونه إلاّ بعد أن يستسلم للنوم. كانت التسلية التي أعجبته، بين جميع تلك التي عرضت أمامه هي قراءة الصحف وقد كانت حافلة في تلك الأيام بالأحداث السياسية؛ وكان السيد كلايس يستمع بانتباه إلى صهره دي سوليس وهو يقرؤها له بصوت عال.

نحو نهاية العام ١٨٣٢ قضى بلتزار ليلة شديدة الاضطراب استدعي خلالها السيد بييركين طبيبه الذي راعه هذا التغيّر المفاجيء لدى المريض بحيث أن الطبيب قرر السهر عليه خشية أن يقضي في كل لحظة بتأثير نوبة داخلية أخذت تأثيراتها طابع النزع. كان الشيخ يقوم بحركات ذات قوّة مذهلة محاولاً أن يهز أربطة الشلل التي تقيّده. إنّه يرغب أن يتكلم ويحرّك لسانه دون أن يستطيع تشكيل الأصوات، وعيناه الوهّاجتان تبرقان بالأفكار، وقسماته المتشنجة تعبّر عن آلام مبرّحة، وأصابعه تتحرك بيأس، وقطرات كبيرة من العرق تنضح منه.

في الصباح حضر الأولاد يقبلون والدهم بذلك الودّ الذي زادته خشية الموت القريب اضطراماً وشدّة لكنه لم يظهر لهم أبداً ذلك الرضى الذي تحدثه عادة لديه هذه المظاهر من الحنان؛ وقد أنذر ايمانويل من قبل بييركين فأسرع في فضّ الصحيفة ليرى إن كان في القراءة ما ينسي بلتزار الأزمات الداخلية التي يعاني منها. ما أن نشر الصحيفة حتى طالعه هذا العنوان، **اكتشاف المطلق**[1] الذي أثرّ فيه بشدّة، وقرأ على مرغريت مقالاً يتعلّق بقضية بيع قام بها رياضي بولوني شهير للمطلق؛ وبالرغم من أن ايمانويل قد قرأ الخبر لمرغريت بصوت منخفض وطلبت منه مرغريت أن يتجاوز هذا المقال فإن بلتزار سمع ذلك.

---

(١) الخبر صحيح وهو يتعلّق باكتشاف الرياضي البولوني فرونسكي العائد إلى العام ١٨١٨ لكن بلزاك يزيحه إلى العام ١٨٣٢.

فجأة انتصب المحتضر على زنديه وألقى على أولاده المرتعبين نظرة أصابتهم جميعاً كالبرق، كانت الشعرات التي تزين قذاله تهتز وتغضنات وجهه ترتعش ومحياه يتألّق بفكرة كالنار ونفحة حياة مرَّت على هذا الجبين فبدا شامخاً سامياً، رفع يداً قد تقلّصت غضباً، وصاح بصوت مدوّ كلمة أرخميدس الشهيرة «أوريّكا» (لقد وجدتها) وسقط على سريره وقد أحدثت سقطته صوت جسم خامد، لقد مات وهو يطلق تنهدة مرعبة، وعيناه المتشنجتان تعبّران حتى اللحظة التي أطبق الطبيب عليهما الجفنين عن الأسف لأنه لم يستطع أن ينقل إلى العلم مفتاح هذا اللغز الذي مزقت عنه أصابع الموت المعروقة الحجاب متأخرة.

باريس حزيران ـ أيلول ١٨٣٤

* * *

دراسة القصة

بقلم: مادلين آمبريير

البحث عن المطلق... إنه أحد أروع مواضيع **الملهاة الإنسانية**. ففيه اعتقد بلزاك أنّه أبدع «موضوعاً كبيراً، رائعاً[(١)]» وكان يبدو دائماً مقتنعاً بعظمة عمل يؤثر أولاً على القارىء بفرادته. عديدة هي بدون شك روابط موضوعاته مع **الدارسات الفلسفية ودراسات طبائع**، غير أنه يمثل الرواية الوحيدة الكبرى في **الملهاة الإنسانية** التي تدور حوادثها في الفلاندر ويكون بطلها أحد العلماء. لقد صنفت بحقّ بين الدراسات الفلسفية عند دخولها الملهاة الإنسانية في العام ١٨٤٦.

ظهرت رواية **البحث عن المطلق** في ١٨٣٤، في سلسلة مشاهد من الحياة الخاصة، حيث يتبرر موقعها تماماً كما أنه يتبرر لو وضعت في **مشاهد من حياة الأقاليم**، هذه الواقعة وحدها تشير إلى غنى هذه الرواية الفريد، وهي واحدة من الروايات البلزاكية المميزة في **الملهاة الإنسانية**، إذ يمكن أن يرى كل واحد فيها، وفق ميوله، رواية حبٍّ سامية، أو مأساة عائلة فلمندية دمّرها هوى عصف برئيسها نحو الكيمياء، أو مغامرة خارقة لعالم عبقري بحثاً عن المطلق، أي تأمّل الرجل المبدع في مواجهة العلم والمجتمع.

في قلب الفلاندر، في دوي، وفي منزله الفلمندي النموذجي، حيث تتراكم منذ مئتي سنة الثروات التي جمّعتها ستة أجيال، يعيش بلتزار كلايس وريث هذه الثروة حتى العام ١٨٠٩ وهو يزرع أزهار الخزامى في حديقته، والسعادة في عائلته: أربعة أولاد حسني الخلقة، وزوجة دميمة لكنها ممتازة هي جوزفين التي جمع بينه وبينها خلال خمسة عشر عاماً حبٌّ زوجي دون أيّة أكدار. في مساء اليوم من تلك السنة، للأسف، اندفعت الكيمياء، التي كان قد درسها في

(١) من رسالة إلى السيدة هانسكا.

شبابه على يدي لافوازييه، إلى حياة كلايس بشكل مفاجيء ونهائي، بواسطة ضابط بولوني عابر، هو السيد دي ڤيرزشونيا، وكفت أمسية هذا الزائر لتحوّل كلايس إلى عالم عبقري وأب سيّء. لقد نثر، باستغراقه في البحث عن المطلق، أي المادة الوحيدة العامة التي تشترك بها جميع المخلوقات، الخراب والدموع حوله، وقد ماتت جوزفين كلايس المقهورة بهذا العلم المفترس، قهراً وحزناً؛ ودخلت مرغريت الابنة البكر، وهي أقوى من أمّها، معركة جريئة تخلّلتها مجابهات مأساوية مع والدها؛ وقد نجحت، خلال بضع سنين، في استعادة الثروة العائلية، لكن حريق المطلق أتى مرّة أخرى على كل شيء؛ مات كلايس بعد أن أفلس مجدّداً، مقهوراً وقانطاً؛ إنّما محاط بأولاده الذين استمروا على حبّهم له.

إن الجيل الثمن من ال كلايس قد رمّم ما خرّ به الجيل السابع، فمرغريت قد أعادت لبيت كلايس «بهاءً حديثاً يبعد عنه أيّة فكرة انحطاط»، وقد عاش أخواها وأختها أغنياء سعداء؛ أمينة على شعارها الذي يمكن أن يلتبس مع شعار هولاندة، «سأثبتُ» وستستمر عائلة كلاي...

أجمع النقّاد على تقريظ هذا العمل الذي يثير شعور القارىء ويجذبه رليه، ومع ذلك لم يتحرّزوا من توجيه بعض اللوم للمؤلّف، ففي الماضي كما في الحاضر، ردّدت المآخذ نفسها التي سجّلت منذ نشر البحث عن المطلق. فزُولما كارو، بعد أن أبدت اعجابها الشديد بسمو هذا الكتاب، تنبأت لبلزاك بطراحة قاسية «بأنه سيلام لأنه لم يعلّق كبير أهمية على الصعوبات المادّية في الحياة، وسيكون اللائمون على حق(١)» وكان توقعها صحيحاً؛ مما دفع بلزاك ليوحي إلى فليكس داڤن ليقوم في مقدمة **دراسات طبائع**، بالردّ على الناقدين الذين يجدون شيئاً من المثالية في الشخصيات، مؤكداً بقوّة أن «من مهمة الفنان أيضاً أن يخلق نماذج كبيرة وأن يرتفع بالجمال حتى المثالية»؛ وما فتى، منذ ذلك الحين على الترديد بأن بلتزار مفرط في العبقرية، وزوجته مفرطة في الكمال،

(١) من رسالة لزولما كارو إلى المؤلّف بتاريخ ١٤ تشرين الثاني ١٨٣٤.

وابنته مفرطة في الوفاء، والعوطف الطيبة تنتصر بسهولة بالغة، ومرغريت تستعيد ثروة آل كلايس بيُسر الجنيةُ المجهّزة بعصا سحرية، باختصار، كل شيء فائق الجمال؛ وهذه الملائكة الانثويّة سواء لدى الابنة، أو لدى الأم، قد بدت لدى البعض طوباوية مثلها مثل علم بلزاك «الذي تبدو معرفته بالكيمياء أقلّ منها بقوانين التركات وأملاك القاصرين التي ظهر فيها مورثو العقود الذي ابتدعهم غير معرّضين أبداً للرسوب(١).

هل يجب إذاً مع البحث عن المطلق الحديث عن الخيال العلمي، وبسيكولوجية قصص الساحرات؟ يوطوبيا أم واقع؟ شعر أم حقيقة؟ هذا هو السؤال الذي تجرّب هذه المقدمة أن تجيب عنه.

I

اختار بلزاك للرواية في طبعة شاربنتيه، العام ١٨٣٩، عنوان: «**بلتزار كلايس أو البحث عن المطلق**، مركّزاً بذلك على دور الشخصية الرئيسة، ذاك الذي أثار الفضيحة، والدمار، والحداد؛ واكن سانت - بوف أوّل من لمّح إلى التقارب الخادع بين كلايس والسّيميائي المعروف جيّداً سيلياني الذي قصّ في كرّاس نشره: **هومس المنكشف**، في العام ١٨٣١، كيف توصّل بعد سنوات طويلة من العذاب إلى اكتشاف حجر الفلاسفة.

لم يظهر أي دليل قاطع يدعم فرضية الباحثين المتحمسين الذين أرادوا أن يكتشفوا، في محيط بلزاك، بلتزار كلايس أصيلاً؛ وقد أكّد أحدهم أن بلزاك كان يفكر بشخص حقيقي قديم يرتبط بعائلته، وهو البارون ماله دي ترومپلي، الذي عاش بعض الوقت في دوي، وعكف على ما يبدو على السيمياء، بينما أراد آخر أن يجد في كلايس عمّاً للسيدة هانسكا الذي انصرف إلى حجر الفلاسفة،

(١) ر. أبليو: «مقدمة البحث عن المطلق» طبعة فوليو ١٩٧٦.

مع تأليفه لدراسة في الكيمياء، قد يكون اطلع عليها الروائي بالرغم من عدم ترجمتها من البولونية؛ وفي فرضية ثالثة فإن كلايس الحقيقي هو أوغوست دومرك المموّن القديم للجنود والصرّاف، والصديق القديم لوالد بلزاك والحالم جسماً وروحاً. على ما يقال، في السيمياء. في صحراء هذه الأبحاث غير المجدية، لم تكن هذه التوقّعات إلا سراباً يتلاشى عندما ينظر إليه عن قرب؛ والواقع أن اسماً واحداً من بين جميع الأسماء التي عرضت يستحق أن يشار إليه في معرض الحديث عن كيميائي دوي أو عن عبقريته الفاشلة، هو اسم الرياضي البولوني فرونسكي الذي أثارت قضية الغريبة مع المسمى أرسون الذي باعه كشفه المطلق (الفلسفي) اهتمام الصحف في العام ١٨١٨، وقد مرّ تلميح إلى هذه القضية الشهيرة التي أزاحها الروائي في الزمن حتى العام ١٨٣٢ في كلمة «المطلق»؛ وهو كل ما يمكن معرفته عن هذه الشخصية الغريبة التي أثارت بمغامرتها، للحظة قصيرة بلزاك، كما يستدل من تاريخ النص[1]، ولكن لا يمكن لا بالنسبة لمصيرها، ولا بالنسبة لطبعها، أو شكلها، مقارنتها مع فيرز شفونيا.

لقد نفى بلزاك بشدة الرأي القائل بأنه أراد أن يخلق نموذج السيميائي في شخص بلتزار كلايس، وقد كذّب ذلك الزعم الخاطىء بقلم فليكس داڤن: «يعتقد البعض وكرّر بعدهم آخرون، بأن أبحاث بلتزار كلايس غايتها البحث عن حجر الفلاسفة، وظهر الشيء نفسه في كلّ مكان بتعابير أخرى. إن النقاد لو قرؤوا هذا الكتاب، الذي يستحق كل تقدير، بتمعّن، لأدركوا بالتأكيد، أن

(١) باع فرونسكي لزميله وتلميذه أورسون كشف «المطلق في العام ١٨١٧ بمبلغ ٤٠٠٠٠ فرنك كمبيالات و ٦٨٠٠٠ فرنك تقسيطاً يسدّد بمعدّل ٤٠٠٠ ف كل عام. بعد أن التزم أورسون بالعقد في العام الأوّل وجده باهظ الثمن فامتنع عن الدفع في العام التالي، ووجّه إليه فرونسكي رسالته الشهيرة» ايستحق ما علمتك اياه المبالغ المتفق عليها. أجب بنعم أو لا. إن أجبت بلا رددت لك كل شيء، وأن أجبت بنعم يجب أن تدفع. وقد خضع أورسون لمعلمه وأجاب بنعم ودفع بعد تلك الرسالة المؤرخة في تموز ١٨١٨.

الفلمندي المثالي هو أسمى من السيميائيين القدامى أو المحدثين، بمثل سموّ علماء الطبيعة في عصرنا عن أمثالهم في العصر الوسيط» كما عبّر عن إرادته في أن يكون بطله خارج مجال السيمياء، بحيث لم يذكر ضمن أهداف أبحاثه أيّاً من الهدفين الرئيسين: «البحث عن إكسير الحياة الطويلة، وتحوّل المعادن أي صنع الذهب. والواقع أن السيميائيين قد تراجعوا دائماً أمام صنع الألماس، وكانوا يجهلون تركيبه، وكلايس لم يفكّر بصنع الذهب، وهو ببحثه عن أسرار أكثر أهمية من ذلك، كما يؤكّد المؤلّف، قد فكّر بإمكان الوصول إلى صنع الألماس ببلورة الكربون؛ وهذا يعود إلى مجال الكيمياء، وهذه الطريقة لم يبتكرها بلزاك؛ ففي العام ١٨٢٨، أي قبل ست سنوات من نشر البحث عن المطلق، تمّت مناقشات مثيرة في أكاديمية العلوم حول تصنيع الألماس كانت موضع اهتمام الجمهور، فمن أجل تهدئة الخواطر والتوفيق بين الكيميائيين اللذين يتنازعان أسبقية الكشف عن ذلك بالرغم من الفرق بين الطريقتين المتبعتين، فإن الفيزيائي الشهير فرانسوا آراغو قد أبلغ زملاءه في الأكاديمية عن محاولات كيميائي آخر يعرفه، من أجل الحصول على الألماس ببلورة الكربون من هذا الكيميائي، الذي تبيّن أن اسمه تيلوريه، استمد كلايس، إلى جانب مبدأ هذه التجربة، فكرة اختزال المعادن بواسطة ماكنة مفرغة من الهواء، بينما أخذ عن الكيميائي دولونغ اتحاد الكلور والآزوت، وعن فوركروا وفوكلن تحليل الدموع؛ وهكذا نجد، أن وراء كل تجربة من تجارب بلتزار كلايس، اسم أحد العلماء، وإذا كان لا يمكن الاعتماد في مجال السيمياء على أي مصدر حقيقي مقنع، ففي الكيمياء، بالمقابل، نكتشف سريعاً، وكما قال بلزاك «أن الكتاب لا يختلقون شيئاً». إنّ هذا لا يعني أبداً وجود «نموذج» للبطل البلزاكي بين كيميائي ذلك العصر. إن جميع تجارب كيميائي ذوي أصلية، لكنه هو بالذات ليس تيلوريه ولا فوركروا بل ولا آراغو الذي استمد المؤلّف بعض ملامحه. كما جميع شخصيات **الملهاة الإنسانية**، فإن بلتزار كلايس كائن متخيّل كلياً،

وقد قال عنه بلزاك أنه يمثّل «جهود الكيمياء الحديثة»[1] وفي هذا القول صيغة معبّرة، فهو يشير من جهة إلى الطابع التركيبي والنموذجي لكلايس، كما أنه يتضمّن من ناحية أخرى معرفة حقيقية لدى المؤلّف بالكيمياء، فلماذا التشبّث بإنكار هذا العلم على المؤلف، وقد أعطى التأكيد والبرهان على امتلاكه؟ فقد صرح بمناسبة كتابته **غامبارا** في العام ١٨٣٧: «يجب دراسة الموسيقى... كما درست الكيمياء من أجل كتابة **البحث عن المطلق**». هذه البنية تؤكّد اعترافاته في العام ١٨٣٤: «إن عضوين من أكاديمية العلوم قد علماني الكيمياء سعياً إلى صحة الكتاب علمياً، لقد جعلاني أصحّح مسوّداتي نحو عشر إلى اثنتي عشر مرّة، وقد وجب أن أقرأ برزيليوس»؛ ووفقاً لكل احتمال لم يكن غي لوساك وشفرول هذين العالمين، كما ادّعي في شهادة شفهية متأخرة وواهية، وإنّما هما فرانسوا آراغو ومساعده وصديقه إرنست لوجيه الشاب في حينه، والذي لم ينتخب إلا فيما بعد عضواً في أكاديمية العلوم؛ يستدّل من تاريخ النصّ الدور الذي لعبه فرانسوا آراغو في إنشاء البحث عن المطلق وقد كان مديراً للمرصد[2] وجاراً لبلزاك؛ وكذلك وبصورة خاصة دور أرنست لوجيه الذي أهداه الروائي نسخة من مؤلفه مع عبارة التقدمة المعبّرة «إلى السيّد لوجيه، دليل على اعتراف المؤلّف، القليل الخبرة بالكيمياء، بفضله / دي بلزاك» أطلع لوجيه إذا بلزاك على الكيمياء، ودفعه إلى أن يقرأ، من بين قراءاته، مؤلّفاً في ثمانية أجزاء، ترجم حديثاً إلى الفرنسية وهو المفصّل في الكيمياء لبرزيليوس، الذي لا يظهر اسمه في الرواية لكنه ذكر في ثلاث مناسبات في المخطوطة. فالمؤلّف ينسب إلى العالم السويدي تجربة السيّد فيرز شفونيا المتعلقة بنبات القُرّة - وقد نسخها كما وردت تقريباً - وكذلك تجربتين لبلتزار كلايس، وعموميات حول الأجسام البسيطة وألفتها الكيميائية، وحتى فرضية حول الطبيعة البسيطة

(١) من رسالة إلى هيبوليت كاستل نشرت في «الاسبوع» بتاريخ ١١ تشرين أول ١٨٤٦.

(٢) كان بلزاك صديقاً لايمانويل ابن فرنسوا آراغو الميّال إلى الكتابات المسرحية وكان يتردّد على المرصد حيث يعمل والده، وعن طريقه عرف في السابق قضية فرونسكي.

أو المركبة للمعادن؛ فالفضل بلا مراء يبدو كبيراً، لكنه ليس وحيداً فالمراجع المكتوبة والمصادر الشفهية تتواصل لتقديم الوثائق اللازمة للروائي وتوجيهه إلى المواضيع العلمية الأكثر حداثة كما تبرهن، مثلاً، الاشارات إلى الاختراق الذاتي ووجود الفوسفور في المخّ، وهما موضوعان من المواضيع التي كانت تشغل الأوساط العلمية في فترة تأليف **البحث عن المطلق**.

بمثابرة، كما نرى، يتعلم بلزاك لغة العلماء، وتجاربهم، قبل أن يجسّد في بلتزار كلايس تحقّق تقدم الكيمياء منذ لافوازييه، لكننا ننخدع إن رأينا فيه نموذج الكيميائي التجريبي، فالتحليل لا يبدو هدفاً لتجارب كلايس، فهو يسعى باستمرار إلى التركيب؛ كما أن الروائي يؤكّد استهانة كيميائي دوي بالنتائج الهامة التي يحصل عليها ولا ينشرها في الوسط العلمي، لأنه مهتم حصراً بالتحقّق من فرضيته التوحيدية، لذلك كان استنتاج ڤيرزشوفينا عن تجربة القّره مختلفاً عن استنتاج برزيليوس نصير الثنائية، وبلزاك الملتزم بالحرف لا يتقيّد دائماً في استعاراته الأدبية بنصّه، وقد شرح ذلك بوضوح بواسطة فليكس داڤن في مقدمة **دراسة طبائع**؛ وفي **البحث عن المطلق** يقول داڤن «إن المؤلّف يطلب من الكيمياء، ماذا فعلت، وإلى أين تسير، لقد تعلّم لغتها، ثم حلّق بضربات قويّة من جناح الشاعر، لتنفتح أمامه الآفاق الواسعة التي تتسلّقها العلوم التجريبية بصعوبة، وقد تسلّح بإحدى هذه الفرضيات المذهلة التي ربما برهن على صحتها يوماً.

هذه الفرضية هي وحدة المادة، وهي فكرة بلزاكية قديمة إذ أنه وهو مؤلّف **الملاحظات الفلسفية** اهتمّ في وقت مبكّر جداً بهذه القضية، «بالكتاب الروحانيين الذين اهتموا بالعلوم، في علاقاتها مع اللانهائي، مثل سويدنبورغ، وسان مارتن، إلخ... «وبالعبقريات اللامعة في التاريخ الطبيعي مثل ليبنيتز، وبوفون، وشارل بونه» كما يذكر ذلك في تمهيده **للملهاة الانسانية**؛ فبلزاك الشاب يطلب جواباً عن مشكلة الخلق، ومنذ العام ١٨١٨ إلى ١٨٣٤ يؤكّد على استمرارية تفكيره بوحدة المادة التي تأخذ في العام ١٨٣٤ شكل معادلة

كيميائية؛ فمن **فالثورن المعظمّ** «لذلك الذي يرفع شراعاً من رصاص تخلّف قدرته الطموح محراب الأسباب الأولية» إلى **البحث عن المطلق**، وبعد ذلك بقليل اعتراف الروجيريين يبدو حلم بلزاك بالقدرة بواسطة المعرفة التي تستمد ينابيعها من العلم وعلوم السحر والتنجيم لدى علماء الطبيعة والروحانيين، ولهذا السبب فالسيد دي فيرزشوفينا يستمدّ اعتباراته عن مثلث التركيب من سان مارتن ويبدو مشرباً بالاراء التي يطرحها جوزيف دي ميتر في **أمسيات سان بطرسبرج**، كما أن بلتزار كلايس يعكس تصوّرات سويدنبرغ، أو أنطوان دي لا زّال أو إدوار ريشة، حول طبيعة الإنسان والكون وكذلك حول الطبيعة المشتركة لجميع العناصر، وعندما يختار الروائي كيميائياً كبطل له، فمن البديهي ألا يتمكّن هذا من البحث إلا عن المطلق؛ فالقضية المطروحة عندئذ هي في معرفة إلى أي مدى ترك المؤلف علماً أصيلاً ثابتاً، كما تدلّ على ذلك براهين عديدة، لينساق، كما سبق أن قيل نحو بقاع مجهولة من الخيال العلمي.

نلاحظ أولاً أن هذه الفرضية العزيزة على بلزاك تحمل سمة عصره. ذلك العصر المولع بالوحدة والتحقّق، حيث في العلوم، كما في الفنون والأدب، فإن طموح الرؤيا الشاملة للعالم ولتعبيره الكلي جعلت من جميع المبدعين بّحاثة عن المطلق. عدا عن ذلك يبدو بصورة خاصة من المهم الإشارة إلى أن السيّد دي فيرزشوفينا يتحدث قبل الكيميائي جرهاردت بعشرين سنة عن «الكيمياء الموحّدة»، فالتيار الموحدّ في العلوم، منذ بداية القرن، ظهر بحميّة خاصة لدى الكيميائيين الفلاسفة، هؤلاء المفكرين المهتمين بالتركيب الذي تطرحه مشكلة الخلق بتعابير كيميائية؛ فليس من قبيل الصدفة أن نلاحظ في بداية **أوهام ضائعة**، لوسيان دي روبمبره ودافيد سيشار يقرأان معاً برزيليوس وداڤي، ومن المؤكّد أن بلزاك كان يفعل مثلهما؛ فكيف لا يفتتن بميل الكيميائي الانكليزي الوحدوي، مؤلف **عناصر الفلسفة الكيميائية**، الذي يؤمن ببساطة الوسائل، ويفكر أن العديد من الأجسام البسيطة تمثّل أشكالاً مختلفة لدرجات تكهرب متغيّرة للمادة نفسها؟ فنظريات ومحاكمات فيرزشوفينا، في معظمها،

مستمدة من دافي، الذي يبدو كالشخصية البلزاكية مقتنعاً بالفرضيّة الموحّدة التي تتلاءم كلياً مع الاعتقاد بالله الخالق المبدع.

إن بلزاك كما يبرهن تلميحه إلى الكيمياء الحديثة التي تلخص الخَلْق بواسطة الغاز[1]» عرف انطلاقة أخرى للكيمياء الموحّدة تعود في العام ١٨١٦، إلى تجارب العالم الانكليزي وليم بروت الذي أشار إلى أن الهيدروجين يمكن أن يكون القاعدة المشتركة لجميع العناصر. كما أنه تتبع دون شك عن قرب أيضاً أعمال أشهر الكيميائيين الموحّدين في ذلك العصر وهو جان باتيست دوما، المعجب بداڤي وصديق أراغو الصدوق المقدّر في آن واحد في المجتمع العلمي والمقرّظ في العام ١٨٤٢، من قبل هورتنسيوس فلامل مؤرخ السيمياء باعتبار «أنه الاكثر تقدّماً بين كيميائينا المعاصرين». كما أن دوما في كتابه **دروس في الفلسفة الكيميائية** في ١٨٣٦ يخصص فصلاً عن سويدنبرغ ويلمّح عند ذاك إلى «**سرافيتوس سرافيتا** للسيد دي بلزاك».

هكذا يجسّد بلتزار كلايس فعلاً «جهود الكيمياء الحديثة» ليس فقط نتائجها، وإنّما أيضاً تطلعاتها، وفرضياتها، التي قد تصبح يوماً حقائقها المبرهنة. من المؤكد أن هذه اللغة قد اعتراها القدم، وقارىء هذه الأيام يمكنه الابتسام بسخرية وهو يرى بلتزار يمدّد العواطف كمادة اتيرية تنطلق، أو يتكلّم عن حالات مختلفة من الكهربائية حيث نتكلّم نحن عن اختلافات طول الموجات؛ فهذا لا يمنع أن يؤكّد العلم كثيراً من تجارب وأفكار بلتزار كلايس، وأن يظنّ أحد الباحثين في مخبر معهد البوليتكينك في العام ١٩٦٠ أنه قد ابتكر إحدى تجارب الكيميائي البلزاكي، وأن يعتبر المبدأ الذي أوحى إلى هذا العالم باستخدام الحرارة الشمسية بواسطة ماكنة هوائية هو نفسه الذي وجّه إلى تحقيق الفرن الشمسي في مون لويس، كما أن في أيامنا هذه يستعمل حقل مرايا في أوديليو من أجل فرن شمسي كبير وُضعَ في محرقه مرجل، قبل أن نتأكّد في الغد نجاحات الترموديناميك الشمسي؛ أليس في ذلك برهان على أن

(١) التي تظهر في رواية فلسفية أخرى لبلزاك هي «جلد الحبب».

بلزاك كان على حق ليحامي عن القضية العلمية كما اعترف بذلك أخيراً النقد المعاصر الذي يضيف حتى في تشبثه بالحديث عن الخيال العلمي «لننتبه مع ذلك إلى أنّ مثل هذه التأكيدات على وحدة المادة تتجاوب حالياً مع صدى حديث، حيث يبدو أن حدس سويدنبرغ عن حقيقة العالم غير المنظور يتثبّت بتجارب إيجابية.

عالم أصيل، ومؤلف تجارب هامة وشخصية نموذجية تتجسّد فيه نجاحات الكيمياء الحديثة هو بلتزار كلايس؛ أيكون هو أيضاً نموذج المبتكر الذي جرّب بلزاك عبثاً رسم عذاباته، منذ العام ١٨٣٢، حينما اختار له بطلا برنار باليسي. من الفكرة لا تتفتّح هنا غير مظاهر «الآلام» وليس الأبتكار، فكلايس المنطلق في البحث عن سرّ الخلق، هو رجل عبقري، مُنح كجميع الكائنات السامية في **الدراسات الفلسفية**، مظهراً «خارقاً» يعبّر عن سمّوه.

هكذا يظهر أوّلاً في عيني القارىء كشخصية خارقة، أخاً، في الدراسات الفلسفية لأولئك البّحاثة عن المطلق الذين يسمون في الموسيقى **غامبارا**، وفي الرسم **فرنهوفر**. فَوقْع خطواته التي تسمع قبل رؤيته تسبّب قلقاً للقارىء يتزايد ظهوره المفاجىء في قاعة الجلوس الهادئه من البيت الفلمندي. عن هذا الرجل ذي الوضع المهمل، والنظرة الشاردة، والهيئة الجامدة، والصورة الأكثر بعداً عن التناس مما نعتقد يقول بلزاك: «يجب أن نفسّر ببعض التفرّد في الوجود أسباب هذا الشكل الخارق». إن كلايس يشبه بشكل غريب الرسام العبقري في **التحفة المجهولة**، فرنهوفر، الذي يشبه «لوحة لرامبراندت تسير صامتة» يبدو لنيكولا بُوسِن» كعبقري خارق يعيش في بيئة مجهولة.

هذا الشخص الخارق يأتي من انكلتره أو من ألمانية؟ هل هو كلايس منفرد جديد أو ملموث جديد؟ إذا لم نتأكّد إلا من ذكرى ملموث، ولا ترد ذكرى المغامر البولوني بشكل عابر في خاطر مؤلّف **البحث عن المطلق**، فإنّ توازياً بين مصير الكيميائي الدويزي[1] ومصير ملموث الذي فقد روحه وهو يبحث عن

(١) نسبة إلى دوي في الفلاندر.

سرّ الكائن لا يبدو مقنعاً حقاً، فكلايس بشعره الذي يتدلّى بشكل مهمل على كتفيه «على الطريقة الألمانية» وفقاً لما يذكره بلزاك، يذكّر غالباً بشخصيات قصص هوفمان، فرتوس في «**الغبطة في اللعب**» والسيميائي في «**مصرف فرعون**» أو ما هو أكثر جلاءً المحامي، والدناتانيل في «**الرجل على الرمل**» الذي يعتبر فيرزشوفنيا ـ كوبليوس الباعث له. لكننا نلاحظ، مع ذلك،سريعاً أن التشابه يبقى خارجياً تقريباً، وأن البطل البلزاكي له بعد آخر لا يتمتّع به أولئك الشاردون أو الغريبو الأطوار الذين يعيشون في الوهم أو في الكابوس. إنّه أقرب في الحقيقة لفاوست غوته منه لشخصيات هوفمان. ففاوست في حجيرة السيميائي، وقد شدّ عليه الشوق للانهائي، يحلم بشجرة العلم، ويأمل أن يعيش حياة الآلهة وهو يستنفد قوّته الخلاّقة.

إن مطلب أبطال **الدراسات الفلسفية**، فرانهوفر، أو غامبارا، أو لامبر، أو روجيري، أو بلتزار كلايس يتماثل مع أمل فاوست لكنه يذهب إلى أبعد من ذلك أيضاً. فشرود هؤلاء الرجال يتفسر بتأمّلات غامضة، غائبة عن عالم النتائج، وموجودة في عالم الأسباب، «النتائج! النتائج! إنّها الطوارىء في الحياة، وليست الحياة» فالتغلغل في سرّ الحياة يتطلب في رأيه الكشف عن خفايا الطبيعة. وهذا هو هدف تجارب كلايس، أحد المفكرين العمالقة الذين يعيشون في جوّ الأسباب التي عاش فيها عمالقة آخرون مثل كيلر ونيوتون ولابلاس وعلماء إبداع آخرون. لهذا السبب تتجاوز هالة هذا الخارق» القدرة الخارقة المنسوبة خطأً إلى أمثال مَنْرد وفاوست وملموث: إنّه النتيجة التي يسمى سببها عبقرية.

كان بلزاك ذاته يقول: «بين فاوست وبروميثيوس» أفضل بروميثوس وباحثه عن المطلق هو ابن بروميثيوس، وهو يريد أن «يعرف قبل أن «يقدر» وفي الدقيقة الأخيرة من حياته «يعرف». إن مؤلف الملهاة الإنسانية يعتقد أن رجل العبقرية، هذا العراف يمكنه أن «يرى» سرّ الخلق، وهو يعطي هذه الميزة إلى بطله، عملاق العلم، لكن الحجاب يتمزق متأخّراً جداً بحيث أن كلايس في اللحظة التي

«يعرف» فيها، لم يعد «يقدر» أبداً بها، وهذا ما أدركه جيداً تيوفيل غريته: «في الاحتضار وجد الصيغة التي بحث عنها بكل جدّ ولكن عبثاً. ثم يهزّه تشنج أخير تحت الأغطية المدعوكة في سريره. ويفقد إلى الأبد سرّه».

بعد سنة من «**البحث عن المطلق**» يصوغ في **سرافيتا** الدرس المرير التالي «إن الرجل الذي يتصوّر اللانهائي بذكائه لا يمكنه أن يحركه بشكله الكامل، وإلا لأصبح إلهاً».

يموت كلايس إذاً، مقهوراً وقانطاً. في خاتمة حياة عظيمة وبائسة، وفي النهاية خائبة، فهو مجهول من الوسط العلمي إذ لم يعلم أحداً بالتجارب الناجحة التي أنجزها، والنتائج الهامة التي حصل عليها لكنه استهان بها إذ انصرف كلياً إلى المطلق الذي أصبح الهدف الوحيد لأبحاثه، وإذا استرجع الرشد ووجدت عيناه لغتهما من الضوء، فإنه قد غرق لسنوات طويلة في الجنون؛ فهل يسبب العلم الجنون، وهل يدين بلزاك العبقرية؟

إن ارتباط فكرتي الجنون والعبقرية في الملهاة الإنسانية يبدو صريحاً، ولكن هل هي رابطة سبب بنتيجة؟ هذا غير مؤكّد. في **البحث عن المطلق**، يَردُ: «بالنسبة للعوام، تشبه العبقرية الجنون» وفكرة الجنون تتسرّب بشكل طبيعي إلى العبقرية حتى أنها لتلتبس معها؛ وهي لأوّل مرّة بشكل سؤال قلق: «هل أصبح إذاً مجنوناً؟ تساءلت جوزفين بهلع وهي ترى زوجها. ثم أن بييركين موثق العقود رأى في تعبير تعجّب بسيط لكلايس «أثر الرشد الذي يبديه منذ ثلاث سنوات»؛ وخلال حفل العشاء الذي عاد فيه رجل مجتمع ورب عائلة، فقد ظهر الكيميائي، كما يقول بلزاك «شبيهاً بأولئك المجانين الذين تمرّ عليهم لحظات تتألّق فيها قدراتهم ببريق نادر». إن هذا ليس إلا تشبيهاً، لكنه يسبق عن قرب التمثّل الكلي، فمرغريت تعلن لأبيها أنّها ستكافح «جنونه»، وبلزاك يعطي من الآن وصاعداً لشخصيته «ابتسامة الجنون»، وتصرّف المجنون، فالأمر يتعلّق «بمرض» حقيقي يدرس الروائي بدقة سريرية ولادته ومراحله.

يرد في رواية **البر سافاروس**، بمناسبة الحديث عن البارون دي

واتفيل وهوايته في المجموعات «ان الأطباء الفلاسفة المنصرفين إلى دراسة الجنون، يعتبرون هذا الميل إلى الجمع هو الدرجة الأولى من الخلل العقلي، عندما يتوجّه نحو الأشياء الصغيرة». في عداد هؤلاء الأطباء الفلاسفة يجب بكل تأكيد اعتبار اتيين جورجه، وهو طبيب من تور، وقد نشر في العام ١٨٢٠ كتابه الهام **عن الجنون** حيث يتسلّط الضوء بصورة خاصة على حالة بلتزار كلايس.

قبل أن يتعرّض جورجه لتطوّر المرض، فإنه يبحث عن عوامل الجنون، ويميّز من جهة الأسباب المهيّئة، مثل العمر، والوراثة بصورة خاصة؛ ومن جهة أخرى الأسباب الفاعلة أو الموجبة التي تحرّض المرض. دون الإصرار هنا بشكل مطوّل على التوافق الملفت للنظر الموجود بين رواية بلزاك والكتاب المفصّل في الطبّ، وهو توافق تشير إليه ملاحظات هذه الطبعة بتفصيل دقيق، ومن الهام الإشارة إلى أن بلتزار كلايس، وهو على ما يقول بلزاك، وريث سلالة من الأسلاف لكلّ واحد منهم «هوسه»، مهيّأ بالوراثة والعمر لجنون، «سببه الفاعل» هنا هو زيارة فيرز شوفنيا. وتطوّر الداء، في كل نقطة يطابق، في عدم انتظامه، وصف الطبيب، ويسبّب تناوب أطوار الإثارة والانحطاط ويضم عندما يصل إلى الذروة الأنواع الخمسة المحتملة من الخرف: العته؛ والهوس، والهوس الأحادي، والبلادة واختلال العقل؛ وفي المرحلة الأخيرة أعلن عن الشلل الذي أصاب بالدرجة الأولى عضلات اللسان، لكنه أفسح المجال أمام المريض للعيش سنة أو سنتين أخريين، فوضع بلتزار كلايس، كما يرى، «مثالي» من الناحية الطبيّة، فقد تعرّض الكيميائي إلى «هوس أحادي علمي» وهو أحد أشكال الجنون الذي يبدو كأنّه نزعة عبقرية وليس نتيجة محتّمة لها.

يقول تيوفيل غوتيه: «يلاحظ أن الفكر لدى هذا الرجل يصارع الهوس الأحادي وأنه يسير على الحدّ الضيّق الذي يفصل العبقرية عن الجنون» فليست العبقرية هي التي تجعله مجنوناً وإنما الكبرياء. ومؤلّف **المفصّل في الجنون** يلاحظ أن أكثر أنواع الهوس الأحادي ظهوراً يستمد مصدره من الكبرياء، في فكرة الاعتقاد بأنّه إله، أو ملك، أو نبي. وهكذا بلتزار «فقد أعماه هواه» كما

يحدّد بدقّة بلزاك، فلقد أوحى إليه الشيطان كما فكرت جوزفين كلايس عند رؤيته، إنه يريد «أن يكرّر الطبيعة، وأن يكون فوق الرجال الآخرين، فوق الجميع».

إن غموض الفكرة البروميثية في الفكر البلزاكي يجد تعبيره الكامل في فكرة النار وهكذا فتحت دلالة النار يضع الروائي بلتزار كلايس ومصيره، فمنذ أن يظهر الكيميائي في قاعة الجلوس حيث تنتظره زوجته، يتحدّث الروائي عن «النار السرية» التي تجفف جلد وجهه واللهب الذي يفترس روحه، ثم يتعرّض بعد ذلك إلى المحرق الداخلي» لذكائه الواسع، ويجعل وجهه يتألّق تحت «نار العبقرية». هذه النار التي تؤجّج أبحاث بلتزار، تحرقه بعد ذلك، بعد أن قتلت زوجته، واستهلكت ثروته. في بيت كلايس تمرّ فكرة المطلق في كل مكان «وكأنّها الحريق»؛ فهذه النار البروميثية آتية من السماء أم من الجحيم؟ في **التحفة المجهولة** يتحدث فرنهوفر عن «نار سماوية» بمناسبة مشعل بروميثيوس الذي انطفأ أكثر من مرّة بين يدي بوربوس. وبلزاك يظهر تعاطفاً واضحاً مع كلايس، فيروميثيوس والجحيم يبدوان مختلطين في ذهن السيدة كلايس التي تشبّه بالشيطان زائر المساء الغامض الذي أمكن ظهوره لمدة قصيرة أن يدمّر إلى الأبد طمأنينة بيت، وتوازن سعادة كاملة، وأن ينتزع رجلاً سامياً من واجباته كزوج وأب ومواطن «إن إبليس المغوي وحده له هذه العين الصفراء التي تخرج منها نار بروميثيوس» هتفت قبل أن تعلن الشيطان والهوى المسيطرين على زوجها: «نعم إن الشيطان وحده يمكن أن يساعدك على السير وحيداً وسط هذه الهوّة التي لا مخرج منها، وهذه الظلمات التي لا تستنير فيها بإيمان علوي وإنما باعتقاد رهيب بقدراتك.»؛ فإغراء النار، بالنسبة إليها يأتي من الجحيم والشيطان هو الذي أرسل احدي جنيّاته لتوحي لكلايس بفكرة البحث عن المطلق وهي شقيقة اغواء بروميثيوس.

هذا الغموض في فكرة اللهب يعود إلى الوجود المتزامن لدى بلزاك لهاتين المسلمتين المستمدّتين من بودلير: «الرعب والوجد». الرعب لأن العبقرية

غـول يفـتـرس كل شيء، ولكن وجـد أيضـاً وافـتـتـان أمـام هذه الكائنات من اللانهائي، هذه البطارس التي تمنعها أجنحتها العملاقة من السير. «إنّه يمشي ورأسـه في السـمـاء، وقدماه على هذه الأرض، إنّه طفل، إنّه عـملاق هكذا عرّف بلزاك منذ العام ١٨٣٠ الفنان رجل العبقرية.

هذه الفكرة المضاعفة عن سموّ الفكر وضعة الحياة العادية التي نجدها غالباً في **الرسائل إلى السيّدة هانسكا** تجد تعبيراً جديداً في شخصية بلتـزار كلايس الذي يشبـه في بعض الأحيان بشكل غريب مبدعه؛ فبلزاك لا يكتفي بأن يعير لبطله تلك البزّة الزرقاء الجميلة ذات الأزرار الذهبية التي يبدو أنه كـان جدّ فخـور بهـا في ذلك العصـر؛ ففي المرآة التي تعكس وجـه كـلايس العملاق بالفكر، الطفل في السلوك ضمن الحياة اليوميّة، تبدو الصورة الذاتية للمؤلف التي يتـأملها أحيـاناً حتى أن البـاحث عن المطلق في بعض اللحظات العابرة يتوحّد مع المؤلف. وكمـا يقول فليكس دافن بالحـاح: «نحن هنا بعيدون علناً عن الفكرة القائلة إن الانسان الذي يفكر هو حيوان فاسد».

إذا كـان يبدي نحو كلايس تعاطفاً أكيداً، وإذا كـان يمثله أحياناً وكأنه ضحية لا إدراك البشر، فهل يعذر بلزاك بطله على حساب المجتمع؟ وهل يعود الوضع المفجع لكلايس إلى أنه يقوم بأبحاثه لوحده وعلى نفقته؟ أهو شهيد لا خطأ له إلا أن المجتمع قد حكم عليه؟ هل يجب إذاً إدانة «التضـاد الذي لا يقهر، في وضع اجتماعي معين، بين مستلزمات البحث العلمي ومستلزمات الحياة في المجتمع» ونتصوّر باحثاً ككلايس سعيداً في مختبر يحيط به فريق من الباحثين، وقد غمر بالاعتمادات اللازمة؟ هذه فرضية سمحة يمكن أن نؤمن بها.. أو لا نؤمن؛ وبلزاك من جـهـتـه لا يؤمن بها فـهـذا الايمان في منظور **البحث عن المطلق** يعني تبسيط الصـراع العملاق بين الانسـان والطبيعة وإنكار الفكرة الكبرى عن الكبرياء التي تجوب العمل بكامله، والامتناع عن سمـاع صرخة بلتزار «... أنا وحدي!» إن الروائي يلوم الكيميائي لأنه سمح للهوى أن يعميه؛ فعندما أخذ بحثه المحرّض بالكبرياء، شكل الهوى، وعندما ضلّ الذكاء لديه،

وقّت بالنسبة للعالم العبقري ساعة الانحطاط، وبدأت عندئذ سيرورة الفكر البطيئة التي تقتل لأنّها أصبحت سمّاً. وهكذا أصبح بلتزار كلايس إشهاراً كاملاً للمبدأ الذي توسّع كل دراية من **الدراسات الفلسفية** البرهنة الموضحة له بدقة علمية: ... إن الفكرة المدعومة بقوّة عابرة ممنوحة من الهوى، تصبح بالضرورة بالنسبة للانسان سمّاً أو خنجراً»(١).

إذاً فالروائي لا يدين العبقرية وإنّما الهوى يعتّم عليها ويحرفها، والمفهوم البلزاكي للعبقرية يتسم بالتأكيد بسمة الرومانسية التي تربط بلا انفكاك مقولة العبقرية بمقولة القَدَر واللعنة، لكنها تعكس خاصة، عدا اليقين الشخصي بعبقرية فردية بصورة رئيسة، وجهة نظر المؤرخ والأخلاقي ومعرفته بالتاريخ والانسان، و**الطبخ** الفرنسي، والطبيعة البشرية.

عن السؤال: هل كلايس على حق، أو على خطأ؟ فإن جواب بلزاك يرفض التخيير ويبدو إيجابياً بشكل مضاعف، كما غي الرواية. وفي شرح إيمانويل دي سوليس لمرغريت «إن أباها إن كان على خطأ كربّ عائلة... فهو على حقّ علمياً» أما إدانة كلايس بعد أن أصبح في هوس أحادي، فبلزاك يعبّر عنها بصراحة في هذا المظهر من الشخصية الذي يغطي كثيراً على مظهر الرجل العبقري في مخطوطة **البحث عن المطلق** المتصوّرة في البدء كمشهد من مشاهد الحياة الخاصة.

III

أخذ كلايس ينقطع شيئاً فشيئاً عن الحياة في الدنيا بعد أن وهنت قواه جسدياً، وضعف فكرياً، حتى أن قلبه قد انكمش، إن صحّ القول؛ فبتنحيه عن دوره كربّ عائلة وأب وزوج، أصبح في تصرفه تجاه عائلته بمثابة طفل جائر ولا مسؤول، وكجميع المصابين بالهوس الأحادي، يتصف بأنانية البخيل والغافل

(١) من لمقدمة الدراسات الفلسفيه.

الأكّالة، ومثلهما يسبب النكبات البيتية؛ والروائي بوصفه الدمار الذي تحدثه الفكرة الثابتة، ليس فقط على صاحبها، وإنما أيضاً على محيطه العائلي والاجتماعي، قد سجّل في **البحث عن المطلق** دراسة عن الطبائع بقدر ما هي دراسة فلسفية، وفاجعة مالية، ومأساة حب.

تلعب الفوائد المادّية، وقضايا الثروة دوراً أساسياً في الرواية، لكن المال لم يشكّل في أيّة لحظة هدفاً رئيساً في تجارب كلايس، وقد عرفناه مستعداً أن يرمي في بوتقته، بلا مبالاة كاملة، بدانقه الأخير؛ وإذا كان قد اعتقد أنه اكتشف طريقة لصنع الألماس، فذلك «بتفتيشه عن كشف أسرار أهم من ذلك بكثير»؛ وإن كان قد تحدّث إلى ابنته بأنه سيملأ غرفة الجلوس ألماساً، فإنه يؤكّد «أن هذه ترّهة» بالمقارنة بما يسعى إليه؛ وعندما يجد في مخبره، بعد عودته من المنفى، ألماسة، فإنه يحرص على أنها ليست الحلّ للقضية التي يعمل لجلائها.

يبدو ارتباط المال بأبحاثه طبيعياً لا يمكن تجنبه، وبديهي أن يفكر الكيميائي الفلمندي أنّ كل الثروة المهدورة من جراء أعماله والمنتزعة من العائلة يجب أن تستعاد وأن التوازن الوراثي يجب أن يستردّ؛ لكن المال، بصورة خاصة، كوسيلة يبدو مرتبطاً بشكل وثيق بحلمه في القدرة وبأمله الذي لا يرتوي.

كانت امرأته هي الضحيّة الأولى في هذه المأساة المؤلمة؛ هي صورة جديدة لمقولة تتردّد في الملهاة الإنسانية: مقولة المرأة المهجورة التي تتمثّل في بطلات عديدات: اوغوستين دي سومرفيو، أو كلير دي بوسيان، أو هنرييت دي مورتسوف هؤلاء الأخوات في الشقاء، المنذورات للصمت والدموع، يصبن بالكآبة من يحيط بهن، في اطار يتناسق مع حداد قلوبهن؛ فأشعة الخريف الحزينة التي تنسكب على سرير موت بطلة **جنة الرمان** مشابهة لتلك التي تغمر صالة الجلوس القاتمة والحزينة في منزل كلايس حيث تحتضر، في يوم من أيام الشتاء جوزفين كلايس المنبوذة.

هذه المخلوقات الناعمة التي تطفىء بالدموع بسمات الأطفال، والتي تبدو

عصبيّة على كلّ عزاء توحي لبلزاك بقصائد تنفطر لها القلوب، وبلوحات مشجية، فلا الأمومة تنقذ السيدة ويلمسنس، ولا هنرييت دي مورتسوف، الزنبقة في الوادي، ولا آغات دي بناسيس، التي تمكنت في عاطفة الأمومة أن تصمد ضد الشقاء، ولكن ليس ضد أشدّ الأكدار تأثيراً" الهجر»، كما أنها لا تنقذ أيضاً جوزفين كلايس البائسة، التي لا يسبّب لها أولادها أيّة رعشة أو رهبة، فهم تعزيتها، لكنهم ليسوا حياتها، إنّها تحيا بهم، لكنها تموت من أجل بلتزار» فإيمانها الحار، وتقواها الاسبانية لا يسمحان لها أن تصمد وقتاً أطول في الهجر، لأن الحبّ يمثّل بالنسبة لها مبدأ الحياة ذاته. وقد قال بلزاك ذلك بوضوح تام «هذا التبادل المشترك للّسعادة تتناوب متدفقة أطلقت بشكل ظاهر مبدأ حياتها خارج نفسها...».

على عتبة الموت تصرّح السيدة كلايس لزوجها: «... ما حييت إلا بحبّك وقد سلبتني دون علم منك الحياة».

إن الأمر هنا يتعلّق بظاهرة أشبه بظاهرة التنفس، كما شرح ذلك بوضوح فائق مؤلّف أوجيني غراندة: «في الحياة الروحية، كما في الحياة الجسمية، يوجد شهيق وزفير: فالروح تحتاج إلى أن تستوعب عواطف روح أخرى، وأن تتمثل هذه العواطف لترجعها أكثر غنى. بدون هذه الظاهرة البشرية الرائعة لا حياة للقلب؛ فالهواء ينقصه عندئذ، فهو يعاني ويذبل».

يجب الاعتراف أن السيدة كلايس قد عرفت أولاً خمسة عشر عاماً من الحب الكامل، فقد كان بلتزار عندئذ يضع من أجل رعاية هذه السعادة الزوجية كل سمو روحه، وتعلّقه «الفروسي» لم يتخل أبداً عن مظاهر الهوى من أجل هذه المرأة الدميمة، العرجاء والحدباء، وهذا ما قد يدهش، لكنه يمثّل بالنسبة للروائي «المطلق» في الحبّ؛ فبعد أن فكرّ أولاً كما يتبين من المخطوطة أن يجسّد في جوزفين كلايس مثال الجمال القلمندي، تراجع بلزاك عن ذلك لمصلحة فكرة كانت تراوده منذ سنوات عديدة، وهي «حبّ دميمة»؛ وهي فكرة توافق الذوق الدارج، بالتأكيد، لكنها بصورة خاصة، وبالنسبة إليه، موضوع مثير، تدعوه إلى التفكير

فيه أمثلة شهيرة من التاريخ والحياة؛ فزولما كارو تقول عن نفسها «إنها دميمة وقصيرة وعرجاء»؛ ففي مجال الحياة الخاصة، كما في مجال الكيمياء، «لم يخترع المؤلّف شيئاً، فإلى جوزفين كلايس تعير زولما بعض العيوب الجسمية، ودون شك أيضاً حلمها بحبّ مطلق لرجل عبقري، بينما من أجل أن يصوّر بلزاك وضع بطلته الحزين، في الصفحات الأولى من الرواية، لم يكن عليه إلا أن ينظر إلى ما تعانيه السيدة الرقيقة كاميل دي مونتو، الابنةالوحيدة للسيدة الطيّبة ديلانوا التي قدّم لها المؤلّف في العام ١٨٣٩ «**البحث عن المطلق**»، ففي ربيع ١٨٣٤، صممت السيّدة دي مونتو، بعد عشر سنوات من زواج حبّ، أن تطلب فصل أموال الزوجين، إذ أنه الطريقة الوحيدة لوقف سيل تبذيرات زوجها ولحماية مستقبل أطفالها؛ وقد قال الروائي إن السيدة كلايس» حملت بطفلها الأخير وسط تعكر صفو غامض» وكان هذا هو الوضع الشاق لكاميل دي مونتو التي وضعت طفلها الرابع في مطلع صيف ١٨٣٤، بينما كان بلزاك يكتب روايته، والمرأة الشابة التي بدت في المحنة أشد قوّة من السيدة كلايس، ماتت مع ذلك، فريسة الحزن، بعد ثلاث سنوات وبعد أن برهنت في وصيتها، على أنها أم متألّمة وزوجة «سامية»، وأعطت الدليل الفائق على مدى الحبّ الذي لم يتوقف يوماً تجاه زوجها.

إن السيّدة كلايس ليست بالتأكيد زولما كارو ولا كاميل دي مونتو، لكن يلاحظ، مرة أخرى، كم تغذّي الحقيقة الخيال، وكيف أن بلزاك، في مطلع هذا الصيف من العام ١٨٣٤، حيث أحلامه العاطفية ملوّنة بالأمل، قد خلق نموذج الزوجة السامية لرجل العبقرية؛ فجوزفين كلايس هي حب كلّها، وهي تمتلك إلى أعلى درجة الترفّع والتضحية «وهما قد يكونان عند المرأة قمة الحبّ»، كما إنّها لا تجهل شيئاً من أسرار فن التظرف أو علم الإسعاد، وهي تقدم التوافق الاستثنائي بين خضوع الفلمندية وبين هذا الحماس المشوب بالتقوى الاسبانية التي لا تنفصل أبداً عن الايمان بالحبّ، ولا تفهم أبداً العاطفة بدون آلام» فالحب، بالإجمال، «هو مطلقها»، وهذان الباحثان عن المطلق اللذانّ يتكامل

سموّهما، لكنه لا يتماثل، يعيشان حباً زوجياً ليس مستبعداً أبداً، إنّما مثاليَ. مع ذلك انكشف هذا الحبّ قتالاً، فجوزفين كلايس البائسة، وقد هجرت من أجل العلم عرفت لسعة الغيرة. وجرّبت عبثاً أن تنافس إغراء أرهب الخصوم، لكنها ترزح سريعاً في هذه المعركة غير المتكافئة، وتسأم الحياة، إنّما تهتم بأن تحمي، حتى ما بعد الموت الرجل الذي أخلصت له الحب، وتموت دون ندم من أجل جلادها، صورة فاتنة للكمال؛ فالأب دى سوليس يقول: «إنها تقريباً دون خطيئة»، وهذا التقييد على خفته يبدو مستغرباً من القارىء، أتكون هذه الضحية، وهي ملاك في رقتها، بطريقة ما، مذنبة؟ لقد ضحت، في الواقع، وهي الزوجة أكثر منها أمّاً، بأولادها من أجل الحب الزوجي؛ هذه الفكرة التي أدخلت في الأشهر الأخيرة من حياتها شعوراً بالندم والاستغفار؛ فقد دخلت واجبات الأمومة في نزاع مع الحبّ الزوجي، وكما السيّدة جول في **تاريخ الثلاثة عشر**، فإن السيدة كلايس، في لحظة ما، تمكّنت أن ترى في الأمومة عائقاً أمام الحبّ فقد قالت هي نفسها لبلتزار، إن على الرجال العظام ألا يكون لهم زوجة أو أولاد.

هل تجسّد إذا زوجة هذا العالم العبقري، في عيني الروائي كل بلوى الحب؟ كلا، إذ أنها قبل أن تكتشف كل البلوى، عرفت كل السعادة في الحب، مما يعني أنّها قد أتّمت قدرها كامرأة. «ففي فيض السعادة يكمن الشقاء الخارق» هذا القول للويس لامبر، يجد في السيدة كلايس إبانته الكاملة، أليس معبّراً أن نتبين، بواسطة دراسة بنيوية لفظية أن مفردات الحبّ السعيد تزيد كثيراً في تواترها عن مفردات الدموع والألم والحبّ التعيس؟ نعم فمع **البحث عن المطلق**، كتب بلزاك نشيد حب زوجي «مطلق».

السيدة كلايس سامية إذاً، وأولادها، كل أولادها نموذجيون وخاصة مرغريت؛ وهي أضعف من أن تحمي أولادها أمام العلم الأكّال، فتجد نفسها تبعث في ابنتها، هذا الملاك المحبّ والقوي، الذي أراد الروائي أن يجسد فيه، في مشروعه البدائي، نموذج «تفاني الشباب»؛ فمرغريت تقاوم والدها، فهي

سليلة كلايس، وفلمندية تشبه جسمياً، بشكل ملفت للنظر، مرسلين دبورد ـ ڤالمور، كما رسمها في شبابها عمّها كونستان دبورد، وهي تمثّل خاصّة، وفقاً لبلزاك، نموذج شابة تلك البلاد، فقد كتب إلى أخته لور سورڤيل التي أخذت عليه طبع الفتاة المبالغ في «مثاليته»: «كلا، ليست مرغريت فتاة متكلّفة، إنّما هي فلمندية».

IV

إذاً باسم حقيقة السجايا والطبائع في مقاطعة، يبرّر الروائي سلوك مرغريت كلايس؛ فهي «فلمندية»، كأسلافها، كوالدها باسمه الفلمندي النموذجي، في بيت فلمندي نموذجي، في قلب دوي، حيث كان يجتمع في السابق برلمان الفلاندر، وبداهة، أراد بلزاك أن يجذر تاريخ آل كلايس في واقع جغرافي محدّد جيّداً، والحال أن الصحيفة الدويزية «مذكرة السكارب[1]» قد اعترضت على صحة الموقع الممثّل، فقد نشرت في ١١ تشرين أول ١٨٣٤ هذه الملاحظة القصيرة: «نشر السيد دي بلزاك رواية عنوانها المطلق تدور أحداثها في دوي. بقراءة المؤلّف نشعر بالأسى لملاحظة مدى غربة المؤلّف عن المنطقة، وأنه لم يستشر الأشخاص المؤهّلين لتقديم المعلومات التي تنقصه عن الأمكنة».

الواقع انّه إذا كان يبدو من المؤكّد تقريباً أن بلزاك لم يتجوّل يوماً في شوارع دوي قبل أن يكتب **البحث عن المطلق**، فمن المعروف بالمقابل أن كان له في باريس، من بين أصدقائه، فلمنديون أصلاء مثل س. ه. برتو الذي يعرف بيته المتميز بفلمنديته؛ ومرسلين دبورد ـ ڤلمور وابن عمها النّحات الدويزي تيوفيل برا، وقد تركت الشاعرة باريس إلى ليون في نيسان ١٨٣٤، لكن بلزاك كان يكاتبها، وعدا عن ذلك احتفظ بعلاقات غير منقطعة مع برا، بل انه استمدّ كثيراً من هذا الفلمندي الفخور دائماً بمسقط رأسه، والمستعد دائماً للقاء أخوته أبناء الفلاندر في حفلات عشاء جماعة «أبناء غايان»[2].

(١) سكارب: نهر في شمال فرنسة.

(٢) غايان: بطل اسطوري فلمندي يقام له احتفال في دوي يتمثل بصنع تمثال له من قصب السوحر والسير به في شوارع المدينة.

يجب الاعتراف بأن التفاصيل الدويزية الصرفة ليست غزيرة في **البحث عن المطلق** فلا يلاحظ فيها برج دار البلدية الشهير، ولا يسمع فيها لحن غايان المنساب نغمةً نغمةً، وما من أحد يأكل اللوِّس، تلك الرقائق من الحلوى المستديرة التي لا تصنع إلا في دوى. يمكن أيضاً المناقشة في معرض وصف رواق مدخل كنيسة سان پيير، أو في اسم ساحة سان جاك التي أطلق عليها منذ العام ١٨٠٢ اسم ساحة النصر، كما قد يستغرب من حديث المؤلّف عن ضيق شارع باريس وهو في كل حين أحد شرايين المدينة الرئيسة. لكن الأسماء أصلية: فنهر سكارب هنا، وكذلك باب باريس، وكنيسة سان پيير، ونزهة سان جاك، ورَبَض اسكرشن. ألا يكفي سحر الأسماء التي يعبّر مارسيل بروست عن عمق الإحساس بها لخلق الواقع الدويزي؟ مشابهة محلية، وواقع إقليمي، واقع نموذجي، هذا هو بالتأكيد هدف بلزاك، الذي لا يتطلّع أبداً إلى لقب الروائي الإقليمي؛ واستحضار دوى يصوّر بشكل تام هذا التقصّي العام، فكما في بايو أو ألانسون، كذلك في دوي يلعب بالهويست، وتتداول أخبار المدينة، وتنتشر الوشوشة والغيبة بحيث أن وصف الصالونات الدويزية تشبه وصف مثيلاتها في الأقاليم التي تتعرض لها الملهاة الإنسانية؛ ومع ذلك فهي شيء آخر مختلف. إن لم توجد الدقّة المحليّة المتناهية، فقد وجدت في **البحث عن المطلق** حقيقة فلمندية أصلية تتجلّى أولاً في حيوية الأساطير المحلية التي تقدم للزائرين من بروكسل حتى غان أو تورني، ومن دوي حتى فالنسيين أو ليل «نموذج» بيت كلايس، بينما البيوت الفلمندية الوحيدة التي أنعم النظر بها بلزاك في الحقيقة، قبل أن يصوّر بيت كلايس، قد وجدت وما تزال موجودة في إقليم تورين، وخاصة في قلب تور القديمة، في شارع بريسونة الضيّق، وهو بيت تريستان بواجهته من الحجر والآجر وجملونه البارز.

ما ينطبق على فلورنسة ينطبق دون شك على الفلاندر؛ وقد أكّد بلزاك في المقدّمة الأولى **لجلد الحبب**: «إن الرسّام الأكثر حرارة، والأكثر صحّة لفلورنسة، لم يزر فلورنسة أبداً» معبّراً، وهو يتطلّع بداهة إلى نفسه، عن قدرة

رجل العبقرية على التجوال عبر الزمان والمكان بفضل «البصيرةو حاسة البصر الثانية».

لا تستغرب ممارسة هذه «الحاسّة الثانية» باندفاع خاص نسبة إلى الفلاندر، إذ لم يقتصر مؤلّف **الملهاة الإنسانية** على تأمّل البيوت الفلمندية المبنيّة في تورين في زمن لويس الحادي عشر من قبل معماريين أتوا من الفلاندر، وإنما، وبصورة خاصة، أظهر منذ مطلع شبابه إيثاره، في الرسم، فنّاني المدرسة الفلمندية والهولاندية، أولئك الذين يمنحونه الانطباع الكامل عن حقيقة الطبائع. إنّه دون شك كبطل جلد الحبب الذي تمثله البيرة وهو يتأمّل لوحات تينيه ويرتعش قرّاً أمام لوحة تساقط الثلج لميريس؛ إنّه يهيم شغفاً بالظل والنور... الظاهرين بشدّة في لوحات رامبراندت»، «وبحقيقة هذه القَسَمات ومظاهر الحياة اليومية» الدهشة؛ بكلمة واحدة، بالتعبير عن الحياة في حقيقتها الكلّية، حقيقة الأفعال وحقيقة السحَنِ أيضاً التي تتسجّل فيها الطباع والأقدار؛ ففي صالات عرض لوحات الرسم في اللوفر، وحتى في مجموعات الرسوم النافرة والصور التي يمتلكها لم يكن يملّ من التأمّل بإعجاب في لوحات، ناطقة بالحقيقة، لجيرار دو، أو ميتسو، أو تربرغ، أو ميبرس، أو تينيه؛ فأحد أبطال جول جانن، بارناڤ يقول: «أحببت الفلاندر لكثرة رؤيتي اللوحات الفلمندية» أما بلزاك فيمكنه القول: «إنني رأيت الفلاندر لكثرة تأمّلي في اللوحات الفلمندية».

لقد «رأى» الفلاندر، وبالطبع فقد بدا في «**البحث عن المطلق**» رسّاماً من المؤكد أن ناحية الابتكار والتقانة التصويرية في المظاهر الجمالية الروائية لبلزاك لا تحتاج إلى برهان، وليست هذه حالة وحيدة لديه؛ فالروائي الذي أشار في مناسبات عديدة إلى تفوّق الرسم على الكتابة، يستعير دون انقطاع ريشة الرسّام ليجمل ملامح شخص أو إطاراً زخرفياً وكلمات «لوحة» و «صورة» و «رسم» تظهر غالباً في **الملهاة الإنسانية**؛ وما هو أكثر من ذلك، أن بلزاك قدّم بقلم فليكس داڤن **دراسات طبائع** كرواق لوحات فنية، قد قسّم لحسن الحظ إلى صالات لكل منها غايته» وهو بالذات يشبّه بطيبة خاطر رواياته

بلوحات، فقد أراد مثلاً أن تكون **أوجيني غرانده والبورجوازيون الصغار**، في العام ١٨٤٤ «لوحة جميلة من لوحات المدرسة الهولاندية مع رأس من إبداع رافاييل في وسطها».

في هذه الشروط فإن وضع البحث عن المطلق في دوي، العاصمة القديمة للفلاندر تهيّء لموهبة الرسّام موقعاً مفضلاً، هذا ما يجب الاعتراف به؛ وتأثير الفنانين الفلمنديين يتجاوز هنا الذكريات وحتى تغيّرات الفنّ إذ يجب الحديث فعلاً عن تأثير «مبدع» مماثل لذلك أحدثه على الروائي لافاتر أو كوفيه أو جوفروا سان هيلير، فبفضل البصيرة حاسة البصر الثانية، «رأى» بلزاك الفلاندر، وكان رسّامها الأكثر واقعية والنقل الأكثر «فلمنديةً» من الجميع.

عندما بنى ذلك المنزل الذي ما يزال يخفق فيه قلب الفلاندر القديمة، أنشأ فيه كما في جميع مساكن هولاندة الغنيّة، صالة عامة للوّحات، ووصف في منتصف الرواية تماماً غنى تلك الصالة، وهي وسط هندسي حقيقي في المكان والزمان، لمنزل كلايس. إذا استخدمت قاعة الجلوس إطاراً للأحاديث المأساوية، ولاحتضار الحب، فكانت حجرة كئيبة تتلاشى فيها أشعة النهار ويموت فيها الأشخاص جوزفين ثم بلتزار - فإن الصالة العامة بالمقابل ذات النور الهادىء والموزّع بانتظام تظهر كمكان للحظّ الموفّق والحبّ الوليد، وكركن سعيد يتفتحّ فيه الغرام السماوي والمشعّ لمرغريت وإيمانويل.

من الصالة العامة، مئتا سنة تتأمل ثروة كلايس تتدمّر وتستعاد، وهي في عودتها إلى الظهور، مأساوية ورمزية في آن واحد، تشخّص كل مراحل المأساة، وكلّ وجود تلك العائلة الذي يبسطه المؤلّف في سلسلة من لوحات التاريخ، والمشاهد المنزلية، وملامح الأشخاص، مما يحيل الرواية إلى صالة عرض حقيقية يكون القارىء فيها هو الزائر.

إنّه وهو المتشوّق إلى تلخيص تاريخ الفلاندر في لوحة منذ أصولها الأولى، يلجأ إلى التباين في الإضاءات، وإلى تراصف الألوان، وإلى اختيار الأشياء، الزجاجيات البندقيّة، وخزف الصين أو المندولينة الاسبانية، أو أنه

يرسم على السطح المستوي للوحته هيمنات القرون المتغيِّرة، وتاريخ تجارة شعب؛ بكلمة واحدة، سير الزمن، ويختصر على طريقة تينيه، الذي يقول عنه إنه «قد صوَّر الشعب الهولاندي يدخن التبغ ويشرب البيرة» تاريخ الطبائع في طبيعة صامتة مؤلفة من كأس بيرة وغليون، على أرضية قاتمة تذكِّر بأن وحدة الفلاندر قائمة بفضل التبغ.

يصوِّر بلزاك، وهو رسَّام الملامح الحريص على الحقيقة السيدة كلايس كلوحة الأم المتألمة لموريو، ومرغريت كملاك من ملائكة غيد، وإيمانويل دى سوليس صورة من صور رفاييل، لكنه يستعير من أجل لمولكنية وبلتزار كلايس ريشة رامبراندت، سيِّد الإضاءات العجيبة، بينما يمكن مصادفة الأشخاص الثانويين بين شيوخ البلد التي رسمها ميرڤلت أو وسط عامة الشعب المتميِّزين بغنى اللون لجوردنس(١).

ألا يخيَّل إلينا أيضاً، عند مشاهدة منزل كلايس، أننا أمام أحد هذه المساكن، المزخرفة بجبة جملون ذات حَيْد في «سوق أعشاب امستردام» الرائع، الذي رسمه جيراردو، أو في ساحة احدى هذه المدن الصغيرة التي استهوت ريشة فان دير هايدن؟ وأننا ندخل إلى الفناء الداخلي على الانعكاسات الوردية أو على مرأى إحدى لوحات ڤرمير أو بييتر دي هووش(٢).

الحدث الأكثر تميُّزاً أيضاً في جميع المشاهد الداخلية لهذه القصة المأساة هو إمكان إعطائها عنواناً مستمداً من لوحات مييريس أو تربرغ أو تينيه: «عائلة فلمندية»، «شابة تقرأ رسالة» «مشهد داخلي لمطبخ»... ومجموعة هذه اللوحات الأصلية المثيرة للدهشة سواء بتناسق الألوان واتقان التفاصيل أو بتوازن التركيب والحقيقة اليومية للمواضيع، تفتني أيضاً بتحف فنِّية جديدة مثل

(١) يستعين الروائي بلوحات أشهر رسامي العصر الوسيط: موريو: الرسَّام الاسباني (١٦١٨ ـ ١٦٨٢) وغيد الرسام الايطالي (١٥٧٥ ـ ١٦٤٢)، ورفاييل أشهر رسامي ايطالية (١٤٨٣ ـ ١٥٢٠) ورمبراندت رسام المدرسة الهولاندية الشهير (١٦٠٦ ـ ١٦٦٩) وجوردنس: الرسَّام الفلمندي (١٥٩٣ ـ ١٦٧٨).
(٢) رسَّامان هولانديان.

«عشاء فلمندي»، أو «سهرة عائلية»، أو «زيارة موثق العقود»، أو «وداع المخبر»، أو «القهوة» أو «موت أم» أو «خطوبات فلمندية»؛ فالمجموعة توضع إذاً تحت دلالة الوحدة الفلمندية المتناسقة بشكل كامل، حيث يعتمد التنويع فيها العرض، فأحياناً تكتفي اللوحة بذاتها، وأحياناً تزدوج بتأثير التناظر أو بتجسيم التباين بين رسمين، بينما يمكن لثلاثية، في لحظة مأساوية، أن تقارب الماضي والحاضر والمستقبل؛ وهكذا ففي حفل الذكرى السنوية للزواج، الصاخبة والملونة، وهي البقية الأخيرة من ماض سعيد يقابلها من الناحية الأخرى مشهد الفناء القاتم والخاوي، بينما توجد في المركز صورة الفلمندية الشابّة مرغريت مثيرة للانتباه وموجهة القارىء إلى الدور الأساسي الذي ستضطلّع به الفتاة الشابّة قريباً.

من هذه المشاهد الحميمة، وهذه الصور المقدّمة، يكوّن الروائي أحداث مأساة من جزئين ينعكس مخططها الموجّه في حركة الألوان ويخضع للصبغية المسيطرة لكل منها؛ فالأسود هو لون الجزء الأوّل والموت يتجلّى مسبقاً في اللوحة التي تمثّل السيدة كلايس في قاعة الجلوس وكآبة خريفية تغمر تلك الغرفة حيث تبدو تلك المرأة المتألمة « كأم تحتضر» فكل شيء دموع وحداد واحتضار، لا يكاد يظهر على أرضيته السوداء ألق بضع وردات ينثرها الحبّ الوليد بين الشابين في نهاية هذا الجزء المخدّد بوهج الاحمرار الوافد من الجحيم المعلن عن حريق المطلق. في الجزء الثاني من الرواية تتناوب ألوان السماء والجحيم، والضوء والعتمة؛ فمرغريت، وقد جمّلها الحبّ الصافي لايمانويل الرفاييلي، تبدو كملاك تشعّ بحضورها نوراً سماوياً؛ فالأزرق اللازوردي، وهو رمز الانتصار والحبّ يتنازع مع الأحمر الجهنمي الذي يرمي به الموت؛ ولئن كان اللهب أحمر، فالنور لدى بلزاك في الغالب أزرق: «إنّ الحياة زرقاء كما السماء الصافية»[1]، وسير قصة آل كلايس يخضع، كما هو بيّن، إلى الترميز المألوف في ألوان **الملهاة الإنسانية**؛ لكن صبغية المجموع تزيد من التأثير على القارىء، «وكلوحة من المدرسة الهولندية يبدو هنا كل شيء قاتماً،

---

(١) من رواية الدوقة دي لانجه.

حتى الوجوه» هذا ما قاله بلزاك في المارانا؛ وهذا تماماً ما يمكن قوله في البحث عن المطلق، وإذا كانت كلّ الملهاة الانسانية تكشف لدى بلزاك عن فن فلمندي بشكل رئيس فيجب الاعتراف بأن هذا الألق اللوني فيها لم يتلألأ فيها أبداً بمثل هذا التلألؤ الذي يظهره تباين النور والظلّ الفاتن في منزل كلايس.

في بلجيكة، وجّه ناقد عبر تقريره عن البحث عن المطلق تحيّة مؤثّرة لهذه اللوحات التي يتجلى في ألقها اللوني النضارة والاتقان الرفيع وهما بالنسبة لناشيء وطني حقاً وفقاً لمنظور الفن». أما في فرنسة، فمن بين التقريظات العديدة التي حيّت موهبة الرسّام في هذه الرواية، يكفي أن نختار شهادة س. ه. برتو، وهو فلمندي عريق، وخبير مدهش في الرسم الفلمندي: «إن السيد دى بلزاك ينتمي إلى ما يمكن أن نسميه في الأدب المدرسة الفلمندية، فهو أحياناً متألّق ومندفع كروبنز، أو غامض وعجيب على طريقة رامبراندت، لكن يجب مقارنته خاصة مع تربرغ؛ فالواقع أنّه كهذا الرسّام الشهير تلذ له اللّوحات على المساند، يصوّر فيها الوجوه بأدّق تفاصيلها، وباتقان وخلو من العيب يتحدّيان العدسات المكبرة، وهو يبرع بشكل عجيب في أن يلّعب على أقمشة اللوحات ثنايا الطيّات والتألّقات الناعمة للانعكاسات الحريرية، ولا يفوته شيء من المتمّمات، ويعرف كيف يعطي للأشياء الأكثر ابتذالاً أهمية قصوى». يجب أن نضيف إلى أن هذا الفن الفلمندي حيث دقّة اللمسات تعبّر بواقعية مدهشة عن حقيقة الحياة، لا تمنع عين الفنان من أن تكون في الوقت ذاته عين العرّاف الذي يتأمّل في ما وراء الزمان والمكان، وابتكارات الرجال، فترى حقيقة ليست أبداً على مستواهم.

V

نتحقّق سريعاً أن هذا العرض، المأساوي والرمزي، في لوحات يشير تتابعها إلى سياق محتم القصة ينزع إلى أن يستبدل بالتسلسل التأريخي تسلسلاً منطقياً وجّه المنهج الاستنتاجي فيه باستمرار خطا الزائر؛ فكلّ لوحة

تُعرض كنتيجة - أو كسبب عندما يتعلّق الأمر بالعودة إلى الخلف - لما سبقها فلا يشعر بسير الزمن إلاّ في مُدَد قصيرة لا تظهر فيها الشخصيات؛ وهكذا فالعبارات المخصصة للدلالة على المدة ولإعطاء مؤشرٌ زمني تتميّز بقصرها، فإذا تطلّعنا إلى العمل ككلّ، نلاحظ أن بين المشهد الذي بدأت فيه الأزمة في شهر آب ١٨١٢ والمشهد الحادث في آب ١٨١٣، أي بعد سنة، تتسجّل سبعين صفحة في طبعة فورن، وتكفي بعد ذلك اثنتان وتسعون صفحة لتسجيل تطوُّر المأساة من ١٨١٣ إلى ١٨٣٢ أي التصدي لمرحلة تقرب من عشرين سنة؛ ويؤكّد التفصيل الرؤية المجملة، وهكذا تتسطّر مدة اليوم العصيب من شهر آب ١٨١٢ على الخمسين صفحة الأولى، بينما تختصر عبارة بسيطة قضاء شهرين في الريف. مثال آخر، لقد استلزم اليوم الذي ماتت فيه السيدة كلايس سبع صفحات، كما تطلّبت المقارنة بين بييركين وإيمانويل من قبل مرغريت في ذلك اليوم من شهر نيسان ١٨١٦ أربع صفحات بينما عُبِّر ببعض كلمات بعد ذلك مباشرة على انقضاء عدة أشهر، ثم ببعض أسطر على مرور سنة.

سجّل هذا الواقع بحقّ ج. پُله بقوله «إن المستقبل والماضي طريقان مفتوحان سوية أمام الفكر الاستنتاجي[1]» مما يجعل المدة البلزاكية تشتمل على: «حركة تقهقرية تصعد في مجرى الزمن قبل أن تنبسط من جديد في حركة تقدّمية نحو الحاضر والمستقبل» فيتمّ الانتقال من النتيجة إلى السبب، ثم من السبب إلى النتائج، فالأمر يتعلّق باستمرارية متناسقة، ومدّة مليئة، وحيّز مليء يتمكن المؤلّف خلالها، بفضل البصيرة، حاسة البصر الثانية أن يلمّ بالموضوع من جميع الجوانب.

أيلسرّ هذا الاندساس المستمر للماضي أو للمستقبل في الحاضر؟ أهي تقنية؛ إنّها رؤيا للعالم خاصة؛ فبلزاك، بإلغائه الزمان والمكان يسيطر على ما أبدع بنظرة واحدة تقرّب الحيوز والفواصل بحيث أن مجتمع الفانين لا يعيها إلا في انقطاعها، وتغايرها.

لقد سخر النقاد من السرعة والسهولة التي جدّدت فيهما مرغريت كلايس

---

(١) ج بوله: المسافة الداخلية، پلون ١٩٥٠ ص١٧٨.

الثروة الوراثية التي بدّدها والدها؛ وقد عدّل الروائي المتأثّر بالنقد - لكن بطريقة غير كاملة - تأريخ سنوات منفى بلتزار في الطبعة التالية، هل يفضح، حقيقةً، هذا الحدث نقض الواقع لدى مؤلّف يعتبر رغباته حقائق؟ إنّه يبدو، بالأحرى، كنتيجة مباشرة لرؤياه للعالم.

ما قيمة خمس أو سبع سنوات في نظر القرون وفي تاريخ أجيال آل كلايس؟ الأمر الرئيس ليس في التأريخ الزمني؛ إنّه في الوقائع، في التتابع المنطقي، أي في تعاقبات عائلة «يراها» بلزاك في لوحة تتقارب فيها مئتا سنة؛ ومثل هذه الرؤيا تحدّد بداهة تصوّر الزمن الروائي، تصوّر المدة، كما تحدّد الطبع المتناسق لمن يحيطون بكلايس الذين تتجسّد بهم بالإجمال قوى البقاء المعارضة لقوى الهدم التي أطلقها الكيميائي.

المقصود في الواقع رؤية «إجمالية»، وإذا كانت رؤيا عالم زولا تتوافق مع مبادىء فيزياء عصره، ودورة المال أو الدم في روجون - ماكار[1] تخضع لنسق محرّك كارنو ذي الأزمنة الثلاثة، فإن بلزاك، من جهته قد اعتمد على مبدأ لافوازيه الذي لا يقتصر تطبيقه على الكيمياء وإنما يتحقّق أيضاً، من وجهة نظره، في جميع أعمال الخلق: «لا شيء يفنى، ولا شيء يخلق، الكلّ يتحوّل، وتاريخ عائلة كلايس يقدّم نموذجاً إيضاحياً رائعاً، وبرهاناً علمياً لهذا المبدأ عن حفظ الطاقة. في الذرّية السابعة من آل كلايس تتجابه قوى الهدم وقوى البقاء، ولإعطاء المأساة قيمة نموذجية، فإن العبقري الهدّام باحث عن المطلق، إضافة إلى أنه فلمندي؛ لكن قوى البقاء تتغلب عليه وتمحو الذرّية الثامنة سيّئات الذرّية السابعة، فإذا حلّت لوحات أخرى محلّ اللوحات السابقة، وبدّل الأثاث والسُجف، فإن مرغريت، في لحظة احتضار الكيميائي، قد أعادت إلى بيت كلايس بهاءً حديثاً، حرص بلزاك على أن يؤكّد أنه «يبعد كل فكرة عن الانحطاط».

---

(١) روجون - ماكار: مجموعة من ٢٠ رواية نشرها زولا بين ١٨٧١ و ١٨٩٣ لتشكّل التاريخ الطبيعي والاجتماعي لعائلة في ظلّ الامبراطورية الثانية وفيها يطبق الطريقة العلمية وخاصة تطبيق قوانين الوراثة على دراسة الظواهر الاجتماعية. من هذه الروايات نانا وجرمينال الخ...

الكل يتحول، لكن الكل يبقى؛ والتوازن الذي يؤمّن وحدة العالم لن يستتبع بداهة غياب حركة تعني الموت، لكنه يستلزم حركة معوضة تتحدّد خلال الزمان بالتعاقب وخلال المكان بالتباين.

هكذا يتوضّح في الملهاة الانسانية تعاقب الأجيال، والتعاقب الذي يتفسّر بالتيار، وهو مصدر غالب لمجابهات مأساوية، فأوجيني تجابه غرانده، التي تبدو فيها طباع العائلة أكثر حدّة مما في طبع أبيها، كما يعترف هذا صراحة، وبالطريقة ذاتها يتصارع هنا بلتزار وابنته، وطبع آل كلايس فيها أكثر ظهوراً منه في أبيها، وكما عبّر كاليست دي غنيك في بياتريس عن ذلك لأمّه بقوله: «ألا ترين أنك بالعفة والتقاليد الجاهلة قد هيأت النار التي تتقد في كياني؟ وكلّما كمنت هذه النار كلّما كان تفجرّها أكثر عنفاً.

إلى المبدأ ذاته، تخضع الأقدار الشخصية في نتاج بلزاك. فوجود كل فرد يتشكّل كما يقول الروائي في أونورين: «من حوداث متنوّعة، من آلام ومسرّات متناوبة» فحياة القلب، كما الحياة المادّية، وكما الحياة الجسمية، أي التنفس، تخضع بالتناوب إلى مدّ وجزر؛ فأوغوستين دي سومرفيو في مجد وشقاء لم تعرف إلاّ سنة واحدة من السعادة، لكنها قدّرت، قبل أن تموت وهي في السادسة والعشرين من العمر، أن هذا الحصاد الغزير من الحبّ هو حياة كاملة لا يمكن أن يسدّد ثمنها إلا بالشقاء»؛ والنساء اللواتي كن سعيدات في البدء يحتفظن حتى النهاية في عيونهن المذهلة بانعكاس روعة الحبّ، بينما اللواتي خُنق حبّهن الوليد في الحداد والدموع مثل أورسول ميروه أو مرغريت كلايس يتلقين يوماً» من يدي الحبّ التاج الأكثر اشتهاءً، التاج الذي تضفره السعادة، وتحافظ المثابرة على بريقه.

هذا هو التوزان في الطبيعة الذي يعاقب، وفق قوانين تعويض صارمة، النهار والليل، والصيف والشتاء، والمدّ والجزر؛ والإبداع الروائي لدى بلزاك يخضع لهذه الرؤيا الإجمالية، القريبة جداً من رؤية علماء الطبيعة الذين يتحدّثون عن التغيّر في الوحدة، ومن رؤية الفلاسفة مثل آزابيس، ومن قبله

خاصة، أنطوان دي لازال[1] مؤلّف الموازنة الطبيعية، والروائي الصانع، الراغب في أن يُري القارىء ما يراه هو بالذات، أي بالإحاطة بكامل القصة، يؤكد دون انقطاع وجوده بواسطة إشارة تعجّب، أو كلمة، أو عبارة، تشير إلى الميزة الرمزية للحظة. إنّه يقود القارىء في هذا الكون حيث يسود الرمز وحيث تتجاوب الألوان، وحيث تظهر الأمكنة والمشاهد؛ ففي **البحث عن المطلق**، يجاوب عشاء عائلي عشاءً عائلياً آخر، إنّما منار بطريقة مختلفة؛ والاحتفال بالذكرى السنويّة للزواج المزيّن بالشجيرات المزهرة، يقابله الاحتفال بعقود الزواج حيث تشاهد مجدّداً، على درجات السلم ذاتها، الشجيرات المزهرة ذاتها، فالإضاءات تتقابل، والتباينات تخلق التنوّع المماثل لتنوّع الطبيعة، في هذا الكون «الواحد» حيث يمثّل التناظر عنصر التوازن المميّز.

هل يترك القارىء لنفسه أن تنساق مع هذه القصة؟ السؤال بمجمله هو في الرؤية أو عدم الرؤية، في الاعتقاد أو عدم الاعتقاد. من البديهي أن هذه الرؤيا الإجمالية التي تكتنف هنا قصة جيلين من عائلة، تنطوي هنا، على مستوى الإنسان ومحاكمته بعض «ما هو مستبعد الوقوع» مثل هذا النجاح السريع جداً لغابرييل كلايس وإيمانويل دى سوليس في دروب الحياة، أو هذه العمليات الماليّة الميسّرة والمجزية لمرغريت، لكن أيضرُّ هذا البعد عن الاحتمال، المعزوّ بصورة رئيسة إلى ارتفاع الرؤية، فعلاً إلى حقيقة هذه الدراسة عن الطبائع، وإلى هذه اللوحة الفلمندية، وحتى إلى هذه الصورة عن رجل العبقرية ذي المغناطيسية التي لا يتمكّن محيطه من مقاومتها؟.

إن الجواب يعود إلى القارىء، فهو حرّ في قبول أو رفض الافتتان بهذا العمل الآسر، حيث بهاء التنفيذ يتجاوب مع قدرة التصوّر في رواية الحبّ والعلم هذه، الأكثر «تمثيلاً» على الأرجح لبلزاك، الملاحظ والمستبصر، والباحث الخالد عن المطلق.

مادلين أمبيرببير

* * *

(1) دي لازال: (١٣٨٨ ـ ١٤٦١)، قصّاص فرنسي تنسب إليه «مباهج الزواج الخمسة عشر، ومئة قصة جديدة.

٣٥٠٠ ط ١ / ١/١٩٩٥



طبع في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٥

سـ ... ل القطر

في الأقطار العربية ما يعادل

٣٥٠ ل.س